

أبو بكر جابر الجزائري
يقدم إلى العالم الإسلامي

عقيدة المؤمن

«كتاب يبحث العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب
والسنة ، ويجالى حقائقها بأسلوب علمي سهل مُيسرٍ
واضح ، على أساس من البرهنة الصادقة التي تقوم
على الأدلة العقلية المنطقية ، والنقلية الشرعية» ،

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد أمبارك وشركاه

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م



المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، شرف آدم أبا البشر بخلقه يديه ، ونفخ فيه من روحه . وكرم ذريته فضورهم في الأرحام في أجمل صورة وخلقهم في أحسن تقويم .

ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير من المخلوقات ، وزودهم بالعقل ليعرفوه وأمدهم بالنعم ليدكروه ، ويشكروه .

أنزل الكتب ، واصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس ، لا يبلغ عباده شرائعه من الدين ، ليعبدوه ويوحدوه ، فتكمل بذلك آدميتهم ، وتشرف به إنسانيتهم ويتأهلوا الكرامة الدار الآخرة ، والسعادة الدائمة فيها ، حيث كتب لهم ذلك وقدره تقديرا . فسيبجانه من رب رحيم ، وإله عظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

والصلاة والسلام التامان ، الأكملان ، الدائمان ، المتلازمان على محمد حبيب الله ، وخاتم رسله وأنبيائه ، صفوة الخلق وخيرتهم ، وإمام الأنبياء وسيدهم ، صاحب لواء الحمد ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، وسيد كل مولود . وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين ، وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحابته البررة الراشدين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنه نظراً لأهمية العقيدة الإسلامية في حياة الفرد المسلم

وضرورة خلوتها من الشك ، وسلامتها من شوائب الشرك ، ونقاؤها من كدورات^(١) الخرافات .

ونظراً إلى الهزأت العنيفة القوية التي تتعرض لها العقيدة الإسلامية في هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة ، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى .

نظراً إلى هذا وذلك فقد رأيت أن الحاجة جدّ ماسة إلى وضع كتابٍ مناسبٍ في عقيدة المؤمن على ضوء كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون سهل العبارة ، قريب الإشارة . حججه قوية ، وأدله قطعية ، مضاهٍ بضياء الأدلة السمعية الدينية الشرعية ، مناراً بأنوار الحجج العقلية النظرية القياسية .

كما رأيت أني أقرب من شاطئ نهاية حياتي ، وأتقدم بسرعة نحو باب مماتي ، ورجوت ربّي أن لا يأتيني أجلّ إلا بعد أن تقضى لُباناتي^(٢) في وضع الكتاب المطلوب ، وتركه بعدى صدقة جارية ، وحسنة سارية ، يصلني من بركاتها ما يزيد في نعيمي إن كنت من المنعمين ، أو ما يخفف عني عذابي إن كنت من المعذّبين .

واستعنت بالله تعالى على وضع الكتاب المرغوب ، وأخذت في الجمع والتأليف ، وفي التحرير والتجوير ، ولم يمض طويل زمن حتى تم وضع كتاب في عقيدة المؤمن على ضوء الكتاب والسنة وجاء كما أملت سهل العبارة ، قريب الإشارة ، حججه قوية ، وأدله قطعية .

غير أن كثرة الأعمال ، وانشغال البال قد حالت - مع الأسف - دون التنقيح وإن لم تحل دون التصحيح ، فعذرة إلى الأخوة القارئین إن

(١) الكدورات جمع : كدورة . وهي الكدر الذي هو ضد الصفاء .

(٢) اللبانة بالضم : الحاجة .

وأما تقديم ماحقه التأخير ، أو تأخير ماحقه التقديم . أو زيادة كلمة في جملة ، أو نقصها من أخرى : فأخّل ذلك بحمال التركيب ، أو حسن الترتيب فأفقد الكلام طلاه ، والأسلوب حلاه .

هذا والكتاب لو لم أكن جامعه ، ومؤلفه لقلت فيه ما يرغب في اقتنائه ويبعث النفس على شرائه .

وهذا أراه غير مانع من أن أقول فيه كلمة تقويم ، لاتعظيم ولانفخيم ، تحدد معالنه ، وتظهر محاسنه ، وتبين ما فيه من خصائص ، وما له منميزات . وهل في ذكر ذلك من بأس إذا كان يحمل الأخوة المؤمنين على قراءة الكتاب ، واعتقاد ما فيه من الحق والصواب ؟ لا سيما وأنا ما كتبتة إلا لهم وما جمعتة وألفته إلا لعلهم يجتهدوا في الاكيدة إليه ، واقتنارهم الشديد إلى مثله ، إذ هم يعيشون في زمن أصبح من الصعب فيه قراءة كتب الأولين ، والاستفادة منها ، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها ما يلي :-

أولاً : ضعف الملكة العلمية التي يتأتى بها للقارى أن يفهم ما يقرأه ، ويستفيد منه ما هو في حاجة إليه من تصحيح معتقد ، أو فهم حكم ، أو تحقيق مطلب .

ثانياً : قلة العلماء الدارسين لكتب الأولين ، المحققين لها ، العالمين بما فيها ، الذين يرجع إليهم الطالب اليوم فيما خفى عنه منها ، أو أشكل عليه فيها .

ثالثاً : انعدام الهمم العوالى (إلا ما شاء الله) ، تلك الهمم التي كانت تحمل أصحابها على الصبر في الطلب ، وعلى المثابرة في الدرس حتى يلين الصلب ، ويسهل الصعب ، فتكشف مخدرات المعاني ، وتتجلى شمس العلوم والمعارف .

رابعاً : ما طبع به العصرُ اليوم أهله من حُب العجلة والعاجلة ،
والرغبة عن الآجلة^(١) . والآجلة والعلم من شروط اكتسابه ، والحصول عليه :
الصبر والآناة والرغبة فيما عند الله .

هذه بعض العوامل التي جعلت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي تقدّم
له حاجة ماسّة ، والعمل في تأليفه وإخراجه من الأعمال الصالحة النافعة^(٢) .

والآن فإلى كلمة تقويم^(٣) الكتاب حيث أقول :

إنّ هذا الكتاب الذي سمّيته « عقيدة المؤمن » هو بحق — جاور لعقيدة
المؤمن — مشتمل على أصولها ، جامع لفروعها ، لم يترك من أصول العقيدة
ما يخلّ بها ، ولم يغفل من فروعها ما يضعفها أو يوهنها ، فقد اشتمل على
الإيمان بالله تعالى ، وأدله ومراتب المؤمنين فيه ، وعلى توحيد الله تعالى ،
وأقسامه ، وعلى الشرك وأنواعه ومظاهره ، وعلى بيان الوسيلة والتوسل ،
والشفاعة والاستشفاع ، وعلى أولياء الرحمن وكراماتهم ، وأولياء الشيطان
ومهاناتهم ، وعلى الإيمان بالملائكة وأدلة وجودهم العقلية والسمعية ، وعلى
بيان مراتبهم وأعمالهم وأحوالهم ومادة خلقهم ، وعلى ذكر الجن ومادة
خلقهم ، وعلى ذكر أحوالهم وأعمالهم ، ومآلهم ، وعلى ذكر الشياطين
وما جلولوا عليه ، وما يحفظ الإنسان منهم ، وينجيه من كيدهم .

وعلى الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة ، ومن نزلت عليهم وأدلة ثبوتها ،

(١) الآجلة : المتأخرة قال صاحب القاموس المحيط : أجل كفرح فهو
أجل وأجل تأخر . والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة .

(٢) أى المتعدى نفسها إلى غير عاملها .

(٣) أى بيان قيمة الكتاب المعنوية ، ومن اللحن الشائع قولهم : تقيم كذا

يعنى تقويمه .

حيوان عندها بونا سخيا، ومنسوخها، وعلى الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام،
حيوان عددهم وأسماهم، وأسماهم أهمهم، وبيان ديارهم وأزمتهم، وعلى
أعاضهم وهم أولو العزم، وعلى أدلة الوحي وثبوتها بالأدلة العقلية والسمعية،
وحاجة الناس إلى الوحي الإلهي، وعدم استغنائهم عنه بحال من الأحوال.

وعلى المعاد، والبعث، والجزاء وإمكان ذلك، ووجوب الإيمان به،
وعلى كيفية البعث وأحوال الناس فيه، وما يجري عليهم، ويطرأ لهم من
بوزن أعمالهم وعبورهم على الصراط، ونجاة الناجين، وهلاك الهالكين،
وعلى ذكر دار السلام وما فيها من نعيم مقيم، وعلى ذكر دار البوار وما
فيها من جحيم وحميم، وعلى الإيمان بالقدر وأدلة وجوب الإيمان به العقلية
القياسية، والدينية الشرعية، وعلى ذكر الجبر والاختيار، والإرادة
والمشيئة. والهداية والإضلال، والحسنة والسنة.

وعلى خاتمة في بيان ثمره هذه العقيدة، وفائدتها المقصودة منها،
والمتوخاة فيها. ومن خصائص هذا الكتاب احتواؤه على كل أجزاء العقيدة
الإسلامية، وبحثها بالتفصيل، ومن يميزاته جمعه في إثبات مسائله بين الدليلين
العقلي والسمعي، وكتابته بروح العصر. والله أسأل أن ينفع به من يقرأه
ويدرسه، وأن لا يحرمني أجر ما بذلت فيه من جهد هو من فضل ربي. على
ولا كرامه لي. والحمد لله رب العالمين.

حاجة الإنسان إلى العقيدة

وضرونها له

ما هو الإنسان ؟

الإنسان هو هذا الكائن الحي المنتصبُ القامة ، البادى بالبشرة ، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة ، والعواطف الجياشة ، والإحساسات الصادقة ، والمنطق السليم ، والكلام الفصيح المبين . ابتداءً الله تعالى خلقه من طين ، ثم جعل ذريته من سلالةٍ من ماءٍ مهيّن ، إذ خلق آدم من طين يديه ، ونفخ فيه من روحه ، وخلق منه أئناءً حواء ، وعله الأسماء ، وأسجد له ملائكة السماء ، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى . ونهاه عن الأكل من الشجرة فسبى ، فأكل منها ، فعصى وغوى ، وتلقى كلمات منه تعالى ، فقالها فتاب عليه وهده ، وأهبطه إلى الأرض خليفةً فيها بعد أن هيأها له ، وسخر له كل ما فيها .

هذا هو الإنسانُ في معتقدنا ، وهو — أى معتقدنا هذا في الإنسان . مُستقتى من وحى السماء لا مجال فيه للقياس ولا للنظر والاستدلال ، إذ مثله لا يُعلم بغير الوحي أبداً .

وهذه حقوقه عندنا : حرمةُ دمه ، وماله ، وعرضه ، واحترام مشاعره . وعواطفه وأخلاقه ، والاعترافُ بجهرياته الشخصية مالم يخلّ بكرامته . ومصالح الهيئة الاجتماعية التي هو أحد أفرادها ، وجزء من أجزائها .

وأدلة عقيدتنا هذه في الإنسان هي أخبار خالقه عنه ، وعن كيفية خلقه . وتلشّيته ، الواصلةُ إلينا من طريق يحيل العقلُ البشرى تكذيبها

وإنكارها وهي أقواله تعالى ، في كتابه الكريم : القرآن العظيم ، إذ قال تعالى في خلق آدم ، « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » (١).

وقال عنه أيضاً : « وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٢).

وقال عنه أيضاً « الذي أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين » (٣).

وقال في خلق ذريته : « ثم جعل نسله من ماء مهين » (٤). وقال في خلق الإنسان الذي هو ابن آدم :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » (٥). وقال في خلقه أيضاً : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (٦).

وقال: في خلق المرأة الأولى حواء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » (٧) وقال عنها أيضاً : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٨).

-
- (١) سورة الحجر (٢٦) .
 - (٢) سورة ص الآيات (٧١ ، ٧٢) .
 - (٣) سورة السجدة الآية (٧) .
 - (٤) سورة السجدة الآية (٨) .
 - (٥) سورة الإنسان الآية (٢) .
 - (٦) سورة المؤمنون الآيات (١٢ - ١٤) .
 - (٧) سورة النساء الآية (١) .
 - (٨) سورة الأعراف الآية (١٨٩) .

وقال في تعليمه - آدم - الأسماء والبيان : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، ^(١) » وقال : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان عليه البيان ، ^(٢) » . وقال في خلقه - آدم - يديه وتسويته له ، وإسجاده ملائكته له : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، وقال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، ^(٣) » .

وقال في نهيه - آدم - عن الأكل من الشجرة التي أكل منها يتغير من الشيطان فعصى وغوى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنى ولم نجد له عزماً ، وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا : يا آدم من هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لا تطعمها فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ، ومملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوء أتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها نجما لبعضكم لبعض عدو ، ^(٤) » .

وقال تعالى : « فطلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ، ^(٥) » .

(١) سورة البقرة الآية (٣١) .

(٢) سورة الرحمن الآية (١ - ٤) .

(٣) سورة ص الآيات (٧١ - ٧٦) .

(٤) سورة طه الآية (١١٥ - ١٢٣) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٧) .

وقال في بيان هذه الكلمات من سورة الأعراف : « وقالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، (١) » .

وأقوال رسوله صلى الله عليه وسلم التي تلقاها وحياً من ربه سبحانه وتعالى فقد روى مسلم^(٢) في صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « خُلِقَ الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصِفَ لكم ، (٣) » . يعنى صلى الله عليه وسلم وخلق آدم من طين . كما بين ذلك في القرآن الكريم ، وقال صلى الله عليه وسلم في رواية البخارى ومسلم يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ ! فيأتون آدم عليه السلام فيقولون : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك . إلخ (٤) ... والشاهد منه في قوله صلى الله عليه وسلم خلقك الله بيده . فلو لم يكن خلقه خلقاً مباشراً ، وإنما كان كخلق سائر الناس لما كان لذكر اليد والخلق أى ميزة ، أو فضيلة على خلق غيره من بنى آدم . وقال صلى الله عليه وسلم في رواية البخارى ومسلم وأحد واللفظ له : احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة . قال : فقال آدم ، وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله قدره الله على قبل أن يخلق السموات والأرض بأربعين سنة ! قال : قال فحج آدم موسى . (٥) .

(١) سورة الأعراف الآية (٢٣) .

(٢) متن مسلم (٢٢٦ / ٨) .

(٣) التولود والمرجان (٥٠ / ٤٩ / ١) .

(٤) التولود والمرجان (٢١١ / ٣) مسلم (٤٩ / ٨) . وكذا أبو داود في

(٥٢٨ / ٢) والفتح الربانى (١٢٧ / ١) وأقناظم مقاربة .

وقال صلى الله عليه وسلم في رواية أحمد وأبي داود والترمذي وصحها
 «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ لَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ
 الْأَرْضِ ، لَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ
 وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالنَّخِيتُ وَالطَّيْبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ .» (١)

وقال صلى الله عليه وسلم في رواية البخاري: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ
 وَطَوْلُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا ، ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيَوْنَكَ ، فَإِنِهَا تُحْيِيكَ وَتُحْيِي ذُرِّيَّتَكَ ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ .
 فَقَالُوا : عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فزادوه وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فكل من يدخل الجنة
 على صورة آدم ، فلم يزل الخلق يُنْقَصُ بعدُ حتى الآن ،» (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ
 يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلَا تَقُومُ
 السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ،» (٣) .

وبعدُ : فهذه الأقوالُ الإلهيةُ ، والأحاديثُ النبويةُ كُلُّهَا قاضيةٌ
 بخُلُقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاتَمًا مُبَاشِرًا . خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ
 فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ طَوْلَهُ
 سِتِينَ ذِرَاعًا ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْهَا لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ فَغَصَى

(١) أبو داود (٥٢٥/٢) والترمذي في تفسير سورة البقرة . وأحمد في
 (٣٣٨/٥) .

(٢) بخاري (٦٢/٨) . وعلى صورته أي على صورة آدم التي خلقه بها كما
 في آخر الحديث .

(٣) مسلم (٦/٣) .

وغوى ، وأهبطه إلى الأرض هو وزوجه حواء التي خلقها الله منه بالآمر

تلقى في الأرض نواة لا حياة فيها ، ثم تنفلق عن غصن أخضر . ثم يتدرج خلقها حتى تصبح نخلةً باسقةً لها طلع تضيد رزقاً للعباد ، وبالجملة فسُنن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتة لا تتكرر ، وسُننُهُ تعالى في انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابتة كذلك ، وسُننهُ تعالى في البقاء للأصاح ظاهرة في كثير من الكائنات ، ولكن هذه السنن هي من خالق الله وتقديره ، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته ، ولذا يخرجها بالمعجزات التي يعطيها لأنبيائه تدليلاً على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياءه ورسله ، فخلق عيسى عليه السلام كان على خلاف سنة الخلق المعروف في سائر بني آدم كما قال تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون »^(١) . وتكلم عيسى في المهد في أسبوع ولادته كان على خلاف سنة الله تعالى في نطق الإنسان الذي لا يتم إلا بعد قطع الطفل مرحلة من حياته . وسلامة إبراهيم من إحراق النار لما يُلْقَى فيها من أجسام قابلة للاحتراق ، وأمثلة إبطال الله تعالى لسنته في خلقه متى شاء ، ذلك كثيرة . والمقصود من هذا أن ما يسميه الملاحدة بالقوانين الطبيعية ويتخذون منه دليلاً على كفرهم بالله تعالى ، ما هو في الواقع إلا سنن الله تعالى التي أودعها في الكون . يوجدها ويخلق ما يشاء بإيجاده وخلقته ، وهي خاضعة له تعالى متى شاء أمضاها ، ثابتة لا تتغير ، ولا تتبدل كما قال الله تعالى : « فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً »^(٢) ومتى شاء أوقفها وأبطلها لحكمة منه اقتضت ذلك وهو العزيز الحكيم .

يبد أن خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر ، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدة ، وتصوروا ، لاخبار الله تعالى وأخبار رسله التي يستحيل فيها الكذب ، هذا وقد ناقش العلماء المؤمنون هذه النظرية

(١) سورة آل عمران الآية (٥٩) .

(٢) سورة فاطر الآية (٤٣) .

الدارونية التي أصبحت مذهب الملاحظة ومعتقدهم ، وأبطلوها نهائياً بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية التي أثبتها الدارونيون بها .

وهذه بعض الاعتراضات التي عارضت بها النظرية الدارونية وأبطلتها :

١ - إذا كانت نظرية اللشوء والارتقاء مطردة في كل شيء فمن أى شيء ترقى الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم ؟ (١) ، وعن أى شيء ترقى البهائم ذات القوائم الأربع : الخيل والبغال والحمير ، والأسد والنمر والفيل والذئب والكلب .

٢ - ومضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترق إلى ما هو أكمل منها إذ الكمال لا حد له ، فبقى الفرس فرساً ، والكلب كلباً ، والأسد أسداً ، والذئب ذئباً . والإنسان إنساناً متميماً كل منها إلى ما هو عليه الآن ، ومنذ قرون طويلة ؟؟؟

٣ - لم يبق القرد الأول ، وانقرض الحيوان الواسطة الذي ترقى من القرد ؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح ، والانتخاب الطبيعي مطردة لانقرض القرد الأول وبقي الحيوان الواسطة الذي ترقى عن الأول ، لأنه أكمل منه وأصلح والبقاء للأصلح ؟؟

فلم هنا كان البقاء لغير الأصلح ؟ ولم أساء الانتخاب الطبيعي هنا فانتخب الناقص فأبقاه ولم ينتخب الكامل فأرداه ؟

(١) يقول الله تعالى من سورة الزمر : وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج الآية (٦) فلتنظر كيف عبر تعالى عن خلق الأنعام بلفظ الإنزال ولم يعبر بلفظ الإخراج كما قال في التمارد وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، من سورة البقرة الآية (٢٢) .

٤ - إن مذهبكم المادى قائم على أساس نكران القياس والنظر والاستدلال . فلم يؤمنوا بغير المرنى المحسوس ، فلم خالفتموه هنا ، وقلتم بالنظر والقياس والاستدلال ، لأنكم ماشهدهم الخلية الأولى التى زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب . كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التى زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك ، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقلتم بمجرد النظر والقياس ، وبذلك نقضتم مذهبكم المادى ، وخرجتم عنه ، فثبت عجزكم ، وبطل معتقدهم فى النظرية الدارونية التى قال عنها أحد العلماء المؤمنين : « إنها نظرية أبوها الكفر وأما القنارة ... » (١) .

وأخيراً فقد اعترف كبار أصحاب النظرية الدارونية بعجزهم وقالوا : بالحرف الواحد : إن نظرية الدشوء والارتقاء ليست ثابتة علياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالرهان أبداً ، وإنما آمنّا بها ، لأنها البديل الوحيد عن الايمان بالله ! .

وبهذا اقتضحت اللعبة ، واكتشفت الجريمة . والحمد لله .

(مقارنة)

ولنختم الحديث عن الإنسان بالمقارنة التالية ، ليتجلى الفرق بين الإنسان عند المؤمنين ، والإنسان عند الملاحدة الدارونيين . فنقول :

الإنسان عند المؤمنين :

خلق فى السماء خلقاً مباشراً مستقلاً ، خلقه الله يده ، ونفخ فيه من بروحه ، وعله الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكة السماء ، خلقه فى أحسن تقويم ، ونصه بالتيكريم بين العالمين .

(١) قصة الايمان (١٩٣) من فصل بين دارون والجسر .

حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق . أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، فبيّاه بذلك للكمال ، وأعد له سعادة الحال والمآل . أخبر عن خلقه ، وتكوينه ، وكرامته ، ومآله ، وخالفه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه .

الإنسان عند الملحدّين :

خلق بواسطة الشوّه والارتقاء في أقبح صورة ، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً ، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرود في ملايين أخرى من السنين ، ثم صار إنساناً بعد ملايين السنين .

أخبر عن خلقه ونشأته وتكوينه كبار الملاحدة ، وشرار الناس ، وأكثرهم فساداً وفجوراً ، مآله الهلاك والدمار ، فلاخلود له ولا بقاء .

والآن يامعشر العقلاء فأى الإنسانين أحق بالتكريم ، وأى الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون ، إنسان المؤمن أم إنسان الملاحدة (الداروينين) ؟!

إنه من المنسوخ في العقول والشذوذ في الفهوم ، والانحراف في الفطر القول بنظرية (الداروينين) في الإنسان ، إنها نظرية فاسدة خبيثة أبوها الكفر وأما القذارة (١) .

العقيدة

ماهى العقيدة ؟

العقيدة هى : مجموعة من قضايا الحق البدئية المسئلة بالعقل ، والسمع ، والفترة ، يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويبنى عليها صدره جازماً بصحتها ، قاطعاً بوجودها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً .

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه ، وعلمه به ، وقدرته عليه ، ولقائه به ، بعد موته ونهاية حياته ، ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعليه غير الاضطرارى . وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورؤسله طاعة تزكو بها نفسه ، وتهذب بها مشاعره ، وتكمل بها أخلاقه ، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة .

وكاعتقاده بغير ربه تعالى عنه ، وافتقاره هو إليه ، وفى كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها ، فبالله تعالى حياته ، وعليه وحده توكله واعتماده ، إذ هو محط رجائه إذا طمع ، ومأمن خوفه إذا خاف ، يحبه يحب ، ويبغضه يبغض .

هو مولاه الذى لا مولى له غيره ، ومعبوده الذى لا معبود له سواه ، لا يرى ربوبية غيره ، ولا يعتقد ألوهية سواه .

حاجة الانسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة ، يكتنفها الواقع ويطلها تاريخ البشرية الطويل ، إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حينما كان ، وفي أى ظرف وجد ؛ وعلى اختلاف أحواله ، وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً ، وسواء كانت تلك العقيدة حقاً أو باطلاً ، صحيحة أو فاسدة حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين ، وأن الإنسان في عصر الذرة ، وغزو الفضاء لم يصبح في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى ، وبالفوا في الكفر والإنكار حتى قالوا : إن الإله لم يخلق الإنسان وإنما الإنسان هو الذى خلق الإله^(١) ، وهم يريدون بذلك أن الإنسان في الظروف الصعبة التى كان يعيشها ، والخاوف تتناهب من كل ما حوله من مظاهر الكون ، إذ هو يخاف المرض ، ويخاف الفقر ، ويخاف الرعد والبرق ، والفيضان والسيول ، والعواصف والزلازل ، وحتى الحيوانات ، اضطرب لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تعجز ، وسلطان لا يُغلب ولا يقهر ، سماها إلهاً يفزع إليه عند الشدائد ، ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور ، ويقيه من المهالك ، لهذا قالوا : إن الإنسان هو الذى خلق الإله ، وليس الإله هو الذى خلق الإنسان ، وهو قول مضحك ، وجعل فاضح ، وكفر صريح ، وكذب عمقوت ، ومغالطة مكشوفة ، وسخف عقول لا حيلة !!!

وتحريم هذه القضية الفاسدة : هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذى خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصناماً آلهة ، نحتوها بأيديهم ، وعبدها

(١) هذه العبارة القنطرة من قاموس الشيوعية الماركسية عدوة الإنسان .

بأهوائهم . فنعلم . هذه الآلهة خلقها الإنسان ؟ وليست هي التي خلقت الإنسان .
وأما إن كانوا يعنون بالإله الذي خلق الإنسان الله الذي خلق السموات
والأرض وما فيها ، وما بينهما ، وخلق الإنسان ، وكرّمه فأُنزل عليه كتبه ،
وبعث إليه رسله ، وعرفه بنفسه ، وبشرائعه التي بها يتم كماله ، وتحقق
سماعته ، فقولهم مغالطة ، وجهل ، وسخف ، وكذب ، إذ الإنسان لم يخلق
حتى نفسه فضلا عن أن يخلق غيره فكيف بالله خالق كل شيء وربّه ومايكه .
سبحان الله وتعالى عما يصفون .

إن ادعاهم استغناء الإنسان اليوم عن الإيمان بالله تعالى ، لأنه عرف
الطبيعة ، واكتشف أسرار الكون ، فما أصبح يخاف المرض ، ولا الفقر ،
ولا الفيضانات ، ولا الزلازل ، والجوائح ، ولا العاهات ، ادعاء باطل لا
وزن له ولا قيمة أبداً (١) ، إذ الإنسان مازال يخاف من كل هذه ، وجميع
وسائله التي يملكها ليدفع بها عن نفسه لم تؤمنه بعد ، ولم تؤمنه أبداً ، وكيف؟
والآلام التي يعانيها الإنسان اليوم جسائياً وروحياً تزداد يوماً بعد يوم ، وفي
كل أنحاء الوجود البشرى ، فوباء الكوليرا ، وأمراض السرطان ، والبرص ،
والصرع ، وغيرها ما زالت تفتك بالآلاف من الناس ، وفي كل سنة ،
والمجاعات تهدد مناطق شاسعة من العالم ، والفيضانات تجرف كل سنة القرى
العديدة ، وتقتل وتشرد الآلاف من الناس ، والزلازل من الحين إلى الحين
يدمر المدن والقرى ، ويودي بحياة الآلاف من البشر ، ولم يستطع الإنسان
الكافر بالله ، والذي يدعى أنه خلق الإله ، لم يستطع أن ينجو من هذه الويلات
فضلاً عن أن يضع لها حداً ، أو يوقف وجودها . بل ازدادت مصائب
الإنسان وعمنه ، وعظم الخطب واشتد عليه ، لما كفر بربه ، ودينه ، فأصبح
في تمزّق شخصي ، وهبوط نفسي ، وسقوط أخلاقي كاد يفقد معها طعم حياته

(١) ادعاء باطل خبر إن الموجودة في أول الكلام وما بينهما اعتراض فليتنبه له

ولذة وجوده ، لقد غاض ماء الحياة من وجهه فأصبح صفيقاً ، عريداً ، فاحشاً ، متفحشاً ، وغار معين الكرامة الأدمية فيه فصار لا غيرة له ولا شهامة ولا كرامة ، ولا مروءة. ألف الكذب ، والغدر ، والخيانة ، وتعود الجريمة ومرد على النفاق ، والتضليل ، والخداع^(١) فسات المجتمعات البشرية وهبطت فيها الحياة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط ، حتى صاح العقلاء منددين بالكفر والإلحاد ، مطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان ، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رؤوسهم ، وقالوا في وضوح : لا غنى عن الدين ، وطلبوا علماء النفس والاجتماع بأن يضعوا لهم ديناً . ولكن بدون الإيمان بالله ، وذلك لأن الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى^(٢) ، وهم لا يريدون عدلاً ، ولا معروفاً ، ولا إحساناً ، كما لا يريدون أن يتخلوا عن الظلم ، ولا عن الفحش ، والمنكر . ولذا فهم يريدون ديناً صناعياً يهذب نفس الإنسان ، ويكمل أخلاقه ، وبدون ذكر الله فيه ، ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه : وهيات ، هيات أن ينفع دين صناعى فى تقويم الأخلاق ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأرواح ، إن القوم مغرورون ، مخدوعون ، جهال ، ضالون ، مضللون ، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم .

والقصد من إيراد هذا الذى ذكرناه هو تقرير حقيقة عليية ثابتة بكل القوانين العقلية ، والشرعية ، وهى أن الإنسان دائماً فى حاجة إلى الإيمان ، والدين ، والعقيدة ، وأن الدين ضرورة من ضرورات حياته ، وحاجة من حاجات نفسه ، فلا غنى له عن الإيمان بربه ، وعن عبادته بحال من الأحوال ومن هنا لم تخل أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان

(١) مرد : أى أقام عليه ولم يتب منه ، ولج فيه وأبى غيره .

(٢) هنا مقتبس من الآية (٩٠) فى سورة النحل .

بالحياة من عقيدة ودين^(١)، ومصدق ذلك قوله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »^(٢) والمراد من النذير نبي ، أو رسول ، أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه ، ورسله ، وشرائعه ، ويحذرها من نتائج الشرك بربها ، والمعصية له ، ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم ، والشر والفساد .

(١) قال بازمالك المؤرخ الأغر يقى مقرأ الحقيقة التي قررناها وذكرها للقرآن الكريم ، قال : قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر ولكن لم توجد مدن بلا معابد . . .

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤) .

وجه ضرورة الدين للانسان

الإنسان منذُ أن وُجد على هذه الأرض بهبوط آية الأول آدم ، وأمه حواء عليهما السلام من الجنة دار السلام ، وهو في حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطة تعدل من غرائزه ، وتنظم سلوكه ، وتحدد اتجاهاته ، وتهيئ للكمال الذي خلق مستعداً له في كلنا حياتيه : الأولى هذه التي يقضيها قصيرة على هذه الأرض ، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي المابط ، وإنما في عالم الطهر والصفاء ، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربه بواسطة كُتبه التي أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم .

غير أن تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه ، وتنظيم سلوكه ، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد وهيئات هيئات أن توجد في تشريع غير رباني ، أو سماوي لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه ، إذ لا يُعرف الإنسان بعواطفه وأشواقه ، ولواعج نفسه ، وبأفكاره ، وآماله ، ومطلعاته ، ولا يقوى على توفيقه مطلوبه من ذلك كله إلا الله خالقه . فهو — إذا — وحده الذي يحق له أن يضع له من القوانين ، والشرائع ، والأديان ما يكمله به ويعدّه للكمال والسعادة الأبدية الخالدة .

ولذا كان الدين ضرورياً للانسان بوضعه الخاص يأكل ويشرب ، ويتوقى الحرّ والبرد ، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه فيُوجد بالسنن التي وضعها ربّه طعامه وشرابه ، ولباسه ، ودواؤه . وسكنه ومركوبه . وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراد لتوفير ما به تقوم حياتهم . وتستمر إلى نهاية أجلها المسمى .

والإنسان بفطرته يشعرُ بضعفه . وحاجته إلى ربه في إعاقته وتوفيقه ورعايته وحفظه ، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه . والتعرف إليه بما يحبه من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات .

والإنسان بمواهبه . وأفكاره . ومشاعره . وأحاسيسه يطلب دائماً المزيد من السمو والرفعة في ذلك . حتى لا يريد أن يقف عند حدٍّ أبداً ، فهو إذاً في أحواله الثلاثة التي ذكرنا مقتطراً إلى تشريع ديني ، إلهي يلائم فطرته ، وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراد الذين لا يستغنى عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته ، وبقائها صالحة في هذا الوجود من مطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، ومركب ، ويمدّه بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه ، وعن كيفية عبادته ودعائه ، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته ، وإتيان محابته ، وترك مكاربه ، واجتناب مساخطه ، كما يمدّه بفيض علميّ كامل عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود ، وعلة الكون والحياة ، وأنساب السمو والكمال ، والهبوط والنقصان التي تطرأ له في حياته الأولى والآخرة .

وبناءً على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء ، وغذاء ، وهواء ، ولا ينكر هذه الحقيقة ، أو يجادل فيها إلا معاند ، مكابر ، لا يؤبه لعناده ، ولا ياتفت إلى جداله ! .

كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده ، دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع ، وذلك لأننا رأينا التكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي لم تنج منها هداية العقول شيئاً ، فضلت وهلكت ، ومما قاله القرآن في هذا الموضوع قوله تعالى من سورة الاحقاف . « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم

من شيء ، إذ كانوا يمجّدون بآيات الله . وحلق بهم ما كانوا به يستهزئون (١) .

وذلك لأنّ العقول لا تهدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياته ليأخذ به . ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياته كليهما ليتجنّب . وينجو مما يضره إلا في ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه . لأنّ العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التي هي آلة إبصار . والعين قطعاً لا تبصر . ومهما كانت سليمة وقوية إلا في الضوء والنور . ولا يمكنها أن ترى وتبصر في الظلام أبداً . وفي أي حال من الأحوال . العقل مثل العين سواء بسواء . كما أن العين لا تبصر إلا في الضوء والنور ، فإنّ العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله . ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه . ويكابّر في شيء من الخطأ . والضلال المكابرة فيه . لكونه من المحسوس المشاهد .

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة ، السليمة من التحريف ، والزيادة ، والنقص ، والتبديل كالدين الإسلامي مثلاً دعوى باطلة قطعاً ومن وجهين أيضاً :

الأول : — أن ما عند الناس من بعض العلوم ، والمعارف في الفنون . والأخلاق . والآداب إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحي الإلهي إما بالنص اللفظي . أو بالاستنباط . وإلما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليل لا غير .

والثاني : — أن العلم المادى مقصور على نفع الإنسان في الجانب المادى

منه ، وهو الجسم ومتطلباته . وأما الجانبُ الروحيُّ وهو الأعمّ قطعاً فإن العلم المادّي لم يخدمه في شيء . ولم يقدم له أى نفع ألبتة . لأنه لم يكن روحياً بجانباً للروح فيقدم له ما هو في حاجة إليه .

إن العلوم الإنسانية الحالية من الوحي الإلهي لم تعد الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . وهم عن الآخرة غافلون ، (١) . فكيف إذاً تستطيع أن تقدم أى خدمة للروح . وهي لم تكسر حجاب المادة بعد . ولم تعرف أى سر عن حقائق الكون وعمله .

وقد اعترف علاناً بالمعجز الكامل عن معرفة العمال والأسرار لآية ظاهرة من ظواهر هذا الكون فقالوا : اسألونا بكيف . لا بماذا ؟ يعنون قولوا لنا : كيف وقع الشيء الفلاني ؟ فإنتا نجيبكم . أما لماذا وقع فإنتا لا تعرف الإجابة عنه . ولا تملكها أبداً . وذلك لحرمانهم من علوم الوحي الإلهي .

وشئ آخر أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة في السكّال بعد أن قطعت شوطاً بعيداً في التطور والشمول في كل المجالات . ومع هذا السكّال فإن البشرية في شقاء دائم . ولم تخط يوماً خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر والواقع يشهد . وكفى به شيداً . ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة ، والتسليم بها . وهي أن الدين الحق ضروري للإنسان . لا غنى له عنه بحال عن الأحوال . وأن كمال الإنسان . وسعادته متوقّان عليه توقّف المعلول على علته . والمسبب على سببه .

وليسلم أخيراً أن الدين الذي نفي ضرورته الإنسان لتوقف سعادته وكاله عليه في الدنيا والآخرة إنما هو الدين الحق الصحيح . الدين الذي شرعه الله .

وصحت نسبته إليه تعالى . أما الأديان الباطلة المفتراة كالبودية . والمجوسية .
والمحرقة المبدلة كاليمودية . والنصرانية فإنها وإن سميت أدياناً فإنها خالية من
الوحي الإلهي الذي يمثل فيها شرعاً ^{الإلهام} متكاملًا يقدم للانسان كل ما يحتاج
إليه لإصلاح جسمه . وروحه . وإسعادهما في الدنيا ، والآخرة . والدليل
الواضح لذلك أن أوروبا المتدنية بالنصرانية لم تتقدم حضارياً إلا بعد التعمد .
والكفر بالدين الذي كانت تعيش عليه زمناً طويلاً وهو يكبلها ويقيدها .
حتى قام رجل منها ، وحاربوه . وخرجوا عن قيوده ، وكفروا بشرائعه .
وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال . والانطلاق من الباطل .

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهي صحيح سليم فلنبا
واجده قطعاً وبدون شك في الإسلام دين البشرية العام . الذي تضمنه كتابه
القرآن الكريم . الذي لم ينقص منه حرف منذ أن نزل . ولم يزد فيه آخر .
ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه . ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط .
بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه هربها

إن الدين الإسلامي هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم . والخروج
بها من محتها . محنة المادية العاتية . التي سلبتها أو كادت كل معاني الأدمية
الكريمة . والانسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق ،
ولا تقدير لها ولا احترام ...

فإلى الإسلام ياعقلاء الناس . فإنه الدواء لدائكم ، والهداية لكم من
ضلالاتكم . فاقبلوا عليه غفيدة ، وحكماً . ونظاماً فإنه ينجيكم ويسعدكم .

جربوا فإن التجربة أكبر برهان !!

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل والسليم في آن واحد للبحث عن الإيمان بالله تعالى أى عن وجوده تعالى ، والتصديق به عز وجل رباً وإلهاً ، فهو مسلك احترام العقل البشرى ، وقبول أحكامه التى يصدرها على الأشياء نفيًا أو إثباتاً ، وجوداً أو عدماً ، ومن ذلك حكمه الواضح الصريح بوجود البارى عز وجل ، وبوجوب معرفته وطاعته ، والتقرب إليه ، والأخذ بهدأته ، والسير فى طريق أوليائه من صالحى عباده .

وللستمع إليه - العقل - وهو يُورد أدلته ، ويقدم شواهد ، ويُظهر بيانه ، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائى فى قضية الإيمان بالله تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ووجوب طاعته وعبادته ، والأخذ بهدأته وحيه ، واتباع شرعه : إنه يقول بمنطقه السليم : إن السماء التى تظننا ، ونشاهدها بحواسنا ، وزاها بأم أعيننا ، ولا نستطيع عدّها لكثرتها ، ولا حدّها لبعدها وعلوها . هذه السماء يقول - العقل - إنها موجودة فعلاً ، ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحوال ، فمن أوجدها ؟؟

ويقول : هذه الأرض التى نعيش عليها وهى موجودة فعلاً ، ولا معنى لإنكارها أبداً ، فمن أوجدها ؟؟

ويقول : هذه الكائنات الحية على تباينها ، واختلاف أنواعها من أرقاها وهو الإنسان ، إلى أدناها كالنحلة ، والنملة ، والعنكبوت ، وهى موجودة فعلاً ، ولها غرائزها ، ومداركها الخاصة ، وأنظمة حياتها ، وطرق معاشها ، وحفظ أنواعها إلى آجالها ، ولا مجال لإنكار ذلك بحال ، فمن أوجدها ؟ ومن وهبها حياتها ؟ ومن خلق لها أرزاقها وهداها إلى طلبها ، والحصول عليها ، (٣ - حقيدة)

والاستفاعة بها في حفظ نوعها واستمرار وجودها؟ إن العقل يقول: ابحثوا عن الموجد، عن الخالق، عن الرزاق، عن المنير، عن المنظم، عن المسخر، عن خالق الكون، عن واهب الحياة لكل ذى حياة. وعن سالب الحياة من كل من وهبت له، ومتع بها مدة حياته الموقوتة، وفقره عمره المحدود.

ابحثوا، وأطلبوا، واستقصوا في البحث والطلب، واعلموا أنه لا يوجد شيء موجود أوجد نفسه بنفسه، ولا كائن كون نفسه بنفسه في هذه العوالم الموجودة، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً.

ابحثوا عن خالق، رازق، مدبر، ذى إرادة، وحكمة، وعلم، وقدرة يخلق، ويرزق، بعلم وقدرة، ويبدع، وينظم، ويدبر بإرادة وحكمة. ابحثوا عنه، ولا تستنبطوا بالعقل أو تزددوه، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقدته أصبح مجنوناً، يحتل التفكير والتقدير، مسلوب الإرادة والتقدير، يهرُفُ بما لا يعرف، ويرمى إلى ما لا يهدف، فتقولوا: إن الموجودات أوجدت نفسها بنفسها، أو تقولوا إنها وُجدت بدون موجد فإن ذلك مزدّ بكم، محل بكرامتكم، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بنى الناس أجمعين، لأن العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشيء لا يوجد نفسه، كما أنه لا يوجد بغير موجد (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون؟) ^(١) إنكم تقولون أن جميع الكائنات التي تخضع للحس والمشاهدة مادة، والمادة مئة قطعاً، والميت لا يخلق الحى، وكيف يهب الحياة من هو ميت؟

وزيادة في التثبيت من هذه الحقيقة وهي أن الشيء يستحيل أن يخلق نفسه وأن كل موجود لا بد له من موجد نقول: إنه لما لم نجد للكائنات موجداً لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوى، قادر، ذى إرادة، وعلم، وحكمة وهو الله الذى أخبرنا بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم

انه رب كل شيء ، وخالق كل شيء ، وأنه هو بديع السموات والأرض ، ومدير الأمر فيهما ، له وحده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وزيادة في التثيت والتقرير نهبط إلى عالمنا الأرضي هذا ، وننظر إلى الأشياء الموجودة فيه وهي لا تعد كثرة ، بل نجد بينها من يخلق نفسه بنفسه ، أو يخلق غيره .

فها هي ذى النباتات على كثرتها ، واختلاف أجناسها ، وتنوع أفرادها لا تخرج عن سنة وجودها التي سلت لها ، واطردت فيها ، وهي وجود تربة صالحة ، وماء كاف لسقيها ، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة - المغطاء - بالتربة الملائمة لإنباتها إن النباتات بهذا هي مفتقرة إلى عناصر شتى - وهي البذرة ، والتربة ، والهواء ، والماء ، لم تكن لتوجد لها النباتات لنفسها ، فكيف يصح إذاً أن يقال : إنها خلقت نفسها بنفسها ، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور بمجاهد وبعائد !!

وها هي ذى الحيوانات على اختلافها ، وكثرة أفرادها من أرقاها وجوداً وحية إلى أبطاها حياة ووجوداً لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه . وإنما جميعها وكل واحد منها يُخلق تبعاً لسنة الخلق فيه ، والمطرودة في كل أفرادها ، وهي بالنسبة إلى الإنسان الذي هو أرقاها وأفضلها ، وجود نقطة من أبوين ذكر وأنثى ، واستقرارها في الرحم المعدة لها ، وتطور تلك النطفة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق ، ويخرج الإنسان طفلاً صغيراً ، ثم ينمو حسب النمو فيه إلى أن يبلغ أشده فيتكامل ويهرم ويموت ، وهو في كل ذلك الخلق والطور والسماء والكمال والنقصان والموت والفناء لا يملك من أمره شيئاً .

فهل يُعقل أن يقال إن الإنسان خلق نفسه بنفسه ، وإذا بطل هذا في

الإنسان فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان؟ اللهم لا، وإذا فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالق ولا مُوجد؟ اللهم لا، حتى ولو كان المخلوق نحلة، أو الموجود فتجان قهوة، وهل يوجد عاقل في دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة، أو دون ذلك كزغيف خبز، ثم يشكر أن يكون له مُوجد أو خجده، ويعتذر عن إنكاره وجحوده بأنه لم ير مُوجده ولم يشاهده. اللهم لا، وإذا فكيف يعقل الكفر بوجود الله خالق كل شيء لمجرد أنه لم يُر فقط، مع أن هناك نفس الإنسان التي بين جنبيه قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط، وهناك العقل البشري لم ينكره أو يكفر به أحد قط مع أنه لم يُر قط. وآمن الناس بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما. وكُم من موجودات آمن الناس بموجدها ولم يروها قط. وذلك لدلالة وجودها على مُوجدها. إذ العقل يحيل وجود أي شيء بدون مُوجد. كما قال تعالى (أم يُخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)؟^(١)

والأعجب من هذا أن الملاحظة بمجرد معرفتهم لسنن الله تعالى في خلق بعض المخلوقات، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك. واتخذوا منه دليلاً على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى. فقالوا: قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتتكون الأمطار. وكيف يخرج الكتكوت «الفروج» من البيضة. فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود الله تعالى. وهو سخف عجيب. وحق متناه. وإلا فتي كانت معرفة سنن الله تعالى في خلق الأشياء وإيجادها دليلاً على عدم وجود الله؟ بل هي بالعكس دالة على وجود الله. وعلمه. وقدرته لو كانوا يعقلون!!

إن مثلهم في هذا الكفران والتكران كمثل من قدم له طبق فيه تمر حلواً فأكل حتى شبع. ثم سأل عن صانعه. ف قيل له إنه الله. فأمن به لوجوده أثر.

وجوده وهو صنعه . ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته . وتأبير طلعه . فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع الله تعالى . لأنه رأى كيف ينشأ النخل . وكيف تم تربيته وإصلاحه حتى يشمر ثمراً حلواً . وتناسى أن الذى صنع التمر هو الله الذى أوجد البذرة . والتراب . والماء والهواء . وأوجد الفلاح . أوجد . له قدرة . ووهبه علماً حتى فلع الأرض . وغرس البذرة . وسقاها . ورباها . وأبرها لما اطلعت . ورعاها حتى أصبحت ثمراً حلواً .

فهذا مثل منكرى الخالق عز وجل من الملاحدة الذين أنكروا وجود الله لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون ، وإذا قيل لهم لقد عرفتم قوانين الكون ، وسنته فمن وضع تلك القوانين ، ومن سن تلك السنن فى الكون ، والى بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها ؟ قالوا : فراراً من الإيمان بالله عز وجل حتى لا يعبدوه ، قالوا : الطبيعة ؛ ولو أن الطبيعة نطقت وقالت لهم : تعبدونى لكفروا بها ، وأنكروها ، كما كفروا بالله ، وأنكروا وجوده ، وهو يتاديبهم فى كتابه : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (١) .

وما يدل على أن الملاحدة ما كفروا بالله إلا فراراً من عبادته ، والتزام شرائعه ، أن الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون ، مدبراً له ليس بأصعب ولا أبعد فى الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة ، العمياء ، الصماء خالقاً مبدعاً ، كما قال أحد علماء الكون : لو كان يمكن للكون أن يخاق نفسه لكان يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله ،

ويتهى الأمر إلى التسليم بوجود إله . ولكنه إله عجيب ، لأنه غيبي ومادى فى آن واحد . ثم قال : « لئن أفضّل أن أومن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ، ومديره ، ومديره بدلاً من أن أتبنى مثلى تلك الخزعبلات » . يعنى قول الملاحظة إن الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة هى التى أوجدت الكون ، وهبت الحياة ؛ ووضعت السنن والقوانين ؛ وهو أمر عجب ، وجعل مركب ، وفساد عقول لا حد له .

ولنتأقش الآن كلمات : الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة التى ينسب إليها الملاحظة خلق العالم وإدارته ، وتديره . فنقول : ما هى الطبيعة ؟

إن الطبيعة هى : المادة ، وعناصر تكوينها من البرودة ، والحرارة ، والرطوبة ، واليوسه ، والمواد المركبة منها ، وهى الذوات المكونة من النوى . المشتمل كل نواة منه على بروتون ، ونيوترون ، والكثرون .

هل هذه العناصر من النوى ، والذرة ، والخصائص المشتملة عليها المادة أوجدت نفسها ، فكوت ما يسمى بالطبيعة ؟ اللهم ، لا ، إذ هو عما تحيله العقول ، ولا تقبله أبداً . إن معنى هذا الهراء : أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً ، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ! إن المادة المركبة من عناصرها ، والمودع فيها خواصها ، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها ، ويودع فيها خواصها ، وحينئذ فى حادثة مخلوقة . فكيف يصح أن تكون إلهاً ، خالقاً ، ينسب إليها الخلق ، والتكوين والإبداع والتظيم ؟

سبحانك اللهم هذا ضلال فى العقول مبين .

إن العقول السليمة قد حكمت حدوث المادة المركبة من عناصر معدة . إذ كل مركب حادث ، وكل حادث مفترق إلى محدث أحده قطعاً . كما قضى بذلك قانون العملية المسلم به من جميع العقلاء .

إن وجود مادة . وحركة لها وهي طاقتها معلول فلا بد له إذا من علة اقتضت وجوده ، وهو الإله الأزلي ، الذي ليس بمادة . إذ لو كان غير أزلي لكان محدثاً ، ولو كان محدثاً لكان مادة ، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهيات العقول أن فاقد الشيء لا يعطيه . وسواء كان قنباً كالحياة أو خصباً كالمت والعدم . وبما يقضى على هذه الفرية الدجلية ، التصفية ، التي اغتربها أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وتلاوة كتابه حتى أصبحت شبه عقلية تضطرب لها قلوبهم ، وهي نسبة الخلق والإيجاد إلى المادة : أن يقال : إن الإبداع الموجود في الكون كله علوي وسفلي ، من الذرة إلى المجرة شامد حق ، وقاضى عدل باستحالة صدور عن الطبيعة العباد الميتة . أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة ، الخالية من كل إرادة ، وعلم وتدير .

ما هي الصدقة ؟

إنهم يعنون بالصدقة أن الأشياء تم تكوينها على ما هي عليه من الجمال ، والإبداع والنظام بطريق المواقفة لا بطريق القصد . ، والإرادة ، والتقدير بحيث لم يكن هناك قصد ، ولا إرادة ، ولا تقدير .

وهي قنبية القول بها مخجل ، والنظر فيها لم هو وباطل .

وخلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً : أنه بمرور الزمن الطويل الذي لا يتكلمون فيه إلا بالآرقام الهائلة كنات الملايين تضليلاً وتدجيلاً ، فيقولون مثلاً : عناصر الذرة ثلاث وتناوبت بمرور ملايين السنين ، والحياة وجدت خلية على الأرض و بمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصورة من الجمال والكمال ، وليس وراء ذلك إرادة هادفة ، ولا تقدير ، وإنما هي صدق

وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة، وقد أقاموا نظريتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية، والقياسات الفاسدة التي لا يقبلون مثلها لو قالها غيرهم، لأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد غير أنهم هنا خرجوا عن مبدئهم وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لتهاتهم، وأباطيلهم، وضلال عقولهم في القول بالصدقة، وأنها علة الحياة، وأداة التكوين والإيجاد، كل ذلك هروباً من الإيمان بالله عز وجل، الذي لم ينكروه، ويكفروا به إلا تخلصاً من الطاعة والنظام.

هذا وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدقة في الخلق والإبداع أمثلة عديدة قضوا بها على هذه النظرية الميتة، العمياء، القائمة على أساس الوهم، والخيال اللاشعوري منها: قولهم إن مثل من يقول: الإبداع الموجود وجد بطريق الصدقة لا غير، وليس ثم من إرادة لأحد، وإنما هي الصدقة والتلقائية فقط كمثل من يقول: إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفي لتصنيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف، فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدقة كتاباً ذا أبواب، وفصول علمية محتلفة، وفي مواضع شتى، كمثل من يقول: إن رجلاً أعمى غرزت له إبرة في لوحة، وأعطى ألف إبرة، وقيل له إرم هذه الإبر واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى في ثقب الإبرة المغروزة في اللوحة، وتدخل الثانية في عين الإبرة الأولى، والثالثة في عين الثانية، وهكذا بطريق الصدقة حتى تدخل كل الإبر في بعضها بعضاً، والرجل كما علمنا أعمى لا يبصر شيئاً، فهل عاقل يصدق بصحة هذين العمليتين؟ اللهم لا لأن هذا من قبيل المستحيل الذي لا تقبله العقول ولا تقره، وإذا فكيف يصدق أن الكون كله بما فيه من إبداع وتنظيم في كل ذرة من ذراته، ثم بطريق الصدقة والتلقائية.

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمجنون قطعاً لا تصح نسبته إلى العقلاء ولا يذكر في عدادهم أبداً. وكالصدقة عند الملاحظة الضرورة.

ماهى الضرورة ؟

إن الضرورة معناها : أن التنوعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة .
 فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول ،
 وحاجة السمكة للملحة إلى السبح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى
 تساعد على السباحة إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب ، والمنطق
 السقيم . وما قالوا بهذه الترهات والأباطيل إلا إمعانا فى الهروب من مواجهة
 الحقيقة وهى الإيمان بالله الصانع الحكيم ، الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه ،
 وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته ، أو لم يروها فى
 ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه ، وفى ولدها الذى كان
 فى بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته ، ولما انفصل عنها وخرج من
 بطنها وحملت له الغذاء فى ضرعها ، وهدى الله ذلك المولود إلى معرفة
 امتصاص حلبة الثدي ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذى بالحبوب
 والفواكه ، والخضر . أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إناثها مدفوعة
 إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الإناث ذات اللبن ،
 فتوفر للإنسان لحماً ، ولبناً ، وجبناً ، وسمناً هو فى مثلها لاستكمال
 غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله . أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين
 كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها ، ثم تخرج منها
 لتدخل فى أخرى فتلقحها ، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألد الفواكه ،
 وأكثرها نفعاً له . أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب وهو الضباب
 الناتج عن تبخر الرطوبات فى الأرض ، ومياه الأنهار ، والبحار ، وكيف
 يبسط الله تعالى ذلك السحاب فى السماء على نسب ومقادير خاصة فيتكثف فى
 طبقات الجو ، ويصبح يحمل كميات من الماء غلبة مخافة ثم يطر حيث يأذن

الله تعالى ، فتحيا به الأرض بعد موتها . فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب ،
والفواكه ، والخضر . فليقولوا لنا : أين الضرورة في إيجاد اللبن في الضرع ؟
وأين الضرورة في لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة : تلقيح ذباب التين لآتلاف
حتى يكون التين ؟ وأين الضرورة في عملية التبخر والتكثف ، وإثارة الرياح
للسحب ، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة ، والأوقات المحدودة ،
وفي إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة ، أين وجه الضرورة
في ذلك ؟؟

إنه لا ضرورة ، وإنما هي عناية الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .
ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية : إن النباتات ، والحيوان ،
والإنسان هذه الثلاثة سلم للماديون بحدوثها ، وبأن الإنسان أحدثها عهداً بالحياة
فيقال لهم : من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول :

الأول : أن نقول : إن الله هو الذي أحدثها . والثاني : أن تكون حدثت بواسطة
ذرات المادة ، وأجزائها ، وعناصرها عن إرادة ، وقصد ، وعناية ، بمعنى أن
العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هي عليه
من صور وأشكال . والثالث : أن تكون وجدت من طريق الصدقة بمعنى أن
الذرات تلاقحت ، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدقة ،
فكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان .

فأي القروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثاني فللملاحظة يردونه ،
ولا يقولون به ، لأنه يلبس للمادة قصداً وإرادة ، وهم لا يقولون بالقصد
والإرادة أبداً . وأما الثالث فهو محال عقلًا لطلان قانون الصدقة وفساده كما

هلم ، وتقدم . فلم يبق إلا الافتراض الأول وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها بطريق السُنن المطردة ، التى وضعها لخلق كل المخلوقات ، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة ، والصدفة ، والضرورة ، ووجب الإيمان بالله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، العليم .

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجود الله تعالى ، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً فإنه ينبغى التعرف إليه سبحانه وتعالى

معرفة الله جل جلاله

ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة بالله تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا السكّال في معرفة ربهم سبحانه وتعالى ، وبقدرة معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له ، وخشيتهم منه ، ومحبتهم ، وطاعتهم له ، وتقربهم إليه ، وتوسلهم .

المرتبة الأولى : من مراتب المعرفة بالله عز وجل هي مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم بالله ، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق في الكونيات ، والإبداع فيها ، فيؤمنون بخالق ذي قدرة وإرادة ، وعلم ، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحكمة ، والتدبير . غير أنهم يجهلون من أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم محبتهم له ، وخشيتهم منه ، وطلبُ التقرب إليه ، والمنزلة عنده ، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله ^(١) ، إذ به تتم المعرفة الحقّة لله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم في الحياة الدّنيا بقدر ما أثمر لهم من تعظيم الله تعالى ، ومحبة فيه ، وقد ينفعهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم .

المرتبة الثانية : من مراتب معرفة الله عز وجل هي مرتبة أهل الإيمان التقليدي الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطري ، واستفاضة الأخبار بوجود الله تعالى وشهرتها ، ومرتبة هؤلاء في معرفتهم بالله تعالى أضعف

(١) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم . ومن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

مراتب المعرفة ، وصاحبها أقلّ المؤمنين تقوى لله عزّ وجل ، ومحبةً له ، وخشية منه ، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والمرتبة الثالثة : هي معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية ، وهي مرتبة عالية في معرفة الله تعالى والإيمان به حيث عرف أهلها الله تعالى بطريق أخباره عزّ وجل ، وأخبار العارفين به . والمبلغين عنه ، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التي أقامها سبحانه وتعالى لمعرفة . وبواسطة الأدلة والأعلام التي نصبها لذلك ، فهؤلاء المؤمنون أكثر الناس محبة لله ، وطاعة له ، وخشية منه ، وهم المعنيون بقوله تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١) .

والمرتبة الرابعة : هي مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين بالله تعالى وهي مرتبة أعلى من سابقتها وأتم وأكمل من كلّ مراتب المعرفة بالله عز وجل والإيمان به وجهه وخشيته وطاعته ، والاستقامة على منهجه . وتحقيقاً للعبودية ، وأداءً لحقوق الربوبية والآلوهية ؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاء الفطرة ، وسلامتها من التلوّث بالآثام قبل نبوتهم ورسالتهم ، وبعد اصطفتهم للرسالات ؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم ، وبين المعرفة المكتسبة بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية . وبين العلم اليقيني . لتلقيهم عن الله تعالى وحبيته ولما أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات . وخوارق العادات . ولما خصهم به من معارف به . وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكمل المؤمنين إيماناً . وأقوامهم يقيناً . وأكثرهم له تعالى محبة وطاعة . وأشدّهم له تقوى وخشية . كما قال إمامهم وخاتمهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب أكلّ الناس إيماناً بالله ومعرفة له بعد

الأنبياء والمرسلين وهم صحابته رضوان الله عليهم ، فوالله إنى لأعلك بالله
وأشدكم له خشية^(١)

الطريقة الأولى الى معرفة الله سبحانه وتعالى الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيء ما من الأشياء المحسوسة ، أو
المعقولة فإن حكمه لا ينتقض أبداً بخلاف حكم غيره بما طريقه الحواس ،
أو العادات ، أو الاستقراء فإنه كثيراً ما ينتقض ، فالعين المبصرة قد تصدر
حكماً ما على مرتين من المرتبات بأنه ثابت ، أو متحرك فتخطئ في الحكم .
والأذن السامعة قد تصدر حكماً على مسموع بأنه صوت إنسان ، أو حيوان .
فيتين خلاف ما حكمت به ، وكذا الذوق . أو الشم فقد يحكم الذوق بأن
طعم كذا من المأكولات حلو أو مر . ويتبين الأمر بخلاف ذلك . ويحكم
الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة . ويظهر خطأ الحكم .

وأما حكم العادات القائم على التجارب فإن الخطأ فيه أكثر . وأكثر
منه خطأ حكم الاستقراء والتتبع . لأن الإنسان مهما أوتى من قوة
لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها . فلذا كان الخطأ أكثر في أحكام
الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات . والقياسات والافتراضات
أما أحكام العقل فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً ، وسواء
كانت واجبة . أو جائزة . أو مستحيلة . ومن أمثلة ذلك حكم العقل في الواجب :
أن كل معلول لابد له من علة .

وحكمه في الجائز : أن يسكن المتحرك . أو يتحرك الساكن متى وجدت

(١) رواه البخارى ومسلم - القول والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١١١/٣)

علة الحركة أو السكون . وحكمه في المستحيل : أن القائم ليس بقاعد .

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حد سواء . ومن أحكام العقلي الضرورية : أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الرجل غير المرأة ، وأن المملوء من الأوعية غير الفارغ إذ هذه الأحكام تدرك بغير تأمل ، ولا نظر أو استدلال .

ومن أحكام العقل النظرية : أن الثلاثة ثمن الأربعة والعشرين ، وأن الواحد نصف سدس الإثني عشر ، وأن العالم حادث ، وأن المعلول لا يبدؤ له من علة ، إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر والتأمل ، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها أبداً .

ومن هنا كانت الهداية العقلية أحد طريقى الإيمان بالله ، ومعرفة سبحانه وتعالى .

فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى ، والهادية إلى معرفته عز وجل . ومن ذلك :

١ - قانون العلة :-

لقد ركز في فطرة كل إنسان عاقل أن كل متغير من جسم أو حال أو صفة لا يبدؤ له من سبب تغير به ، ولا يخرج شيء عن هذا القانون بحال من الأحوال ، إذ كل من يرى آنية موضوعاً ، أو آلة مصنوعة يحكم على الفور بعقله أن للآنية واضعها في مكانها الذى هى موضوعة فيه ، وأن للآلة صانعاً صنعها حتماً ، ويجعل من المحال أن تكون الآنية قد وضعت في مكانها بلا واضع وضعها فيه ، وأن الآلة قد صنعت بلا صانع صنعها .

ويؤمن الإنسان بهذا إيمانا راسخاً : ولا يستطيع أحد أن يقننجه بخلافه أبداً ، وذلك لأن للعقل حكم بأن كل لها من صانع ، وأن كل متغير من

الأشياء من صفة إلى صفة، أو من مكان إلى مكان لا بد له من علة تغير بسببها. وهذا القانون أو الحكم العقلي يسرى على العالم كله بجميع أجزائه، من المادّة والحركة والتنوّعات - أى أنواع المخلوقات - فى وجوده وتغيّره، فلا بد لوجوده من علة، ولا بد لتغيّره من سبب أثّر فيه فهو يتغيّر من حال إلى حال لأجله. ولا بد أن تكون العلة التى اقتضت وجوده وتغيّره علة كافية، وإلا لما تم لها هذا الإيجاد والتغيّر.

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع، والقصد، والتنظيم، والتنسيق، والإحكام فى الخلق والإيجاد، والتدبير فى التصريف أثناء التفسير والتبديل فإن العلة التى اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه لا بد وأن تكون ذات قدرة، وإرادة، وعلم وحكمة، إذ لا بد من الكفاية فيها، وإلا لما تم هذا الخلق، والإبداع، والتنظيم، والإتقان، والتدبير الحكيم، ومحال أن تكون العلة الكافية هى الطبيعة لعدم القصد لها، والإرادة، والعلم، والحكمة، كما لا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل، والتنظيم المحير له، والموافقات يستحيل بها تجمع المادّة، وتوافقها حتى يتم الخلق، والإبداع، والتنظيم. كما لا تكون ولن تكون الضرورة، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذى عقل صحيح، ومجتها كل صاحب نوق سليم. ولم يبق أن تكون تلك العلة الكافية التى اقتضت وجود العالم وتنوّعاته إلا الله سبحانه وتعالى.

وهكذا أصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذى لا ينقض أبداً بوجوده الله ذى الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فأمن به المؤمنون، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقلي السليم الصحيح، والذى لا ينقض أبداً.

٢ - قانون الوجوب :

إن قانون الوجوب هو أحد طرق الاستدلال العقلي على وجود الله (٤ - عقيدة)

تعالى ووجوب الإيمان به ، والتعريف إليه ، ووجوب طاعته والتقرب إليه ،
وحقيقة هذا القانون هو أن يقال : إن الموجودات من هذه الحوادث التي
يحبها العالم العلوي والسفلي من كل الموجودات من جاد ، ونبات ،
وحبوان ، وإنسان ، إما أن يكون وجودها واجباً ، أو مستحيلاً ، أو جائزاً ،
ولا يخلو أمرها من واحد من هذه الثلاثة بحال من الأحوال ، لقضاء العقل
الصحيح بهذا ، وتسايم جميع العقلاء به ، وحقيقة الواجب : أنه ما أوجب عدم
تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يقبل - وحقيقة المستحيل - وهو نقيض
الواجب - أنه ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يصح .

وحقيقة الجائز - ويقال له الممكن أيضاً - أنه ما لا يوجب تصور وقوعه
تناقضاً عقلياً لا يصح أو لا يقبل . وبناء على هذا فهل وجود الكائنات
واجب أو مستحيل أو جائز ؟؟؟

والجواب : أن وجود الكائنات ليس بواجب ، إذ تصور عدم وقوعها
لا يوجب تناقضاً عقلياً ، كما أنه ليس مستحيلاً ، إذ تصور وقوعها لا يوجب
تناقضاً عقلياً ، وكيف وهي موجودة فعلاً ؟ إذاً فإذا لم يكن وجود
الكائنات واجباً ، ولا مستحيلاً تعين أن يكون جائزاً ، إذ الأحكام ثلاثة
فقط ، وإذا تعين أن يكون وجود الممكنات جائزاً لا غير فإننا نقول
مادامت الكائنات جائزة الوجود ممكنة فقط ، وقد وجدت فعلاً ، فما الذي
اقتضى وجودها ورجحه على عدمه ؟ والجواب أن نقول : إنه لا بد من
علة اقتضت الوجود ، إذ تصور وجود معلول بدون علة مستحيل ، لا يجابه
تناقضاً عقلياً لا يقبل . وإذا فما هي هذه العلة التي اقتضت وجود الكائنات ؟
وكون هذه العلة التي اقتضت وجود الكائنات هي الطبيعة باطل ، لأن
الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة ، والطبيعة لا إرادة لها ولا قصد كما
يعترف بذلك القائلون بها . وكونها الصدفة باطل ، لما تقدم من استحالة ذلك
لوجود الإبداع ، والتناسق ، والتآلف ، والوزن الدقيق ، ولأن المرافقات

لا تتم إلا بعقل جبار ، و ارادة عظيمة ، وتديبير وحكمة ، وكونها الضرورة باطل بل من ابطال الباطل لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة ، وقد بيننا أنها عناية الله تعالى بمخلوقاته ، تلك العناية الالهية التي أعطت كل مخلوق خـلـقـة ، وهدته إلى ما يكمل به وجوده وتحفظ به حياته إلى اجله الذي حـدـد له . إذا فإنه لم يبق من علّة لوجود الكائنات اقتضت وجودها ، ورجحتته على خلافه إلا أن يكون الله جلّ جلاله هو الذي اقتضى وجودها ورجّحه ، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم . ومظاهر القدرة ، والعلم ، والتديبير ، والإحكام ، والإنقان كلها دالة على علم الله ، وقدرته ، وكـال تديبيره ، وعظيم حكمته .

بهذا عرّف الله جلّ جلاله ، وآمن به المؤمنون ، وأحبوه ، وعبدوه ، وتقرّبوا إليه .

٣ — قانون الحدوث :

لقد ثبت اليوم وبدون شك حدوث سائر الكائنات الحية ، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسان ، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض . وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً و يقيناً ، لأن الشيء الواحد لا يكون قديماً ، حديثاً في آن واحد ، كما لا يكون بعضه قديماً ، والبعض الآخر حديثاً ، إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح ، ولا يقبل في قضايا العقول السليمة .

وإذا سلمنا بحدوث العالم كله ، وهو مُسلم ، حتى من الطبيعيين أنفسهم فإنه لا انفكاك حينئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه إذ وجود معلول وهو الحدوث بدون هـلـة يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح لإطباق العقول السليمة على رفضه ، وعدم قبوله .

هذا وما في العالم الحديث من إبداع ، ونظام ، وتدبير يوجب عقلاً
أن تكون العلة التي ترتب عليها حدوث العالم علة كافية ، ذات قدرة وعلم ،
وإرادة وقصد ، وحكمة وتدبير ، كما يوجب أن تكون العلة واجبة الوجود
لذاتها بحيث لا يتصور افتقارها إلى علة أخرى إلا يلزم الدور ، والتسلسل
وهما محالان في حكم العقول .

وأخيراً فالعلة الكافية التي وجب عقلاً أن تكون ، ووجب أن تكون
واجبة الوجود هي الله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، ذو الأسماء الحسنى ،
والصفات العليا ، رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين .

وبهذا القانون الخاص — قانون الحدوث — ثبت وجود الله تعالى
عقلاً ، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً ، وتعينت عبادته بفعل ما يجب ، وترك
ما يكره ، طلباً لرضاه ، والسعادة في جوارحه الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا
العالم الحادث ، وانقضائه .

٤ — قانون النظام :

إن التأمل في السكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى ،
لا مجال لإنكارها ، أو تجاهلها والإغضاء عنها ، أو الغض من شأنها ، ألا
وهي هذا النظام الدقيق ، العجيب الذي ربطت به أجزاء السكون كله من
الذرة إلى المجرة ، هذا النظام المدهش ، المحير للعقول ، الذي يُحيل العقل
البشري السليم أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية ، أو عن تفاعلات كيميائية
أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون ،
والمغرورون ، المخدوعون ؛ إنه لمن أحل المحال ، وأبطل الباطل أن يصدر
هذا النظام الشامل للخلق كله عن غير ذي إرادة ، وقصد ، وعلم ، وحكمة ،
وتدبير ، إن نظرة إلى السماء ، إلى خلقها ، وتكوينها ، إلى الإحكام
والإتقان فيها ، إلى أبعادها ، إلى سعتها ، إلى عدد نجومها ، ومواقعها ، إلى

الأفلاك الدائرة فيها . إلى ضوء شمسها ، ونور قمرها . هذه النظرة الفاحصة الشاملة ترى الانسان العاقل من مظاهر القدرة ، والعلم ، والإرادة ، والقصد ، والتصميم ما يجزم معه ببطان هراء الماديين . وترهات الملحددين ؛ ويسلم بوجود إله عظيم متصف بصفات الربوبية ، ونعوت الألوهية .

وأى نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض ، إلى خلقها وتكوينها ، إلى محيطاتها . وأنهارها ، إلى جبالها ووهادها . إلى مرتفعاتها وسهولها ، إلى النباتات والأشجار ، إلى التنوع فى الحيوانات ، وإلى الاختلاف فى أجناس البشر لوناً ولساناً ، تقف بالنظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها . ولا إخفاءها وجودها وهى أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً ، مبدعاً ، عليماً ، حكيماً ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . قال الله تعالى فى هذا المعنى من سورة ق : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، (١) .

إن نظرة عابرة فقط إلى النور ، والحياتك ، وهذا الهواء المشترك ، إلى اتلاف الهواء ، إلى عناصر الماء ، إلى النوعية ، والزوجية فى كل شئ فيها ، وعليها ، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة ، وحكمة وتدير ، وقدرة لاتحد ، وعلم لا يحيط به أحد ، ألا وهو الله العزيز الحكيم . الله الذى أوجبت العقول السامية وجوده ، ودلت كل ذرة فى الكون على علمه ، وقدرته ، وتديره ، وحكمته .

هـ - قانون العناية بالإنسان :

قبل عرض قانون العناية الذى هو أحد القوانين العقائية الموجبة للإيمان

بالله تعالى ، والمعرفة به سبحانه وتعالى ، نذكر قاعدة عامة في الكون كله ، قد تخفى على غير المتأملين في الكون ، والدارسين له ، وهي أنه لا مجال في الكون للباطل . ولا محل فيه للعبث بمجال من الأحوال . بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق ، والنظام والإحكام . ولا يوجد جزء واحد من أجزائه خلواً من فائدة مقصودة منه ، أو حكمة متوخاة فيه . وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمل الكون ، ونظر في حقائقه . وقد قرّر هذه الحقيقة وأكدها كتاب الله القرآن الكريم في قوله : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (١) . وفي قوله « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا » (٢) .

ومثل هذه الحقيقة التكوينية في وضوحها ، وثبوتها قانون العناية الذي نعرضه الآن رهاناً عقائياً على وجود الله تعالى ، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل . وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين : الأولى : خلئ الكون كله من آية ظاهرة للعبث ، والباطل فيه .

والثانية : أن الكون كله ، وبجميع أجزائه مستنخر للخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه ، فمن أعظم كائن فيه ، إلى أصغر كائن وأحققره ، السكل يخدم ذلك التسوع ، وهي حقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيراً خاصاً للخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون ، وانتظمها هذا الوجود المادى القائم على أساس الحق والعدل ، والخلق من جنس اللعب والعبث كما سبق بيانه .

(١) سورة الدخان الآيتان (٣٨، ٣٩)

(٢) سورة ص الآية (٢٧)

وهذا النوع المسخر له الكون كله هو الإنسان وحده ، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقة التى تبدو غريبة بادية ذى بدء عجيبة هو : أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناء قصر نفخ ، كبير ، فيبنى على أحسن طراز ، ويجعل بأحسن أنواع التجميل ، ويزود بكل أسباب الراحة ، والإرتفاق ، بحيث يصبح آية فى باب القصور الملكية فى دنيا الناس متعة وجمالاً ، ثم ينزل به ضيفاً كريماً عليه ، ويقول له : لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك متمتعاً بكل ما فيه من خيرات ونعيم . فالملك هو الله ، والقصر هو الكون ، والضيف هو الإنسان ، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى وذلك فى قوله تعالى : الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، (١) .

وللسترش الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون :

١ - فى السماء :

إن فى السماء الدنيا كواكب كثيرة ونجوماً عديدة ، وفيها الشمس وفيها القمر ، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية . فبالنجوم المشرقة ، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التى هى سقف لهذا الدار التى يسكنها الإنسان ويعمرها ، وبالقمر المنير ذى المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان ، وبه يعرف عدد السنين والحساب ، وبالشمس المضيفة أشرق النهار على الإنسان ، وبها عرف ليله ، وميز نهاره ، ومنها استمدت أرضه دفئها ، وحرارتها ، وطاقتها المؤدعة فيها : ولولا الشمس

(١) الجاثية الآيتان (١٢، ١٣) .

لتجمدت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة . وفي السماء تتجمع السحب وتتراكم ، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة بها حياة الإنسان وسعادته . وفي السماء في علوها وارتفاعها ، وكثرة أجرامها ، وبجراتها ، وكواكبها ، ونجومها ، وشمسها ، وأقمارها آيات عظام تهدي الإنسان إلى معرفة ربه ، وتبين له قدرته عليه ، وترية سوابغ نعمه به .

٢ - في الأرض :

إن في الأرض البحار ، والأنهار ، والمعادن ، والجبال ، والسهول . والتلال فيها الأحياء المائية ، والحيوانات البرية ، ذات المنافع العديدة ، والفوائد الجمة الكثيرة ، وبها الأشجار المظلة والثمرة ، وبها الزروع ، والنباتات التي هي أنزاق ، وأقوات ، وكلها مسخرة للإنسان معطاة له ، لم يكن فيها شيء لغيره ، ولا يخرج منها شيء عن منفعتها ، وفائدته بحال من الأحوال .

وبعد هذا الذي أجملناه في تقرير كون الوجود كله من أرض وسما . قد وضع مسخراً لخدمة الإنسان ، وذلك دليل على وجود خالق للكون والإنسان معاً ، وهو الله تعالى الذي خلق الكون أولاً ، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق في الكون عناية به ، وكرامة له ، وذكر ظاهرة كونية واحدة من ظواهر العناية بالإنسان لتزيد بها قانون العناية تأكيداً ، وتوضيحاً وهي ظاهرة اللقاح في النبات والحيوان . وهي ظاهرة مسئلة من كل العقلاء ، فالنباتات كلها فيها الذكر ، وفيها الأنثى ، ويجرى اللقاح بينها حسب سنة ثابتة وقانون مرسوم لا يخالف ، وذلك ليتوفر للإنسان غذاءه من الحبوب ، والفواكه ، والخضر التي هي العنصر الهام في غذائه الذي هو قوام حياته . وظاهرة اللقاح في الحيوان أبين وأوضح ، فالتيس مثلاً يطلب أنثاه مندفعاً إليها ، ويجري وراءها ، له صوت عجيب ، حتى إذا أتم لقاحها ، وفرغ منها

اعتزلها اعتزالاً كلياً إلى أن تضع حملها ، وترضعه ، ويكاد يستغنى عنها ،
يعاودها التيس مرة أخرى ، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها
لا يملك التخلي عنه ، ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التي هي لها .

ولنتساءل لم يتم هذا ؟ وإصالح من ؟ إنه يتم من أجل الإنسان ، وإصالح
الإنسان فقط ، إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذي
هو اللبن والجبن ، واللحم ، كما يتوفر له كساؤه ، وفراشه ، وغطاؤه .

وأخيراً هذه العناية بالإنسان المتجلية في الظواهر الكونية كلها إن لم تدل
على وجود خالق للكون ذي إرادة ، واختيار ، وعلم ، وقدرة ، وقصد ،
وحكمة ، خلق الإنسان وسخر له الكون كله كما هو مشاهد محسوس ، فإنه لم
يبق شيء يدل على آخر في الحياة أبداً فلا الرماد يدل على النار ، ولا النوى
تدل على الثمر ، ولا الكلام يدل على الإنسان ، ولا الحركة تدل على الحياة ،
وحينئذ فعلى العقل العفاء وعلى الدنيا السلام .

الطريقة الثانية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدليلية تجمع بين الاستدلالات : القياس
العقلي ، والديني الشرعي ، فهي أعظم طريقتي الهداية إلى معرفة الله تعالى
والإيمان به عز وجل ، وهي التي تبعث المهتدي بها إلى العمل ، المزكى للنفس ،
والمنهي له لسعادة الدارين ، بخلاف الهداية العقابية وحدها وهي الطريقة
الأولى من طريقتي الهداية فإنها وإن أنقذت صاحبها من التمزق الشخصي ،
والقلق النفسي ، والحيرة الفكرية ، فإنها لا تزكي نفسه ، ولا تقوم أخلاقه ،
ولا تنهيه لسعادة الدنيا والآخرة ، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب

للعذاب الآخروي ، والخلود فيه .

وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفضية بمن أخذ بها إلى معرفة الله تعالى معرفة سليمة تبعث على الاستقامة ، وتعد للسعادة والكمال ، في الحال والمآل ، وقبل الشروع في الكلام نذكر أن هناك حقيقتين ثابتين ينبغي أن نكون مطلق التعرف إلى الله تعالى ، والتعريف به سبحانه وتعالى هما :

الأولى : أنه لا يعرف الله كنفسه سبحانه وتعالى ، ولا يعرف بالله مثل الله جل جلاله . وعظم سلطانه .

والثانية : أن مصدر معرفة الله تعالى ، هو كتابه ، ورسوله . فقد تعرف الله تعالى إلى عباده في كتابه بما لا مزيد عليه . كما أن الرسول ﷺ لم يأل جهداً في التعريف بربه عز وجل ، بالحديث عنه ، وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته ، ويحسن أن ننبه هنا إلى أن للتعريف بالله عز وجل في الكتاب طرقاً مختلفة ، وأساليب متنوعة . منها : أن يخاطب عباده كافة مؤمنهم وكافرهم . ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم

ومنها أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم ، ويخاطبهم ، ويوحى إليهم .

ومنها : أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به ورسله ، فيخاطبهم بأمرهم وينهاهم ، يهدمهم ويبشرهم ، ينذرهم ويحذرهم . ومنها إرساله تعالى الرسل ، وإزاله عليهم الكتب . وتأنيدهم بالمعجزات والخوارق التي يعجز عنها البشر عادة ، ولا يقصدون على مثلها ، لكونها لا تخضع للسنن الكونية . وهذا تفصيل ذلك :

أولاً : خطابه عز وجل لكافة عباده في قوله من سورة البقرة : « يا أيها

الناس عبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .
الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به
من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، (١)

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء الله تعالى للعباد ، وأمرهم بعبادته ،
ونهيهم عن الشرك به وعبادته . كما اشتملتا على التعريف به تعالى رباً ، خالقاً ،
مدبراً ، رازقاً . خلق البشرية كلها ، وجعل لها الأرض فراشاً ، والسماء بناء ،
وأُنزل من السماء ماء فأخرج لها به من الثمرات رزقها ، وما به قِوام حياتها . كما
اشتملت الآيتان على دليلين عقليين :

الأول : دليل الحدوث .

الثانى : دليل العناية . وقد سبق بيان كل منهما فى بحث الهداية العقلية
فليرجع إليهما .

وفى قوله سبحانه من سمورة السماء : : يا أيها الناس اتقوا ربكم
الذى خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها وبثّ منهم رجالا كثيرا
ونساء ، (١) فى هذا النداء الإلهى يأمر الله تعالى البشرية كلها بتهواه وهى
عدم الخروج عن طاعته بترك أمره ، أو بفعل نهيه ، ويذكرهم بأنه ربهم
أى خالقهم ، ورازقهم ، ومدبر أمرهم ، كما ذكرهم بأصل نشأتهم . فاشتمل
هذا النداء الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق ، كما اشتمل على دليل
عقلى وهو دليل الحدوث .

وفى قوله تعالى من سورة الأعراف : : إن ربكم الله الذى خلق

(١) الآيتان (٢١ ، ٢٢) .

(٢) الآية (١) .

السموات والأرض في ستة أيام . ثم استوى على العرش . يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً . والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ، ^(١) ففي هذا الإخبار الإلهي تعريف بالله سبحانه وتعالى بوصفه الرب الذى خلق الكون كله ، علويه وسفليه ، وهو يدبر أمره من فوق هرشه . وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر . والعبادة والتشريع .

كما فى هذا الخبر القرآنى دليل عقلى على إثبات وجود الله تعالى وهو دلائل العلة الكافية . إذ الخلق والتدبير مشاهدان فى الكون لكل ذى عينين فلا بدّ إذاً من خالق . مدبر للكون . ونفسه مستحيل لما يوجب من التناقض العقلى .

وفى قوله عز وجل من سورة فاطر : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأتى متوفاً فكون ، ^(٢) . فى هذا النداء تعرف الله تعالى إلى الناس بأنه ولى نعمتهم . نعمة الخلق والرزق ، وطلب منهم أن يذكروا ذلك ليذكروه بعبادته وحده . لكونه لا يستحق العبادة سواه ، وعجبهم من انصرفهم عنه ، وهو ربهم الذى لا رب لهم غيره .

فاشتمل هذا النداء الكريم على دليان عقليين هما دليل الحدوث ، ودلائل العناية .

وفى قوله تعالى من سورة الحجرات : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله

(١) الآية (٥٤) .

(٢) الآية (٣) .

أنتقام ، إنَّ اللهَ علِيمٌ خبيرٌ ، (١) . فاشتمل هذا النداء الإلهي على التعريف به تعالى بوصفه الخالق ، والمُدبِّرُ ذا العلم ، والخبرة الثَّامَّة ، فمن مظاهر تدييره للناس أن جعل حياتهم اجتماعية ليتم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم ، ولو شاء لجمعهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات ، فلا أسرة ولا قبيلة ، ولا شعب ، وحيد لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات ، فلا مدنية ، ولا حضارة ، بل لا إنسانية ولا كرامة آدمية . كما اشتملت الآية على دليل الحدوث ، والعناية أيضا .

وفي قوله من سورة لقمان عاينه السلام : « خلق السموات والأرضَ بغيرِ عمدٍ تَرَوْنَهَا ، وألقى في الأرض رواسي أن تُمَيِّدَ بكم ، وبث فيها من كل دابة . وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، ؟ » (٢) .

فمضى هذا الخبر الإلهي تعريف بالله تعالى بصفات الكمال التي انفرد بها دون غيره . وهي خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها من قانون الجاذبية فتهاست أجرامها ، ولم تحتاج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس كالأعمدة ونحوها . وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا . ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً ، وشكلاً ، وخاصة وفوائد ، نشره في الأرض التي هي كالمائدة الكبرى للإنسان ، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن . وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية . وإنباته النباتات المختلفة التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بشها في الأرض . كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍّ صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره بمعنى من مخلوقاته بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهم

(١) الآية (١٣) .

(٢) الآيتان (١٠ ، ١١)

الباطلة المزعومة. كما اشتمل الخبر أيضا على الأدلة العقلية التالية: دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب.

وفي قوله تعالى من سورة الزمر: «خلق السموات والأرض بالحق، يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، ألا هو العزيز الغفار. خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها أزواجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم، له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون؟» (١)

ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى عباده من خلال صفاته العليا، وهى كونه الخالق، القوى القادر، المدبر، العزيز، الغفار، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم فى خلقهم، وجعل الأرض مناسبة لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عايتها، وبوجود الشمس والقمر مسخرين فوقها، القمر ينيرها. وبه تعرف شهورها وأعوامها. والشمس تضيئها، وتدفعها، وتجعل الحياة صالحة فيها.

وبإزالة الأنعام، ذات اللحوم، والآليات، والأسواف، والأشعار، والأوبار، حيث يشربون ألبانها، ويركبون ظهورها، ويأكلون لحومها، ومن أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويتأثثون.

بتلك الصفات العلى، وهذه النعم العظمى يتعرف الله جل جلاله إلى الناس ويخبرهم بأنه هو ربهم، وإلههم، لارب لهم غيره، ولا إله لهم سواه، ويعجبهم (٢) من انصرفهم عنه، وإقبالهم على سواه. وقد اشتملت هاتان

(١) الآيتان (٥، ٦)

(٢) يحملهم على التعجب

الآيتان على كل القوانين العقلية ، من دليل الوجوب ، والحدوث ، والنظام ، والعناية ، والعلة ، وبأى تأمل فى الآيتين يظهر ذلك جلياً .

وفى قوله تعالى من سورة البقرة : كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شئ عليم ، (١) ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يعجب تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له ، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم ، وبحياتهم ، وموتهم ثم بعثهم بعد فنائهم ، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم ، ويجزيهم برحمته وعدله ، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم ، وبقدرته عليهم ، وبعلمه بهم . كما اشتعات الآيتان على أدلة : الحدوث ، والعلة ، والعناية .

ثانياً : خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله ، وتعرفه إليهم بندايتهم ، ووجه إليهم : وإنزال ملائكته عليهم . ومن ذلك نداؤه لآدم أبى البشر عايه السلام ، وخطابه إياه فى قوله تعالى من سورة البقرة : يا آدم اسكن أنت وزجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، (٢) .

وقوله من سورة طه : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى . فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجه فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . ولأنك لا تظلماً فيها ولا تضحى ، (٣)

فقد نادى آدم فى الآية الأولى ، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ،

وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة ، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة ،
وحذرهما من ذلك .

وفي الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فجدوا إلا إبليس امتنع ،
فخطب الرب تعالى آدم معلماً إياه بعداوة إبليس له ولزوجه ، ومحذراً لهما
من الخروج من الجنة إن هما أطاعا إبليس ، وأكلا من الشجرة التي حرم عليهما .

ومن ذلك خطابه لنوح ، ووحيه إليه ، ونداؤه إياه في قوله تعالى :
من سورة هود :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتس بما
كانوا يفعلون ، (١) .

وفي قوله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين
ظلموا إنهم مفرقون ، (٢) .

وفي قوله تعالى : « ياتوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من
معك ، (٣) .

ومن ذلك خطابه لإبراهيم عايه السلام . وعنده إليه وإلى ولده إسماعيل
ببناء البيت العتيق ، وتطهيره للطائفين والمكففين ، ونداؤه إياه ، ووحيه إليه ،
في قوله من سورة البقرة :

« إنني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي
الظالمين ، (٤) .

(٢) الآية (٢٧)
(١٣٤) من سورة البقرة أيضاً .

(١) الآية (٣٦)
(٣) الآية (٤٨)

وفي قوله : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين
والعاكفين والركع السجود » ، (١) .

وفي قوله : « وناديتاه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي
المحسنين » ، (٢) .

وقوله عز وجل : « وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق .
ويعقوب ، والأسباط » (٣) .

ومن ذلك ندأؤه تعالى لموسى عليه السلام ، وإعلامه بأنه ربه ، الذى
لا إله إلا هو ، وأمره إياه بعبادته ، وبإقام الصلاة لذكركه ، وسؤاله إياه عما
فى يمينه ، وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له بإلقاء العصا فى حديث تمتع جميل
ثم لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور ، وذلك فى قوله تعالى من سورة طه :
« يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا
اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . وأقم الصلاة
لذكرى » ، (٤) .

وفي قوله تعالى : « وما تلك يمينك يا موسى ؟ قال : هى عصاى ، أتوكأ
عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى . قال : ألقها يا موسى .
فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم
يدك إلى جناحك فتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا
الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال : رب اشرح لى صدرى ... إلى
قوله : « والسلام على من اتبع الهدى » ، (٥) .

ومن ذلك ندأؤه لداود عليه السلام ، وإخباره إياه باستخلافه
له ؛ وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق ، ونهيه إياه عن اتباع الهوى فى

(١) الآية (١٢٥) من سورة البقرة

(٢) الصافات الآيتان (١٠٤ ، ١٠٥)

(٣) سورة النساء الآية (١٦٣) (٤) الآيات (١١ — ٤٤)

(٥) الآيات (١٧ — ٤٧) .

قوله سبحانه وتعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (١) .

ومن ذلك استجابته لآيوب لما دعاهُ لكشف ضره ، فكشفه عنه ، وأعطاه ما فقد من أهلٍ ومالٍ ، وأرشده إلى استعمال الماء غسلًا وشرابًا لشفاؤه من مرضه ، وأفاده في يمينه حتى لا يبحث فيها ، وذلك في قوله تعالى من سورة ص : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بضئيبٍ وعذابٍ . اركض برجلك هذا مقتلٌ باردٌ وشرابٌ . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منا ، وذكرى لأولى الألباب . وخُذْ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث . إنا وجدناه صابراً نعم العبد ، إنه أواب » (٢) .

ومن ذلك نداؤه تعالى لذكرى عليه السلام ، وتبشيرُهُ إياه بِبَيْحِشِي لما سأله الولد ، وإعطاؤه الآية على ذلك في قوله تعالى من سورة مريم : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً » (٣) .

وقوله تعالى « قال رب اجعل لى آية » ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً » (٤) .

ومن ذلك نداؤه لعيسى بن مريم عليهما السلام ، وخطابُهُ إياه ، وتذكيره بشعبه عليه وعلى والدته ، وتأيدُهُ بروح القدس ، وإخبارُهُ بأنه متوفيه ورافعه إليه ، في قوله عز وجل من سورة المائدة : « يا عيسى بن مريم اذكرْ نعمتى عليك ، وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس » (٥) .

(١) سورة ص الآية (٢٦)

(٢) الآيات (٤١ - ٤٤) .

(٣) الآية (٧) .

(٤) سورة مريم الآية (١٠)

(٥) الآية (١١٠)

وفي قوله من سورة آل عمران : « يا عيسى إني متوفيك ، ورافعك إلى ،
ومطهرتك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم
القيامة » (١) .

ومن ذلك نداؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وخطابته إياه ، وإرساله ،
وأمره ، ونهيه ، وإرشاده له ، وتعليمه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ،
كتابه الذي أنزله عليه ، وجعل هداية أمته فيه ، كقوله تعالى من سورة المائدة :
« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٢) .
وقوله تعالى من سورة الأحزاب « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ،
ومبشراً ، ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً » (٣) .

وقوله عز من قائل : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين
إن الله كان عليماً حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما
تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » (٤) .

« وقوله من سورة الجاثية : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ،
ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شيئاً » (٥) .
ثالثاً : نداؤه تعالى لعباده المؤمنين ، وأمره إياهم ، ونهيه لهم ،
وإخبارهم .

وذلك في قوله من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً

(١) الآية (٥٥)

(٢) الآية (٦٧)

(٣) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) .

(٤) الآيات (١ - ٣)

(٥) الآيتان (١٨ ، ١٩)

ولا تفرقوا،^(١)

وفي قوله من سورة الحج :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده،^(٢) .

وفي قوله من سورة الزخرف : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأنواجكم تُخبرون،^(٣) .

رابعاً : اصطفاؤه للرسل وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه ، ويبشرون أوليائه برحمته ، وينذرون أعداءه من نقمته .

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة نوح : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب اليم . قال : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون^(٤) . » .

ومن ذلك إرساله هوداً ، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عاد ، وثمود ، كما في قوله تعالى من سورة هود : « وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ إن أنتم إلا مُفترّون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً^(٥) إن أجرى إلا على الذي فطرني ، أفلا تعقلون،^(٦) .

(١) الآيتان (١٠٢ ، ١٠٣)

(٢) الآيتان (٧٧ ، ٧٨)

(٣) الآيات (٦٨ — ٧٠)

٤ الآيات (١ — ٤) .

(٥) أى على إبلاغهم ، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره .

(٦) الآيتين (٥٠ ، ٥١)

وقوله ، إلى نمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرِه ، هو أنشأكم من الأرض واستمركم فيها فاستغفروه ، ثم توبوا إليه ، إن ربي قريب مجيب ، (١) .

ومن ذلك إرساله إبراهيم ، ولوطاً ، وشعياً ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، كما جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الحديد : « ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة ، والكتاب فمنهم مهتد ، وكثير منهم فاسقون ، » (٢) .

وفي قوله من سورة الصافات : « وإن لوطاً لَمِمنَ المرسلين . إذ نجيناه وأهلكته أجمعين . إلا عجوزاً في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتَمرون عليهم مصبحين (٣) . وبالليل أفلا تعقلون (٤) ، » (٥) .

وفي قوله من سورة الأعراف : « وإلى مدين أخاهم شعياً . قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم فآفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، » (٦) . وفي قوله ، ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد . يقدمُ قومه يوم القيامة فأوردتهم النارَ وبئس الورد المورود ، (٧) . كما أرسله إلى بني إسرائيل قومه إذ جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الصف : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تلمون أني رسول الله إليكم ، فلم تآذوا غوا أزاع الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين . » وإذ قل عيسى بن مريم

(١) الآية (٦١) من سورة هود

(٢) الآية (٢١)

(٣) أي وقت الصباح وهو النهار

(٤) أي ما حل بهم من الهلاك فتعبروا به

(٥) الآيات (١٣٢ - ١٣٨)

(٦) الآية (٨٥) (٧) الآيات (٩٦ - ٩٨) من سورة هود

يأبى إسرائيل أنى رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، (١).

ومن ذلك إرساله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فى قوله تعالى من سورة الأعراف : **ذَقَلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ، (٢) .** وقوله من سورة الأحزاب : **« يَا أَيُّهَا النَّبىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله يأذنه . وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ، (٣) .**

إن هؤلاء الرسل جميعاً وغيرهم كثير ، قد أوحى الله تعالى إليهم وهرفهم بنفسه فعرفوه ، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ، ودعوا إليه . يأذنه ، واستنصروه فنصرهم ، وسألوه العظام من المعجزات فأعطاهم . فهل بعد هذا يُطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى ، ووجوب الإيمان به ، وبمعرفة ، وعبادته ، والتقرب إليه ؟ اللهم لا . اللهم لا .

خامساً : ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحي المباشر حيث أنزل صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحياً أوحاها الله تعالى إليهم ، وتلقاها اتباع أولئك الرسل عن رسلهم ، ولم يشك أحد منهم فى أنها وحي الله ، وكتبه . أنزلها على رسله ، وفيها أمره ونهيهِ ، وإخباره ، ووعدهِ ، ووعدِهِ ، وشرائعه .

(١) الآيات (٥ - ٦)

(٢) الآية (١٥٨)

(٣) الآيات (٤٥ - ٤٨)

وأحكام دينه ، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف ، والزيادة ، والنقص . فإن القرآن الكريم كتاب محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) وهو أحدثها نزولاً ، لم يزل غنياً طرياً كما نزل ، لم ينقص منه حرف ، ولم يزد فيه آخر ، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأسمى الذى لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ قط . وقد اشتمل كتابه - صلى الله عليه وسلم - القرآن - على علوم ومعارف بهرت العقول ، وأخذت بالمشاعر والقلوب ، فإمن علم من العلوم الإلهية ، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه وأشير إلى دقيقة من دقائقه ، أو جلية من جلاله . فسبق ^(٢) الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم ، والمخترعات العصرية ، فذكر الذرة ^(٣) ، ونظام الزوجية ^(٤) في كل أجزاء الكون وذراته كما أشار إلى اتساع الكون ^(٥) ، وكروية الأرض ^(٦) ، وذكر مبادئ الصحة ^(٧) ، ووضع قواعد العدل في الحكم ^(٨) ، وأسس الآداب الرفيعة ،

(١) فإن قيل هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ ؟ قلنا: نعم ، لإضافة كتاب موسى إليه في قوله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) سورة الأحقاف الآية ١٢ .

(٢) الضمير المستتر يعود على القرآن .

(٣) في قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٤) في قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » سورة الناريات الآية ٤٩ .

(٥) في قوله تعالى « والسما بنيّنا ما بأيدي وإنا لموسعون » الآية ٤٧ .

(٦) في قوله تعالى « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » سورة الزمر

الآية ٥ .

(٧) في قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » سورة الاعراف الآية ٣١

(٨) في مثل قوله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ، وإذا

حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . . سورة النساء الآية ٥٨ .

والاخلاق البشرية الفاضلة ، الشيء الذى لم تهديه البشرية في كتاب غيره (١) .

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلالية ، والكونية ، والقانونية التشريعية في كل مجالات الحياة ، لم يدع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه ، أو تركيبة وتأليفه ، وكل ما في الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً و صفاء ، وصدقاً وأمانة ، وعدلاً ورحمة .

فما مصدر هذا الكتاب ، ومن أنزله ؟ فهل يحسن السكوت عن الجواب ؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول : فاض به وجدان محمد الأمى كما يقول المصللون !! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله ، وكتاب الله ، ووحى الله ، ولازم ذلك أن الله منزله موجود ، وأنه عليم قدير ، وعزيز حكيم . وأن من نزل عليه هو نبي الله ورسوله وأن كل ما جاء في هذا الكتاب حق ، وصدق ، وعدل . وأن الهداية البشرية متوقفة لا محالة عليه ، وأن السعادة الإنسانية منوطاة بالإيمان به ، والأخذ بما فيه .

سادساً : ما آتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون ، وقوانين الحياة تدليلاً على صدق نبوتهم ، وثبوت رسالتهم ، ومن ذلك معجزة إبراهيم أبى الأنبياء ، وإمام الموحدين بلا منازع حيث ألقى به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين ، ألقوه في أتون جحيم تخلصاً منه ، ونقمة عليه ، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم تحرق النار سوى كتافه الذى شديت به يده ،

(١) وذلك بنقل قوله عز من قائل : إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . سورة النحل الآية ٩٠ .

وقيدت به رجلاه ، فكانت معجزة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق
إذا ألقيت في النار ، أو أشعلت فيها^(١) .

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التي لا ينكرها إلا مكابر
« سوفسطائي » ، لا قيمة له بين عقلاء البشر ، فإن انفلاق البحر لمرور أمة
بأكملها عليه ، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التي يطأطى لها الإنسان
رأسه إجلالا وإعجاباً^(٢) ، وإن تفجر اثنتي عشرة عيناً ، تشرب من كل عين
منها قبيلة بأكمل أفرادها لحارقة لا يملك العقلاء عندها إلا التسليم بها^(٣) .
ومثلها العصا التي يلقيا موسى باسم الله فتقلب حية تسعى ، وتهز
كأنها جان ، وتلقف كل الباطل أمامها^(٤) .

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام ، كإيرائه الآكه ، والابرس ،
وإحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وكسكله في المهد في أيام ولادته الأولى^(٥) .

(١) ثبت هذا بالقرآن كلام الله ، إذ يقول تعالى في حكاية دعوة إبراهيم عليه
السلام قومه « قالوا احرقوه وانصروا آفتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نارك كونى برداً
وسلاماً على إبراهيم » . سورة الانبياء الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) جاء هذا في قول رب العالمين « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك
البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى
ومن معه أجمعين » الشعراء الآيات ٦٣ - ٦٥ .

(٣) قال تعالى (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت
منه اثنتا عشرة عيناً) سورة البقرة الآية ٦٠ .

(٤) قال تعالى (فأتى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) الاعراف ١٠٧ .

وقال تعالى « وألقى عصاك فإذا رآها تهز كأنها جان على مدبراً » . النمل الآية ١٠ .

(٥) قال الله عز وجل « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى
والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم للناس في المهد وكهلاً ، وإذ علّمتك الكتاب
والحكمة والنوراء والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها
فتكون طيراً بإذني وتبرئ . الآكه والابرس بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني » .
سورة المائدة الآية ١١٠ .

ومن ذلك ما أوتي محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به إلى الملكوت الأعلى^(١)، وردّ عين قتادة بعد أن سقطت متدلية على وُجته^(٢)، ونطق جذع النخلة، وحنينه إليه^(٣)، وسلام الحصى^(٤)، والشجر عليه^(٥)، وفيضان الماء من بين أصابعه في صحراء قاحلة لا ماء بها حيث سقى، وشرب وتطهر جيش بأكله عدد أفراده ألف وأربعمائة فرد^(٦)، وكل هذه المعجزات له، وغيرها قد شاهدها عشرات العشرات من الناس، بمن هم أكل الناس صدقا ومعرفة، وصلاحا، بحيث تواطؤهم على الكذب يعد مستحيلا عقلا .

فهذه المعجزات وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية . فهل تدل على غير وجود الله رباً وإلهاً ذا صفات متناهية في الكمال ؟؟؟ .

اللهم إنها لا تدل إلا عليك، ولا تعرف إلا بك يا رب العالمين، وإله الأولين والآخرين . سبحانه أن تخفيك السنة الجاحدين .

والآن فليقل النصفون : بمن يجب أن يؤمن العقلاء : أبياله يخلق ويرزق، ويدبر، يحيي ويميت، ويضر وينفع، ينزل الكتب، ويرسل الرسل، ويضع الشرائع والقوانين، ويهدي ويضل، ويسعد ويشقى، ويوالى ويباعدى، ويجب

(١) ثبت الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره في سورة الإسراء بالقرآن . راجع اللؤلؤ والمرجان (١ / ٣٥ - ٣٩)
والبخارى (١ / ٩٢ - ٩٤) في مواضع أخرى تبلغ تسعة مواضع، وكذا مسلم في (١ / ٩٩ - ١٠٧) وفي موضع آخر .

(٢) ورد هذا في سيرة ابن هشام في الحديث عن غزوة أحد ٣ / ٣٣ .
(٣) نطق عذق النخلة ثبت عند الترمذى في كتاب المناقب . باب رقم ٩ .
وحديث رقم ٢٦٣٢ . وأما حنين الجذع فقد جاء في صحيح البخارى ١١ / ٢ .
(٤) راجع الترمذى . كتاب المناقب . باب ٨ . حديث ٣٦٣٠ .
(٥) ذكره مسلم في ٨ / ٥٨ ، ٥٩ .
(٦) راجع البخارى ٧ / ١٤٨ .

ويغض ، ويعطى المعجزات ويهب الكرامات ، له تسعة وتسعون اسماً وصفة
كلها أسماء حسنى وصفات عليا ، يكلم ويعلم ، ويسمع ويحيى ، يُرفع ويضع ،
يعز ويذل ، يأمر بالعدل والإحسان ، ويدهى عن الظلم والعدوان ؟؟؟ .

أم بطبيعة مينة عمية صماء بكاء لا إرادة لها ولا اختيار ، لا تسمع دعاء ،
ولا تجيب نداء ، لا تحب ولا تكره ، لا تضر ولا تنفع ، لا تعلم ولا تكلم ،
لا تنزل كتباً ولا تبعث برسول ، ولا تشرع ولا تقن ، لا تهدي ولا تضل ،
لا اسم لها ولا صفة سوى الحدوث والووت ، والصمم والبكم والعمى !!! .

ألا فليقولوا لنا !!! ، أما نحن فقد آمنّا بالله الذى خلق السموات
والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء . خلق آدم من تراب ونفخ فيه
من روحه ، وخلق ذريته من ماء مهين ، خلق كل شىء ومملكه ، خلق بقدرته
ودبر بحكمته ، أنزل الكتب وأرسل الرسل ، يُدعى فيجب ، ويسأل فيعطى
ويستنصر فينصر ، يمدى من يشاء برحمته ، ويعضل من يشاء بعدله . فبمعرفة
ومحبته تثلج الصدور ، وتمتلئ النفوس بالسعادة ، والحبور . لا أنس بغير
ذكره ، ولا سعادة بغير طاعته ، الحياة بدون الإيمان به موت ، والوجود
بغير عبادته عدم ، رضا أمل الآملين ، وغاية العاملين . لا نرضى بغيره بدلاً ،
ولا نبغى عن طاعته حولاً ، معرفته ومحبته جنة القلوب ، لانصب فيها
ولا لغوب .

اللهم كما وهبنا الإيمان بك . وهديتنا إلى معرفتك ، فسخرنا لطاعتك ، وأمنن
علينا بمحبتك ، وأكرمنا بولايتك ، وآلبسنا ثوب عافيتك ، واخلع علينا حلال
رضوانك . آمين . . .

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً ، مدبراً ، حكماً ، ذا إرادة واختيار ، إليه منتهى الكمال ، والجلال ، والجمال ، وذلك لأنهم آمنوا بالله تعالى ، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال ، والقياس العقلي ، وهي الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية .

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق ، والإرادة ، والتدبير ، والحكمة ، وباتناء الكمال ، والجلال ، والجمال إليه تعالى ، وعرفه بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهدایتين العقلية النظرية ، والدينية الشرعية ، لأن من أسمائه تعالى ما لا يعلم إلا عن طريق الوحي الإلهي فقط . فأنه أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه ، وأنبياء الله ورسله أعلم بذلك من غيرهم ممن لم يمتدوا بهداية الوحي الإلهي من سائر الناس .

وحذراً من الكذب على الله تعالى ، وخوفاً من تكذيبه تعالى ، ولا سيما وقد توعده الله تعالى مكذبيه والكاذبين عايه في قوله من سورة الزمر : « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ، أليس في جهنم مثوى للكافرين ، ٤٤ (١) » .

فإن المؤمنين بالوحي الإلهي ، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون بحيال أسمائه عز وجل وصفاته بمبدأين لا يميزون الخروج ههما بحال من الأحوال ، لما يؤدي إليه اخرج ههما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه . والعياذ بالله تعالى من ذلك كله .

المبدأ الأول : أن لا يُسموا الله تعالى باسم الله لم يسم به تعالى نفسه في كتابه أو على لسان رسله عليهم السلام ، فهم إذا دعوه بأسمائه الحسنی حيث انتدبهم لذلك في كتابه بقوله من سورة الأعراف : « والله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (١) . وإذا نعتوه وعرفوا به نعتوه بصفاته ، وعرفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله ، وعظم سلطانه .

والثاني : أن لا يشبهوا الله تعالى في ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله بنوات المخلوقين ، ولا بصفات المحدثين ولا بأفعالهم ، لاستحالة وجود شبه لله تعالى عقلاً وشرعاً . أما الشرع فقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بنفي التشبيه له والكفر بقول تعالى : « ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير » (٢) . وقال عز وجل « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » (٣) .

وأما العقل فإن خالق المادة لا يكون مادة ، وما لم يكن مادة فكيف تشبیه المادة ، وهل يشبه ما ليس بمادة بما هو مادة ؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يشبه الخالق بمخلوقاته .

ومن هنا فالمازنون يصفون ربهم بكل ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يخرجون من ذلك أبداً .

فيقولون : إن الله يسمع ويبصر ، ويجب ويغض ، وخلق بيديه ، واستوى على عرشه ، ويحيى لفصل القضاء ، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وكلم موسى ، وذلك لأمر أحدهما : أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به تعالى

(٢) سورة الشورى الآية ١١

(١) الآية ١٨٠

(٣) سورة الاخلاص بكاملها

لم يبق إذاً من معنى للتحرج في وصفه تعالى بذلك ، إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لنهى عنه تعالى في كتابه ، وحرّمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما حرم تكذيبه والكذب عليه ، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمال الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد ، أو شريك في الملك ، أو ولي من الدّل .

وثانيهما :

أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير ، والبون الواسع بين الخالق والمخلوق ، فإذا وصف الله تعالى نفسه بأن له يداً ، ووصفه المؤمن بها فليس معنى ذلك أن يد الله تشبه يد الإنسان ، وأن المؤمن يخطر على باله أن شيئاً ما بين يد الخالق ويد المخلوق ، لا ، والله ، لأن الفرق بين يد الله تعالى الخالق ، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات الله الخالق ، وذات الإنسان المخلوق ، وإذا فلا مشابة بين يد الخالق ويد المخلوق البتة ، ولذا فلمؤمنون لا يؤولون صفات الله تعالى ، ولا يحرفونها ، أو يعطونها خوفاً من التشبيه ، لأنهم يعلمون أن التشبيه بين صفات الخالق وصفات المخلوق مُحال عقلاً وشرعاً ولا واقع له في الخارج أبداً ، ولذا هم يعدون من الكذب والباطل أن يشبه المرء الخالق عز وجل بالمخلوقين ، أو يشبه صفاته تعالى بصفاتهم ، وذلك كأن يقول : يد الله كيد الإنسان ، أو عين الله مثل عين الإنسان ، أو استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على عرشه مثلاً ! ، إذ هذا كله ومثله باطل لا واقع له في الخارج أبداً ، وهو كذب بحت ، واقتراء محض وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شيء ما بين الخالق والمخلوق في الذات ، والصفات والأفعال .

وقالتها :

أن العقول السليمة لا تحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات ،
ويأطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين
الصفتين ، وبين الذاتين الموصوفتين بهما ، وذلك كلمط الرأس فإنه يطلق على
المال والإنسان فيقال رأس المال ، ويقال رأس الإنسان ، ولا شبه بينهما
التي ، وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما ، وهذا لفظ العين
يطلق لإطلاقات فيقال عين الشمس ، وعين الماء ، وعين الحيوان ولا شبه
بين تلك الذوات التي أطلق عليها لفظ العين المشترك بينهما إلا في مجرد الاسم فقط .

وأخيراً فهداية المؤمنين في هذه العقيدة عقلية ودينية ، فالعقلية هي استحالة
إدراك كنه ذات الله تعالى ، وكنه صفاته ، لأن ذات الرب تعالى ليست مادة
فتدرك ، وصفاته من ذاته ، ومتى استحال إدراك كنه الذات استحال كذلك
إدراك كنه الصفات . والدليلة الشرعية هي إخباره تعالى بأنه ليس كمثل شيء ،
وأنه لم يكن له كفواً أحد ، وأن الخلق لا يحيطون به علماً ، مع وصفه تعالى
لنفسه بصفات شتى ذاتية : كالسمع والبصر ، واليد ، والعين ، والرضا ،
والغضب ، والحب ، والسخط ، وفعلية : كالجنى ، والنزول ، والخلق باليد ،
والاستواء على العرش ، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات في الكتاب الكريم
والسنة الشريفة معاً .

خلاصة :

وخلاصة هذا البحث في باب الأسماء والصفات الإلهية هي أن المؤمنين
المهتدين يؤمنون بأسماء الله تعالى وصفاته ، إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك
وتعالى ، ويدعون الله تعالى بأسمائه ، ويصفونه بصفاته غير مشبهين صفاته
بصفات المخلوقين ، ولا مؤولين لها ولا معطلين ، مع اعتقادهم الراسخ بأن الله
ليس كمثل شيء ، وبالعجز الكامل في إدراك كنه ذاته تعالى أو كنه صفاته
الذاتية والفعلية على حد سواء .

وبذلك سلخوا من تكذيب ربهم ، ومن الكذب عليه ، ونجوا تبعاً
لذلك من العذاب المتوعد به من كذب الله تعالى أو كذب عليه في قوله تعالى
« فمن أظلم ممن كذب على الله ، وكذب بالصدق إذ جاءه ؛ أليس في جهنم مثوى
للكافرين » ، ٤٩ (١) .

برامة واعتذار !!

اللهم إني أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك ، ومن إلحاد كل من إلحد
في أسمائك أو صفاتك ، ومن شرك كل من أشرك بك في ربوبيتك أو ألوهيتك .
وأعتذر إليك من كل استدلال استدلت به عليك ، ومن كل قياس عقلي
وضعتة تدليلاً على وجودك ، وأنت موجد كل موجود ، ومن كل برهان
أتيت به على إثباتك ، وإثبات جلالك وكمالك . ومن كل دليل مادي منقته
لأنثبته به وجودك ، لأنك ياربّي أنت الدليل على وجودك ، والبرهان على
جلالك وكمالك ، فكيف يصح طلب الدليل للدليل ، والإتيان بالبرهان على
البرهان ؟ ؟

قالوا انتمنا ببرهان فقلت لهم

أني يقوم على البرهان برهان

اللهم إنا كل عبادك المؤمنين بك قد عرفناك بك ، ولم نعرفك بغيرك إنك
أنت الذي تعرفت إلينا بنعمك وآلائك علينا ، وبنوؤ الإيمان الذي جعلت
في قلوبنا فعرفناك ربنا ، ورب كل العالمين ، وإلهنا ، وإله الأولين والآخرين .

اللهم إننا لم نعرفك وأنت تعلم - بقياس ، ولا نطلب منك والتماس ،
وإنما عرفناك بما فطرت نفوسنا عليه من الإيمان بك ، والافتقار إليك ،

(١) - سورة الزمر الآية ٢٢ .

والتوكل والاعتماد عليك . فطرنا بوجودك ناطقة ، وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكالك شاهدة ! هيهات هيهات ياربنا أن تعرف بالقياس (١) ، وأنت رب الناس ، ومالك الناس ، وإله الناس ، أو أن تثبت بالدليل وأنت خالق المستدل والدليل .

اللهم إن شفيعى عندك ووسيلتى إليك فى العفو عني ما قد علمته منى من شعور (٢) بالحياة والحجل وأنا أدلل عليك وأبرهن على وجودك ، وأنت الظاهر الذى لا تخفى ، والموجود الذى به قام كل الوجود !

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى كتاب توحيد الربوبية من فتاواه: أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قيل له بماذا عرفت ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره فى التباس ، خارجاً عن المنهاج . ظاهراً فى الاعوجاج ، عرفته بما عرف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه .

وذكر أيضاً أن شيخنا عارفاً قيل له فى ذلك فقال : عرفت الاشياء بربى . ولم أعرف ربى بالاشياء — مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨ / ٢) .

(٢) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبّر عنه إلا بأنه ضرب من الحياة والحجل ، وما فى معناهما ، وذلك أثناء كتابى للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به فى هذه الرسالة ، لا سيما عند الاستدلال والنظر ، والقياسات العقلية ، إذ كان يهاجنى شعور باطنى فطرى بأن الله تعالى لا ينكر وجوده ، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد ، وكيف نرضى بالحياة ، أو نقبلها خالية من الله والإيمان به ؟ وكيف ؟؟

التوحيد

التوحيد

ما هو التوحيد ؟

التوحيد : مصدر وحـد الشيء ، يوحدـه توحيداً إذا أفردـه ، ونفى عنه التعدد . والتوحيد في عرف الشرع نفى الكُفـ . والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأفعاله ، ونفى الشريك في ربوبيته ، وعبادته عز وجل . قال تعالى في نفى الكف :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » (١) .

وقال في نفى الشريك في الربوبية : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله » (٢) وقال : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله » (٣) .

وقال في نفى الشريك في العبادة : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » (٤) . وقال : « قل إن صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ، ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٥) .

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد في الذات ، والأسماء ، والصفات ، وتوحيد في الربوبية ، وهي اختصاصه تعالى ، وتفردـه بالخلق ، والرزق ، والتدبير لسائر الخلق والملوك ، وتوحيد في الألوهية ، أي في العبادة وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات ، وتفردـه بها دون سائر

(١) سورة الإخلاص بكاملها . (٢) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٣) سورة يونس الآية ٣١ (٤) سورة محمد الآية ١٩

(٥) سورة الأنعام الآية ١٩٢ .

مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، وتضالخين ،
أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات .

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات ، والأسماء ، والصفات ، وسيفرد
كل من توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية يبحث خاص ، تبين فيه حقيقته ،
وما يلبغى للتؤمن أن يعلمه منه ، ويعتقده فيه .

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لا بد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المطلوب منه ، وتظهره بوضوح ، لا بد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التي منها اشتق لفظ الربوبية ، إن لفظ الرب يطلق على عدة معان ، منها السيد ، والمالك ، والمربي ، والمصلح ، والمعبود بحق سبحانه وتعالى ، إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً . ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً ، إضافياً لا غير .

ومن هذه المعاني الكثيرة لفظ الرب اشتق اسم الربوبية التي تعني الخلق ، والرزق ، والمالك ، والسيادة ، والتربية ، والإصلاح ، والتدبير - ولكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين ، اختص بالربوبية دون سواه ، ووجب توحيده فيها ، وامتنع عنه الشريك فيها ، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح .

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحققة ، والتي هي الخلق ، والرزق ، والمالك ، والتدبير الذي من لوازمه الإمامة والإحياء ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، والإعزاز والإذلال . ولا يخل بتوحيد الربوبية ، أو بضره أن يقال : فلان رب الدابة ، أو فلان سيد قومه ، أو فلان يملك كذا ، أو فلان يربي ، أو يصلح ، أو يحكم ، إذ هذا الإطلاق لا يعني أكثر من أن الله تعالى رب كل شيء ، ومليكه ، وهبهم من فضله ما أصبحوا ، يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة ، أو التربية والإصلاح ، وهي نسب إضافية لا غير ، إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً ، ولا سيادة من كل وجه ، ولا تربية زائدة عن الإرشاد والتوجيه ، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرايع الله تعالى في عباده ، وإصلاحهم بها .

فطرة الاعتراف الربوبية :

وعقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير الله تعالى ، الرب الحق الذي لا رب غيره ، ولا إله سواه ، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية ، وعجزهم عنها ، لأن المخلوق لا يخلق ، والمملوك لا يملك .

ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن وهم يُدعون إلى عبادة الله تعالى وحده ، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها ، مع شدة تمصبهم لتلك الآلهة ، وتقديسهم لها ، وتعظيمهم ، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلاً عن غيره من التماثيل والأصنام ، الاتصاف بصفات الربوبية ، فلم يَكُوبُوا يَتَحَلَّوْنَهَا لأفرادهم ، ولا لآلهتهم ، ولا يدعونها لهم بحال ، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق ، والرزق ، والتدبير ، والملك .

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم في غير آية منه ، ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس : قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ؟؟ فيقولون الله (١) .

وقوله سبحانه من سورة الزخرف : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٢) » .

وقوله من سورة المؤمنون : « قل من رب السموات السبع ، ورب
العرش العظيم . سيقولون لله ^(١) » .

وقوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله ، فأنى يؤفكون ^(٢) » .

الإلحاد المسيوعى :

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى وهى أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار
الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع
عشر الميلاديين ، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيعى الماركسى اللينينى المدمر
والذى نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم ، فإنه وإن كان هناك كفر
بالله تعالى ، وشرك به بين الأمم والشعوب البشرية ، غير أن الشعور الفطرى
قائم فى كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان غيبى هو سلطان الله تعالى ،
والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه ، ودفعاً للشر
بواسطته . إن كل الآلهة التى أوجدها الإنسان باطلا ، وقدم لها مختلف
العبادات ، وتقرب إليها بشتى القرب ، الأصل فيها الشعور الفطرى بوجود
الله ، الخالق ، المدبر للخلق ، والكون ممأ .

عوامل الإلحاد فى العالم :

إن العوامل التى ساعدت على انتشار الإلحاد فى العالم ، ومكنت للمذهب
الشيعى ، الإلحادى المدمر فى أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة غير أن أهمها
عندى وفى نظرى خمسة لا غير وهى :

١ - ظلم الكنيسة النصرانية ، وتحالفها مع الملوك النصارى على استبعاد
الشعوب النصرانية ، واستغلالهم ، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينيه .

٢ — فساد الديانة النصرانية ، وبطلانها ، ومنافاتها للعقول ، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية ، الأمر الذى يسهل على الناس من أتباعها التنكر لها ، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفك من زمامها ، وينقدها ، ويبين خطأها .

٣ — طفرة العلوم الكونية ، والصناعية والآلية ، طفرة أدمشت العقول وحيرتها ، الأمر الذى حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته ، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها ، ومعروف كاذبها ، وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقاية والبدنية ، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه ، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه ، مصدقاً لكل ما تقوله وتخبر به .

٤ — تميل الإنسان بطبعه ^{سبل} إلى الشهوات والملذذ ، ونفوره من القيود ، والأنظمة التى تحد من ميوله ، وتوجه غرائزه ، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك ، مؤيداً له فى نزعة التحررية ، الإباحية ، التحليلية من كل القيود الأخلاقية ، والالتزامات الدينية الشرعية .

٥ — غيبة الحكم الإسلامى ، وخضوت نور الإسلام ، وتقلص ظل سلطانة الروحى ، وانحسار مئذنه الحيرى الذى كان يعطى البشرية فى شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية ، والأخلاق البشرية الفاضلة الثمينة ، إذ الفترة التى ظهر فيها المذهب المادى الشيوعى كان الإسلام قد ران على ضائمه رين الخرافات والضلالات ، وحل بدياره الدمار ، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار ، نتيجة لكيد أعدائه له ، وغفلة بنييه عنه ، فوجد لذلك المذهب الإلحادى الجهر خالياً للتضليل ، والمغالطة ، والفساد ، فحكم على الأديان كلها بالبطلان ، ونسب كل ضعف فى الناس إليها ، وكفر بها وحاربها ، ووجه نقده إليها بلا هوادة .

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب ، فوجد اختراعاته ، وتوفقه
في كل مجالات الحياة العلمية من كونية ، وتقنية ، وتشريعية ، وروحية ، ووجد
عدله في شعوبه ، ورحمتهم في الناس أجمعين ، ووجد سعادته تغمر أهله ،
وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم ، لما أمكن المذهب الإلحادي أن يقول ،
فضلا عن أن يحول أو يصول ، ولكن الأمر كما قال القائل :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

هذه خمسة عوامل ، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي
الدمر الذي يحتاج العالم اليوم ، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أخط
ما تكون الحيوانية إن لم يعارض بسرعة ، ويوقف عند حده .

وإني لا أرى أن مذهباً في العالم ، أو قوة ستعارضه ، وتوقفه عند حده
فضلا عن أن تبدده ، وتقضي عليه . اللهم إلا أن يكون الإسلام ، والإسلام
وحده ، إذا ما رزق دولة عظيمة ، تؤمن به في صدق ، وتطبقه بحزم وعزم
وتعطيه الحكم والقيادة ، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية
وترى الناس زيف النظريات الإلحادية ، وادعائها الباطلة ضد دين الله الحق .

لوربا هي القضية الأولى :

وبما أن أوربا هي التي جرت هذه المحنة على العالم الإنساني فإنها ستكون
قطباً هي القضية الأولى للإلحاد الشيوعي ، وقد كانت فعلاً - وحتى لا نكون
قد نجحنا عليها في هذا فإننا نقول : إنه بعد أن ظهر الإسلام ، وعرفت أوربا
في الجملة صلاحيته لهداية البشر ، وإعدادهم للحياة الفاضلة ، وسعادة الدنيا
والآخرة ، بدّل أن تعتقه ديناً ، وتحتضنه مبادئ خير ، وسعادة ،
وإسعاد ، قاومته ووقفت في طريق تقدمه وانتشاره ، ومن العجيب أنها
حاربت باسم الدين المسيحي والنصرانية كأنها لم تدرك أن الإسلام هو دين
الله الحق الذي أرسل به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة .

وأما المسيحية فلم تكن سوى دينٍ أقليميّ محليّ فقط ، لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بني إسرائيل أبداً . فقد قال هو بنفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة » (١) . وقال عنه القرآن الكريم : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مُصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ، ومُبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (٢) .

أما محمدٌ صلى الله عليه وسلم فهو رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو صلى الله عليه وسلم : « وكان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصّة ، وُبعثُ إلى الناس كافة » (٣) . وقول الربّ تعالى له : « قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جميعاً » (٤) . وقوله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » (٥) . وقوله : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليسكون للعالمين نذيراً » (٦) .

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السيّد المسيح وأجأوا حواربه إلى رؤوس الجبال ، والذهاب في كلِّ منأى بعيدٍ فراراً بدينهم ، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة ، التي حاربت أوروبا الإسلام من أجلها . إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا ميادى السيّد المسيح تفتش في شرق أوروبا طاردوها ، فتمسح من تمسح منهم خديعة وغشاً حتى تمسك بالدين المسيحي وتحوّله إلى دين وثني يبرأ منه المسيح الذي قال في محبته :

« إني عبد الله » (٧) ، وقال وهو نبي ورسول : « يا بني إسرائيل أعبدوا

(١) إنجيل متى ، الإصحاح (١٥) ، فقرة (٢٤)

(٢) سورة الصف الآية (٦)

(٣) رواه البخاري ومسلم مطولاً ، التلويح والمرجان (١ / ١٠٤)

(٤) سورة الأعراف الآية (١٥٨)

(٥) سورة سبأ الآية (٢٨)

(٦) سورة الفرقان الآية (١٧)

(٧) سورة مريم الآية (٣٠)

الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، (١) وليس أدل على ذلك من أن الانجيل الواحد قد حول إلى عدة أناجيل (٢) .

أقول إنه بعد أن تجلى لأوربا صلاحية الإسلام ، وأنه رحمة الله العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم ، ولم يكن دين العرب وحدهم ، ولادين الآسيويين دون الأفارقة ، أو الأوربيين ، بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت .

أقول بعد أن ظهرت لأوربا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين ، بدل أن تقبل عليه ، وتحضنه وتسعد به ، وتسعد الناس عليه أخذت تحاربه ، وتحارب المؤمنين به ، والمتبعين لمنهجه ، فشلت حروباً صليبية لا هوادة فيها ، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها ، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود فى المكر ، والدس والخديعة لإفساد العقيدة الإسلامية ، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية ، والمتصوفة والطريقيين ، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة ، الضالة ، بمن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به ، وإفساداً له ، وقضاء عليه .

وأخيراً وبعد أن قررت أوربا التخلي عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها فى بقائها فيها صنعت على عينها ، ويدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام ، حقناً عليه ، وتقزراً منه ، واستخفافاً به ، وبمبادئه وشرائعه ، وسلمتهم السلطة المحلية ، وخرجت من الباب لتعود من

(١) سورة المائدة الآية (٧٢)

(٢) بلغت الأناجيل بعد تحريفها خمس رثلاثين إنجيلاً ، ثم اختير منها خمسة أناجيل ، وهى المتداولة الآن عند فرق النصارى فى أنحاء العالم .

النافذة ، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم . عملاء لها ،
يوصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله ، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق
من الإسلام إلا الاسم ، ومن كتابه إلا الرسم . وبناء على الحكمة القائلة :
« ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » (١) فإن أوروبا ستذوق في يوم من
الأيام أقصى محنة ، وستجرع أعظم غصة ، نتيجة جريمتها على الإسلام دين
الله الذي هو دينها ، ولا دين لها على الحق سواء ، وما ظلمها الله فيما سيصيبها
به ، ولكن كانت هي الظالمة .

(١) هذه آية من سورة فاطر ورقمها (٤٣)

شرك الربوبية ومظاهره في الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً — بعد أن قدمنا أن مشركي العرب أيام البعثة المحمدية لم يكووا يشركون في ربوبية الله تعالى أحداً من خلقه — اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم ، غير أن هذا الاستغراب سينزل بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جلية في شتى مجالات حياة كثير من المسلمين .

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية في بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها ، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقّة خلو من كل مظاهر الشرك ، وآثاره ، لابتنائها على هدى الكتاب والسنة ، كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ — اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك في الكون أقطاباً ، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين في حياة الناس ، فهم يولون ويعزلون ، ويعطون ويمنعون ، ويضرون وينفعون ، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين ، منه تصدر القرارات والمراسيم بريح فلان ونجاحه ، وخيبة فلان وخسراه .

ومن هنا تعلق قلوب كثير من الناس بالصالحين ، وهتفت بهم الألسنة ، واستغيث بهم ، ودعوا عند الشدائد ، ونودوا للخلاص من المحن ، وهو مظهر واضح للشرك في الربوبية ، لما فيه من اعتقاد التصرف والتدبير في الكون لغير الله تعالى ، أوله ولغيره معه سبحانه وتعالى .

٢ — اعتقاد كثير من المنتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين

تصرفاً بعد موتهم ، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل ، ورسخ في نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل ضائف ، ومستشفى لكل مريض . فمن أصابه كرب ، أو نزل به ضيم ، أو حلت به نكبة ، فزع إلى تلك الأضرحة ، والمشاهد ، والقبور ، وأناخ بساحتها ، وتعلق بأهداب أصحابها ، راجياً منها تفرج كربه ، وقضاء حاجته !

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة ، وذهب به إليها ، وكم من ذي عاهة ، أو صاحب حاجة قد أمها ، وقصدها ، ونزل بساحتها ، وبكله رجاء وطمع في أصحابها ، حتى شاع بين العوام قول : « إذا تسمرت الأمور ، عليكم بأصحاب القبور » ، فيأتونهم للاستعانة بهم ، والدعاء عندهم . ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين في أنه شرك ظاهر ، لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالمطاء والمنع ، والضر والنفع .

وهذا من خصائص الربوبية ، إذ هو من التدبير للخلق الذي اختص به الرب تبارك وتعالى .

٣ - الرهبة من الجن والخوف منهم ، والاستغاثة بهم ، وتقديم القرابين لهم ، كالتي تذبح على حافات الآبار عند حفرها ، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها ، وإرادة السكن بها ، كالتي تذبح عند انتشار الأوبئة والأمراض المعدية . كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله تعالى وتديره .

وهذا مما ألقاه الشيطان في قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به ، وأشاعوه ، ونشروه حتى أصبح عقيدة في نفوس الجهال من المسلمين .

وهو إشراك لشياطين الجن في ربوبية الله تعالى ، وإيمان بهم والعياذ بآله تعالى .

٤ - تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقين ، والمشعوذين ، وطاعتهم في غير طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله بل فيما هو مكروهه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع ، وما يستنون لهم من سنن الباطل ، واتباعهم في ترك سنن الهدى ، ومعاداتها ، ومعاداة أهلها ، والداعين إليها ، والاستجابة المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيسلطوا عليها ، ومن أرواحهم فيقيمونها عليها ، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلون سرهم ونجواهم وأنهم يكشفونهم في كل أحوالهم ، ويظلمون منهم على كل مخبات نفوسهم ، فذلوا لهم ، وهانوا . وضعفوا أمامهم ، واستكانوا لهم حتى مكنوهم من أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فهل هذا الخضوع ، والذل ، والطاعة المطلقة ، والتسليم التام لهم ، لا يُعد شركاً في ربوبية الله تعالى ، وهل أولئك الرجال الذين استعبدهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم ؟ ؟

٥ - الخنوع للحكام غير المسلمين ، والخضوع التام لهم ، وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم ، حيث حكموهم بالباطل ، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم في كل ذلك ، ولم ينكروا عليهم ، ولم يرفضوا لهم .

إن الاتصاف بهذا الذي ذكرنا ، والقيام عليه ، والرضا به ، والاقتناع بصحته شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، لأن الطاعة في معصية الله تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها ، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد تنصر في الجاهلية ، ثم أسلم ، وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ قول الله تعالى في شأن أهل الكتاب : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » ، والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون .

فأنكر عدى أن يكونوا عبدوهم ، فقال له الرسول ﷺ : — د ألسوا
يحلون لكم الحرام فتحلونه ؟ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه ؟ فقال :
بلى . قال النبي ﷺ : د فتلك عبادتهم ، (١) .

وأخيراً فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم وإن
تساءلنا عن أسبابها فإننا لا نجد بُدّاً من القول بأنها كانت نتيجةَ جملة
الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ، وذلك لبعدها عن دراستهما ، والعمل بهما زماناً
غير قصير ، مع ما دسه عليها خصوم إسلامها الحانقين عليها والنّاقين منها ،
مما أفسد عقيدتها ، وبعُدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان .

(١) رراه أحمد والترمذى وحسنه — والآية المذكورة في الحديث من
سورة التوبة برقم (٣١) .

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية - العبادة - جزء هام من عقيدة المؤمن ، إذ هو ثمرة توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات ، ووجناء الطيب ، وبدونه يفقد توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات معناه ، وتعدم فائدته .

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة بالله وربوبيته ، ونفى الشريك له في ذلك ، كما أن توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته ، ونفى الشريك في الأسماء ، وعدم التمثيل ، والتأويل ، والتعطيل في الصفات .

وأما توحيد الألوهية فهو أفراد الله تعالى بالعبادة المستازم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح ، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها ، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى . وهو أيضاً - توحيد الألوهية - تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءً ، ورهبة وطمعاً ، كما هو إسلام الوجه لله تعالى ، ووقف الحياة كلها عليه ، فلا شيء للعبد هو لغير الله تعالى ، بدليل قول الله تعالى من سورة الأنعام : « قل إن صلاتي ، ونسكي ، ومحياي ، ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين »^(١) . بهذا أمر رسول الله ﷺ أن يقول ويجاهر به ، وبمثله أمر إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : « يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »^(٢) .

إن لهذا التوحيد ، توحيد الألوهية شأنًا وخطراً ، وينبئ عن ذلك أن كافة الرسل الذين بعث الله تعالى بهم إلى الأمم والشعوب كان كل واحد

(١) الآيات (١٦٢ ، ١٦٣) .

(٢) سورة الأنعام الآيات (٧٨ ، ٧٩) .

منهم يبدأ دعوته حينما يبدؤها بقوله : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ^(١) » ، وهو مضمون كلمة لا إله إلا الله التي جاء بها خاتم النبيين والرسل محمد ﷺ ، ودعا إلى قولها واعتقادها ، ولم يطالب بغيرها طيلة عشر من السنين ، ومن أجلها عُودى ، وأوذى ، وحُورب ، كما عُودى ، وأوذى ، وحُورب ، كل من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم ، وذلك لأن قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل بكل ما عبد الناس من آلهة دون الله سبحانه وتعالى ، وعرفوها بعد فقدهم لهداية الله تعالى بموت الأنبياء ، وانقراض أهل العلم العارفين بالله تعالى وشرائعه فيهم ، يُضاف إلى ذلك أن كلمة التوحيد : لا إله إلا الله تقتضى بل وتوجب المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، فلم يبق بين الناس من يتميز عنهم ميزة يستعلى بها عليهم فيترفع ويتكبر ، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم ، أو يحكمهم بغير شرع ربهم ، كما جاء مضمون ذلك في كتاب رسول الله ﷺ ، إلى هرقل ملك الروم .

ونصه بعد البسملة والدياجة : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ينشأ وينكم : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، ^(٢) .

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرسل وأممهم ، لما قُتل عليه عبادة الله تعالى وحده من الكفر بكل معبود سوى الله تعالى ، وترك عبادته ، والبراءة منه . كما قال تعالى في كتابه من سورة المجادلة : « لا نجد قوماً يؤمنون بالله ، واليوم الآخر يُؤاخذون من حاد الله ورسوله ولو

(١) سورة الأعراف الآيات (٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ١٠٥) وسورة هود

الآيات (٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) .

(٢) أخرجه البخارى (١ / ٧ - ٩ ، ٤ / ٥٤ - ٥٧)

كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ،^(١) .

وكما أخبر تعالى عن خليله إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعونا إلى الاقتداء بهم في الوقوف ضد الشرك والمشركين حيث يقول تعالى : « لقد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إِنَّا نُبِرَأُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ »^(٢) .

إِنَّ مدلولَ كلمة لا إله إلا الله : الإيمان بالله وحده بأن يُعبدَ ولا يُشركَ به شيءٌ من خلقه . والكفرُ بكل طاغوتٍ صارِفٍ عن عبادة الله تعالى ، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ كما قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ »^(٣) ، والطاغوت هو كل ما يُعبد من دون الله ، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبودٍ رضى لنفسه بأن يُعبدَ مع الله تعالى ، أو متبوع ، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ﷺ .

هذا ولكي نوفي توحيد الألوهية ما يستحقُّ من البيان والتوضيح لخطورة شأنه فإنه لابد من شيء من التفصيل والتطويل . فنقول إِنَّ توحيد الألوهية أو العبادة له طرفان وواسطة :

فالطرف الأول : مخلوق ضعيفٌ محتاج لا يبرح دهره باحثاً عما يقوى ضعفه ، ويجلب له ما ينفعه ، ويدفع عنه ما يضره ، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان .

(١) الآية ٢٢ .

(٢) سورة الممتحنة الآية ٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

والطرف الثاني : هو رب قوى غنى ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى .

والواسطة : هى أقوال وأعمال واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها ، وهى العبادة التى يقوم بها العبد طاعة لله تعالى تقرباً إليه . وبناءً على أن توحيد العبادة هو إفراد الله تعالى بالعبادة التى هى جميع ما أحب الله تعالى أن يُعبد به من أعمال القلوب والجوارح ، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرر ما يلى : —

(١) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه ، واقتضاه اللازم له ، لا يخرج عن وصف العبودية بحال من الأحوال ، ولذا فإنه لم يُرَ فى جميع أطواره التاريخية ، وعصوره البشرية إلاّ عابداً لا ينفك عن العبادة ، إما لله تعالى حتى عرفه ، وآمن به رباً وإلهاً ، أو لغيره من شتى الكائنات التى يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له ، ودفع الشر عنه ، عندما يحفل ربه ، ولا يؤمن به إلهاً ومعبوداً ، لعامل اقتضى ذلك منه .

(٢) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير الله تعالى ، ولا تنبغى العبادة إلاّ له سبحانه وتعالى ، وذلك لأنه لا يوجد فى الكون قوى غنى ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، قوته وغناؤه ، وسمعه وعلمه ، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلاّ الله سبحانه وتعالى ، ونوضح هذا المعنى فنقول : إن الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات ، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كالاته الخلقية والخلقية ، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له ، بل هى موهوبة له من خالقه ذى الجلال والإكمال المطلق لا إله إلاّ هو ، ولا رب سواه ، ودليل كون الإنسان كل كالاته موهوبة له ، وليست ذاتية له ، أنه يُخلق يوم يخلق فاقداً لها ، ثم توهب له ، ولبعض أفراد دون بعض ، ومن وهب منهم ذلك قد يُسلبه أحياناً ، فقد يرى الإنسان عاقلاً ،

ثم يصير أحق ، وقد يكون قادراً ثم يعجز ، ويكون غنياً ، ثم يفتقر ، فدل ذلك على أن كمال الإنسان ليس ذاتياً له ، وإنما هو موهوب له ، فهو لذلك لا يبرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله ، وهو الله سبحانه وتعالى . أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتي له . وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله ، ولا تنبغي لأحد سواه .

(٣) إن العبادة لا تكون قربة لله تعالى . ووسيلة إليه يلتفت بها العبد فاعلمها إلا إذا توفر لها : العلم بها ، ومعرفة كيفية أدائها ، وإفراد الله تعالى بها فلذا لا تتصور في الذهن عبادة نافعة إلا من ذي علم وإيمان . فالعلم يحصل للرب بالإيمان بكتاب الله تعالى ، وبقراءته ومعرفة ما جاء فيه ، ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمعرفة سنته ، واتباعه فيها ، وإفراد الله تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه ، ولهذا يتحقق أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضافٍ يبين فيه الشرك في العبادة ، ومظاهره اليوم في الأمة الإسلامية ، لتكون القارئ المؤمن على بصيرة في عقيدته ، وتلك هي الغاية التي توخيناها في وضع هذه الرسالة « عقيدة المؤمن » ، والله ولي الأمر والتوفيق .

Vertical line on the right side of the page.

الشرك في الألوهية

ومظاهره في الأمة الإسلامية

تعريف :

الشرك لغة : الاسم من شرکه في كذا يشرکه شرکا وشرکة ، كأشركه
مكذا يشرکه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً في ذات ، أو معنى ، ومثله
شارکه في كذا يشارکه فيه : كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير في ذات ،
أو وصف ، وهو - الشرك - شرعاً : ضد التوحيد كالکفر ضد الإيمان .

والشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر ، وفي عبادته تعالى
إن كان الفاعل له عالماً به مصرأً عليه كفر كذلك ، إذ الشرك في ربوبية الله
تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى ، وكذب عابه عز وجل ، وفي عباداته
تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى ، وتأليه غير الله تعالى كفر ، وتكذيب لله
تعالى في قوله : شهد الله أنه لا إله إلا هو ،^(١) وفي قوله : فاعلم أنه لا إله إلا
الله ،^(٢) . وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك .

ويختلف الشرك مع الكفر في أن من الشرك ما لا يكون كفراً ، وذلك
كالشرك الأصغر ، والشرك الخفي ، لحبر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك
وسمائه من بعض أصحابه ، ولم يعتبر فاعله كافراً ، ولم يحكم برده : من ذلك
قوله صلى الله عليه وسلم : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر .
قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرباء ،^(٣) وقوله لمن قال له :

(١) سورة آل عمران الآية (١٨) .

(٢) سورة محمد الآية (١) .

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد ، وتام الحديث ويقول الله تعالى إذا جرى الناس
بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من
جرائم . ٥٠٤ المسند (٤٢٨/٥) ٤٢٩ .

ما شاء الله ، وشئت : « أجعلني لله ندا ؟ . قل ما شاء الله وحده » (١) ، والنسب : الشريك ، وقوله لأصحابه لما قالوا : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » (٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك » (٣) . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل ، فقيل له : وكيف تنقيه وهو أخفى من ديب النمل ؟ يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » (٤) .

ولم يحكم صلى الله عليه وسلم في كل هذا بردة فاعله ، ولا بتكفيره . ومن أجل هذا قيدنا الكفر في شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شرك ، وأصر عليه عناداً ومكابرة ، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال ، أو جاه ، أو سلطان . ولسكى يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات الله وصفاته ، وأفعاله ، وعباداته مبينين كيف يكون التوحيد ، وكيف يكون الشرك والكفر فيها .

(١) رواه أحمد بلفظ « أجعلني والله عدلاً ... » (٢١٤/١ ؛ ٢٢٤ ؛ ٢٨٣ ؛ ٢٤٧) وانظر الفتح الرباني (٣٨/١) . وروى ما يدل على معناه في الدرر المنجى وابن ماجه وكذا أحمد (٧٢/٥ ؛ ٣٩٣) والفتح الرباني (٣٧/١ ؛ ٢٨) .

(٢) رواه أحمد (٣١٧/٥) والطبراني بسند لا بأس به ، وروى مسلم هذا اللفظ « من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » وهذا الحديث قد مر (٢٢٣/٨) .

(٣) رواه الترمذي (نور / ٩) وحسنه ؛ والحاكم .

(٤) رواه أحمد (٤٠٣/٤) وكذا الطبراني .

(١) الذات المقدسة ،

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير حرمة التفكير فيها ، ومحاولة إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها لما ثبت شرعاً من النهي عن ذلك ، ولاستحالة إدراك ذات الله تعالى عقلاً ، لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولم يكن له كفواً أحد ، ولا تدركه الأبصار . ولا تكفنه كنهه العقول ، إن مدى ما اتصل إليه العقول ، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها . والرب تبارك وتعالى ليس منها ، لأن المادة شيء معلوم التكوين والله ليس كمثله شيء ، والمادة المعروفة لدى الإنسان ، هو الخالق لها سبحانه وتعالى ، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه ، كما لا يكون شبيهاً له بحال من الأحوال . ولهذا كانت عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات ، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات ، وأن الله تعالى سمي نفسه بأسماء حسنى ، ووصف نفسه بصفات عليا ، وأمرنا أن نناديه بأسمائه ، وندعوه ، وتتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى : « و الله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (١) فنحن نناديه ، وندعوه بها ، وتتوسل إليه بصفاته العليا ، فيسمعنا ، ويستجيب لنا .

هذه عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى فمن شبه ذات الله تعالى بذات المخلوقين ، أو ادعى إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها ، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد كفر وأشرك .

(ب) صفات الله تعالى وأسماءه :

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله بصفات

عليها ، وتعبد المؤمنين بالإيمان بها ، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً ، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى فوجب الإيمان بذلك وقبوله ، وإطلاقة عليه تعالى على ما هو مراده منه ، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه ، وسماها به من أسماء فقد كفر ، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك ، إذ هو يتردد في ذلك بين تكذيب الله تعالى ، والكذب عليه و كليهما كفر شنيع وظلم عظيم .

ومن أول تلك الصفات الإلهية العليا رانما^(١) تنزيهه تعالى ، فقد أخطأ ، وجمل ، وتكلف ما لم يكلف به ، وفعل ما لم يؤمر به . . ذلك كتأويل يد الله بقدرته فراراً من وصف الله تعالى بلفظ اليد ، وكتأويل بجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره ، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف الله تعالى بالنحول والانتقال الذى تبادر إلى أذهان المؤولين . وكتأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه . وكتأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتجيز ، إلى غير ذلك من التأويل الذى عُرف به أكثر علماء الخلف ، ولم يعرف به أحد من علماء السلف .

وبيان ذلك :

أولاً : أن المؤول لم يرض الله تعالى مارضيه له أعرف الناس به وهو رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : أن هذا التأويل لو أراده الله تعالى لنفسه لأمر به فى كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولكان حينئذ التأويل لصفات الله تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله ، ويأثم تاركه . غير أنه لما لم يأذن الله تعالى به كان فعله خطأ وتكلفاً مذموماً محرماً ، لما فيه من معنى الاستدراك على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

(١) رانماً أى طالبا .

ثالثاً . أن المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه ، وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هي استحالة وجود أى شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده ، إذ لا شبه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق أبداً ، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شئ . وهو السميع البصير ، وأنه أحد ، ولا كفؤ له ، ولهذا لو قال أحد : يد الله كيد زيد أو عمرو ، ويجىء الرب تعالى كمجىء خالد أو بكر ، واستواء الله على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق ، وهو فى ذلك كاذب ، إذ الواقع يختلف عما قال تماماً ، ومكذب لأنه كذب الله تعالى فى قوله : « ليس كمثله شئ » ^(١) ومشرك كافر ، لتشريك بعض عباد الله فى بعض صفات الله تعالى .

رابعاً : أن هذا المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه ، وخوفاً منه قد خفى عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا ، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء ، إنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق ، وبين صفات المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ، لما توهم تشبيهها أبداً ، ولما لجأ إلى التأويل فلماذا لنا أن نقول : إن المؤول لصفات الله تعالى خوفاً من الوقوع فى التشبيه ، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلماذا هرب منه فأول صفات الخالق ، حتى لا تشبه صفات المخلوق — أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخطأه أن يقدر أى شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، لاستحالة وجود أى شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه . كما أطلقها على نفسه ، وأطلق صفات المخلوق عليه ، كما أطلقت عليه شرعاً . وعادة ، وعرفاً ، وبذلك سلم من الخطأ ، والتكلف ، والجهل ، وبالتالي من الشرك والكفر .

(ج) عباداته تعالى :

قبل بيان عبادات الله تعالى ، وكيف يُوحّد الله تعالى فيها نذكر أن الله

تعالى لم يخلق الثقيلين الإنس والجن في هذا العالم الأرضي إلا لعبادته بذكره ،
وشكره ، وحسن عبادته ، دل على هذا قوله عز وجل في كتابه ،
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد
أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، (١) .

وليبيان أنواع العبادات ، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب ، وبعث الرسل
فكانت بذلك عبادات الله توفيقية لا تعلم إلا من طريق الوحي : الكتاب
والسنة ، وكان من عبد الله تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد
لله وإنما هو عابد لهواه ، أو للشيطان الذي أغواه ، ومن عبد الله بما شرع
لعباده أن يعبدوه به ولكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته فقد أشرك وكفر ،
والسؤال الآن هو : ماهي العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده ليعبدوه بها ،
ولا يشركوا معه غيره فيها ؟

والجواب أنها موجودة في الكتاب والسنة ، مودعة فيهما ، فنهما تطلب
وبهما تعرف ، وهما نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل
من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن ، واستكمالاً للبحث فيها
مبتدئين بالعبادات التي هي من أعمال القلوب ، منتهين بالعبادات التي هي من
أعمال الجوارح .

(١) - أعمال القلوب :

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التي يقوم بها قلب العبد ، وذلك
كالإيمان ، والمحبة ، والخوف والخشية ، والرجاء ، والرغبة ، والإنابة ،
والتوكل ، وهذا بيانها مفصلاً :

(١) الإيمان وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى ، وربوبيته لكل شيء ،
وألوهيته الأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به ،

واعتقاده من الملائكة ، والكتب ، والرسل . والمعاد ، والجزاء ، والنعيم والشقاء ، والقدر والقضاء ، لأمر الله تعالى بذلك في قوله : « آمنوا بالله ورسوله . والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسوله ، واليوم الآخر فقد ضل ضللاً بعيداً » (١)

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير الله تعالى ، أو بالوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك .

(٢) المحبة وهى حب الله تعالى وحب كل من يجب من عباده ، وما يجب من عقائد عباده ، وأقوالهم وأفعالهم ، وذلك لقول الله تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » (٢) ، وقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (٣) ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من ينفعنى به عندك ، اللهم مارزقنى بما أحب فاجعله قوة فيما تحب ، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب » (٤) ، وعليه فن أحب الله تعالى ، وأحب من يجب من عباده ، وما يجب من اعتقاداتهم ، وأقوالهم وأفعالهم ، ولم يشرك فى هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى فى هذه العبادة ، ومن أحب غير الله تعالى حباً لم يأذن فيه الله تعالى ، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه ، أو حرمه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى ، وحبّ الرؤساء ، وحب الدنيا حباً يجعل المحب على طاعة المحبوب فى معصية الله تعالى ، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى تعظيمه ، وإجلاله ، وإكباره ، والذلة له والخضوع ، والخنوع ، فن أحب بهذا الحب

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٦٥)

(٣) سورة آل عمران الآية (٣١)

(٤) رواه الترمذى بسند حسن ، فى كتاب الدعوات (٧٣)

غير الله تعالى فقد أشرك في عبادة الله تعالى التي هي حب الله والحب لأجل الله تعالى .

(٣) الخشية والخوف (١) .

إن خشية الله تعالى ، والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين ، فقد أمر بنخשתه ، ونهى عن خشية غيره ، في قوله تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون » (٢) ، كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره في قوله : « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » (٣) ، وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب في قوله تعالى : « وإن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » (٤) . فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يُفرد بهما الله عز وجل ، وتختص به ، فمن خاف غير الله تعالى ، أو خشيه معظما له ، مستكينا ، يذل له ويطيعه في معصية الله تعالى ، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله في هذه العبادة .

(٤) الرجاء والرغبة :

الرجاء هو الأمل في الخير ، وترقب حصوله ، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمه فيه ورجاه منه ، والرغبة : حب الخير وإرادته ، والطمع في تحصيله ممن يملكه ، ويقدر على إعطائه وهبته ، فهي مثل الرجاء ، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنون حيث قال تعالى في كتابه العزيز من سورة الكهف : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٥) ، وقال تعالى : « لمن كان يرجو الله ، واليوم الآخر » (٦) . وقال

(١) الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تكون مع تعظيم الخشي منه ، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه .

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٥) (٤) سورة الملك الآية (١٢)

(٥) الآية (١١٠) (٦) سورة الأحزاب الآية (٢١)

وكانوا يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين،^(١) ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرغبة إليه تعالى في قوله: «فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب»^(٢) ولما كان الخير كله بيد الله ، وليس بيد أحد سواه ، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده ، وذلك لقوله تعالى : «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتُعزِمُ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير»^(٣) . كان رجاء الخير ورغبته من خير الله تعالى ضاللاً وباطلاً ، وكان فاعله مشركاً في هذه العبادة القلبية غير ربه عز وجل ،

• — الإنابة :

الإنابة وهي الإقبال على الله تعالى ، والتوبة إليه . والإنابة عبادة أمر الله تعالى بها في قوله . «وأنبيوا إلى ربكم وأسلوا له»^(٤) ، وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب ، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه ، جاء ذلك كله في كتابه القرآن الكريم .

ولما لم يكن في الخلق كله من يعطى ، أو يمنع ، أو يضُر ، أو ينفع إلا بإذن الله ، ولا من يُسعد أو يشقى إلا الله سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله تعالى رغبة أو رهبة ، خوفاً أو طمعاً ، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلاً وشركاً ، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائباً إليه — أى إلى ذلك الغير — راجياً الخير منه ، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك .

-
- (١) سورة الانبياء الآية (٩٠) (٢) سورة الشرح الآيتان (٨،٧)
 (٣) سورة آل عمران الآية (٣٦) (٤) سورة الزمر الآية (٥٤)
 (٨ — عقيدة)

٦ - التوكل :

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، اعتماداً ووثوقاً به ، أمر الله تعالى به في غير آية من كتابه ، وجعله آية الإيمان وعلامته فقال تعالى : « وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً »^(١) وقال . . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ،^(٢) . وواعد بالكفاية المتوكلين عليه في قوله : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »^(٣) ، وخص التوكل به فقال . « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ،^(٤) فالتوكل إذا عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية الله تعالى ، وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته ، والاعتماد عليه تعالى لماله وقدرته .

ولما كان لا كافي إلا الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلاً وشركاً ، وكان المتوكل على غير الله تعالى سكوناً ، ووثوقاً ، واعتماداً مشركاً .

(ب) أعمال الجوارح :

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً ، فلذا نكتفي بذكر طرف منه فقط ، تذكيراً وتعليماً ، وبخاصة ما وقع فيه الشرك بين المسلمين ومن ذلك .

١ - الدعاء :

الدعاء هو سؤال الرغائب ، وطلب الحاجات في جلب نفع ، أو دفع ضرر ممن يملك ويقدر . والدعاء من أعظم مظاهر العبادة ، وأوضح صورة من

-
- | | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| (١) سورة الأحزاب الآية (٤٨) | (٢) سورة المائدة الآية (٢٣) |
| (٣) سورة الطلاق الآية (٣) | (٤) سورة إبراهيم الآية (١٢) |

حضورها حتى قيل فيه . الدعاء مخ العبادة . والدعاء هو العبادة^(١) ، ومن هنا كانت العبادة بدونه ليست شيئاً ، أو لا تستقيم ولا تتم إلا به ، وهو كذلك ، إذ في الدعاء الذل للدُّعو ، والافتقار إليه ، والاستكانة له ، وتعظيمه ، واستشعار غناؤه ، وإحاطة علمه بالداعي ، وقدرته على إعطائه ما سألَه فيه مع تمجيده ، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التي لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا في الدعاء ، وحال السجود ، ولذا كان الدعاء في السجود مُستجاباً ، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه .

ولما كان تحقيق الرغائب ، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك ، المستول فيه مالكا لجميع الرغائب وكل الحاجات قادراً على تحقيق الرغبة ، وقضاء الحاجة ، عالماً بحال السائل الداعي الراغب ، يسمع كلامه ، ويرى مكانه ، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى الله عز وجل بطل أن يدعى غير الله تعالى عقلاً وشرعاً ، قال تعالى من سورة الجن . « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً »^(٢) .

وبهذا كان دعاء غير الله ، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً — شركاً محرماً ، وكان من يدعو غير الله تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً ، أو معانداً مكابراً .

٢ - الاستغاثَة :

الاستغاثَة هي طلب الغوث والغيث ، وهو ما يغاث به المضطر ، ويعان به من طعام ، أو شراب ، أو نصر وتأييد ، أو خلاص من شدة ، وإنقاذ من محنة .

(١) حديث حسن رواه الترمذى في تفسير سورة البقرة (٤٠، ١٦) وأبو داود

في (٢٤١/١) وهو صحيح وكذا لفظ الدعاء مخ العبادة، رواه الترمذى وسنده ضعيف .

(٢) الآية (١٨) .

وهى أى الاستغاثة من جنس الدعاء ، فمن لا يدعى لفقره و غدم قدرته و جهله بحال الداعى ، و عدم سماع دعائه ، و عدم معرفة مكانه و حاله ، لا يستغاث به كذلك .

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد ، لا يرى المستغاث ، ولا يسمع استغاثته ، أو ميت انقطع عمله من الدنيا ، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين ، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى ، وكان بذلك مشركاً كافراً ، وليعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته — أى طلب الغوث منه — إذا كان قادراً على العطاء والغوث ، وكان قريباً من الداعى المستغاث يسمع كلامه ويرى مكانه ، قد أذن الله فيه ، وأباحه لعباده ، ولم يجعله عبادة تخصه ، يحرم إشراك غيره فيها . وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

٣ — الاستغاثة

الاستغاثة هى طلب العون ، والمعونة على قضاء حاجة ، أو خروج من محنة ، وهى من نوع الدعاء والاستغاثة ، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإغاثة ، ولا من ميت لا يسمع المستعين به ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف عن حاجته وحاله ، ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء ، ورؤية الداعى ، وإغاثته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه ، وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستغاثة به دون من سواه فى قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » (١) . وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن يستعين بالله دون سواه فى قوله :

« إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » (١) .

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم ، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم ، وانقطاعهم عن الحياة ، كان ضلالا وباطلا . فـ كان فاعله مشركا بالله تعالى في هذه العبادة من عبادات الله التي لا تنبغي لأحد سواه .

٢ - النذر :

النذر وهو التزام العبد مالم يلزمه من الطاعات ، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقربا إلى الله تعالى ، أو بشرط أن يقضى الله تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها ، كأن يقول في تعهده اللهم إن شفيت مريضى ، أو رددت على غائبي ؛ أو قضيت حاجتى فى كذا . . . لك على أن تصدق بكذا . . . أو أصوم أو أصلى كذا وكذا ، . . . والنذر مما تعبد الله تعالى به عباده المؤمنين ، قال تعالى مثنيا عليهم بالوفاء به ، « يوفون بالنذر » (٢) . وقال مرغبا فيه . « وما أنفقتم من نفقة ، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه » (٣) وخير النذر ما كان بغير شرط ، لسكراهة النبي صلى الله عليه وسلم النذر المشروط فى قوله . « النذر لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من مال البخيل » (٤) وبناء على هذا فإن من نذر لغير الله تعالى وسواء نذر لحى أو ميت فقد أشرك (٥) لأن النذر عبادة ظاهرة إذ هو توجه القلب إلى المنذور له رغبة فيما عنده من الخير

(١) رواه الترمذى وصححه فى كتاب القيامة (٥٩)

(٢) سورة الإنسان الآية (٧) (٣) سورة البقرة الآية (٢٧٠)

(٤) متفق عليه بمعناه الأوّل والمرجان (٢ / ١٦٨)

(٥) لا يدخل فى هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه الله رزقه الله كذا فانه يعطيه كذا أو يقرضه كذا

وهو استشعار قدرته وغناه ؛ وإظهار النادر عجزه وضعفه وانقاره الى من نذر إليه .

وهذا ويم الله لا يليق إلا بالله تعالى ، وبأويل أولئك الذين يندرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا في هلكة وهم لا يشعرون ، وأشركوا بعبادة ربهم غيره وهم لا يعلمون .

ذبح القربان :

ذبح القربان وهو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى في الحج وضحايا يوم عيد الأضحى ، وشاة العقيقة يوم سابع المولود . وذبائح وليمة العرس ، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين ، كل هذا قد شرعه الله تعالى في كتابه ؛ وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان لهذا الذبح تقربا وعبادة لا تنبغي إلا لله تعالى ، ومن ذبح لغير الله تعالى مُعظما له ، خائفا منه راجيا ما عنده فتمد عبده بهذه العبادة وأشركه في عبادة ربه عز وجل .

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معا بما يفعله أهل الجاهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والتبوير في أيام الموالد والمواسم تعظيما لمن يذبحون لهم ، وتقديسا ، ورغبة في شفاعتهم ، وطمعا فيهم ، وتوسلا بجاههم .

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد ذبائح الزار ، والدشيرة ؛ وعلى حافات الآبار . وعتبات المنازل خوفا من الجن . إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦- الركوع والسجود :

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم إذ هما ركنا الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما ، وقد تعبّد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين فقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وانحلوا
الخير لعلكم تفلحون » (١) ، « وأمر مريم بلى عمران به في إخباره عنها بقوله :
« يا مريم اقنتي لربك ، واسجدي ، واركعي مع الراكعين » (٢) وأمر رسوله
بالسجود طلباً للقرب منه فقال : « فاسجد واقترب » (٣) .

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء ، والسجود وهو وضع الوجه على
الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا الله تعالى ، ومن ركع لأحد ،
أو سجد له معظماً إياه ، أو طامعاً فيه ، أو خائفاً منه ، وليس بمكره على
ذلك فقد أشرك بربه ، وعبد مع الله غيره ، وكان فعله شركاً أكبر ، لا يغفره
الله إلا أن يتوب منه قبل موته ، لقول الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن
يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً
بعيداً » (٤) .

٧ - الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود :

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده ، وأمرهم بها في قوله :
« وليطوفوا بالبيت العتيق » (٥) . وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر ،
أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره
حتى ولو كان إلى الله تعالى ، فقد ابتدع وأشرك ، وطوافه ذلك شرك أكبر ،
وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها ، لما فيها من التشريع ، وهو حق الله تعالى
وحده دون سواه ، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله

(١) سورة الحج الآية (٧٧)

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٣)

(٣) سورة العلق الآية (١٩) .

(٤) سورة النساء الآية (١١٦)

(٥) سورة الحج الآية (٢٩)

تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر ، ولا ركن ولا جدار ، ولا قبر ولا ضريح ولا تابوت ، وعليه فنقبل عتبة ، أو جداراً ، أو باباً ، أو حلقة في باب ، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد فقد ابتدع ، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبله وتقديساً راجياً منه النفع ، دافعاً به الضرر فقد أشرك .

٨- سائر أنواع العبادات :

إن كل ما شرع الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى ، وتزلفاً من صلاة ، وصيام ، وحج ، واعتكاف ، وصدقات ، وزكوات ، واعتكاف ، وجهاد ، ورباط ، وفعل خير من بر وصلة ، وذكر ، ودعاء ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتعليم علم وتعلمه ... كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فعن الله تعالى ، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك في عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله .

٩- ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة :

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله بقوله من سورة القتال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ »^(١) ، فطاعة الله ، وطاعة رسوله في الأمر والنهي عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنين من عباده ، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كاتنا من كان رغبة فيما عنده ، أو رهبة مما لديه فقد أشرك ، وترك طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو غير مكره

رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك ، إذ الطاعة في المعروف فقط ، ولا طاعة
لمخلوق في معصية الخالق .

١٠ - تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره ، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى عبادة
تعبد الله بها المؤمنون من عباده ، فلذا لا يجوز الحلف بغيره تعالى ، ومن
حلف بغير الله تعالى ، فقد أشرك ، لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من
النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، وجعل ذلك من الشرك ، فقد قال عليه
الصلاة والسلام : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً
فليحلف بالله أو ليصمت »^(١) ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك ، وفي
لفظ ، فقد كفر »^(٢) ، وقال « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى ، فليقل
لا إله إلا الله »^(٣) .

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذي وقع فيه بعض المسلمين اليوم إنما
وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك ، وتحت شعارها فإنا نختم هذا
الجزء من هذا البحث في عقيدة المؤمن ببيان كل من الوسيلة والتوسل ، والشفاعة
والتشفع ، والبركة والتبرك تبياناً للحق ، وهداية إليه .

(١) متفق عليه (١٧٠ / ٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

(٢) رواه الترمذی وقال : هذا حديث حسن ورواه أحمد والحلي

(٣) متفق عليه (١٧٠ / ٢) اللؤلؤ والمرجان ومسلم (٨١ / ٥)

الوسيلة

تعريف :

ما هي الوسيلة ؟

الوسيلة : لغة اسم فاعله رسل إليه بكذا يسئل وسيلة فهو واسل تقرب ورغب ، ومثله توسل إليه بكذا توسلا ، وتوسيلا إذا عمل عملا تقرب به إليه فالتوسل والواسل بمعنى واحد ، قال أبو طالب في لاميته :
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي دين إلى الله واسل
وتجمع الوسيلة على وسائل ، كما في قول لبيد :

ولما رأيت القوم لا يُود فيهمو وقد قطعوا كل العرى والوسائل

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك ، وعلى الدرجة والقربة ، وأطلقت كذلك على أعلى درجة في الجنة ، وهي التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » (١) .

وأما الوسيلة في الشرع فهي العمل يقدمه المؤمن بين يدي رغبته ليتوسل به إليها (٢) ، فيفوز برغبته ، ويحصل على مطلوبه .

والوسيلة التي هي التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى . أو لقضاء حاجة بمحصول نفع ، أو دفع ضرر ، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور .

(١) رواه مسلم (٤/١) تصوير المکتب التجاري بيروت .

(٢) الضمير في إليها عائد إلى الرغبة .

الأول : المتوسِّل إليه وهو الله ذو الفضل والإنعام .

والثاني : الواسل أو المتوسِّل وهو العبد الضعيف ، المحتاج ، الطالب القرب من الرب تعالى ، أو الراغب في قضاء حاجة له من جلب خير ، أو دفع شر .

والثالث : المتوسِّل به وهو العمل الصالح المتقرَّب به إلى الله تعالى وهو الوسيلة ، ولكي تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب ، أو تُتقضى بها الحاجة لابد من مراعاة مايلي كشروط أساسية لابد من توفرها للواسل الذي يريد أن يذتفع بوسيلته : —

(١) أن يكون العبد الواسل إلى الله تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً .

(٢) أن يكون العمل المتوسِّل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه .

(٣) أن يكون العمل المشروع قربة موافقا في أدائه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤديه عليه ، فلا يُزاد فيه ، ولا ينقص منه ، ولا يفعل في غير زمانه الذي شرع له ، ولا في غير مكانه الذي عين له وُحدد .

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً ، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال . والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها في كل زمان ومكان . قال تعالى في سورة المائدة : **ذِيا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون** (١) . وقال عز وجل في سورة الإسراء : **وأولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه** (٢) ففى الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله

تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات ، لأن تقوى الله تعالى
تتحقق بفعل المأمور ، وترك المنهى ، وبها تتحقق النجاة من العذاب إن شاء
الله تعالى ، وطلب الوسيلة وهى القرب من الله تعالى والحظوة لديه سبحانه
وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ،
وعمرة ، وجهاد ، وبغيرها من سائر النوافل ، والقرب ، والطاعات ، وفى
الآية الثانية إخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفرأ من الجن فأسلم النفر
من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال ، والنفر من العرب لم
يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم ، فأخبر تعالى عن حالهم
فى هذه الآية الكريمة منبهاً إلى خطأهم ، وضلالهم محذراً منه .

الوسيلة جائزة وممنوعة

والوسيلة منها ما هو جائز ، ومنها ما هو ممنوع ، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة ، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراحة أو تحرماً ، ولا فرق في ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية ، أو الأمور الآخروية فلا بد من إذن من الشارع في جواز الوسيلة ، وإلا حرمت ، ومن أمثلة ذلك في الأمور الدنيوية :

(١) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له إلا هو ، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها ، للحصول على المال المطلوب ؟ والجواب قطعاً : لا ، لأنها وسيلة محرمة .

(٢) رجل خطب امرأة في نفسها فأبى الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر ، أو دجال يكتب له حرضا ليحببه إليها حتى تتزوجه . فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب ، لا . بل هي محرمة شرعاً .

(٣) امرؤ سرق له مال ولم يعرف سارقه ، ففيل له : إن فلانا عرافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة ريمه من الجن ، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن ؟ والجواب ، لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة .

(٤) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ ، ففيل له : اذهب إلى الضريح الفلاني واستشف بصاحبه ، وناده واستغث به فإن أخاك يبرأ من مرضه . فهل يجوز أن يذهب بمريضه إلى هذا الضريح ، ويستشفع به ويستغيث ؟ والجواب لا ، لأن هذا العمل شرك بالله .

(٥) مريض موصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليعرأ من مرضه ، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه ؟ والجواب : لا .

(٦) حكومة مسلمة قيل لها : إن هناك كلابا بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة ، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب في كشف الجرائم ؟ والجواب : لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة ، إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين ، أو بالاعتراف من الجاني ، فكيف تقبل شهادة كلب ؟

(٧) امرأة أرادت أن تتزوج ، فقيل لها : اذهبي إلى فلانة الشوافة فاستخبريها في شأن زواجك بفلان فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا ، لأنها تعرف بواسطة رثي لها من الجن ، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن غيب ؟ والجواب : لا ، إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً ، وهكذا فكل وسيلة يجوز استعمالها للحصول على منافع دنيوية أبداً ، وإنما يجوز ما أذن فيه الشارع فقط ، فتجوز وسيلة التجارة ، والفلاحة ، والصناعة ، والحملالة للحصول على المال ، ولكن لا يجوز الربا ، والغش ، والسرقة ، والتلصص لجلب المال .

يجوز التداوى من الأمراض بالأدوية ، ولا يجوز التداوى بالسوم ، والنجاسات ، والمحرمات ، يجوز البحث عن المجرمين ، والسارقين ، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات ، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية ، ولا استخدام الكهانة ، ولا العرافة ، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين ، والمنجمين .

وفي الأمور الإلهية :

إن المراد من التوسل في الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى في أحد أمرين :

أولهما : وهو أشرفهما وهو القرب من الله تعالى ، والحظوة لديه ، والمنزلة العالية عنده .

وثانيهما : قضاء الحاجات بجلب نفع ، أو دفع ضرر ، وبعبارة أوضح : هو التوسل إلى الله تعالى للحصول على مرغوب في الدنيا أو الآخرة ، والنجاة من مرهوب في الدنيا أو الآخرة .

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبد به عباد المؤمنين ، ويتقربون به إليه ، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع ، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية ، المباحة ، النافعة للواصلين ، كما نقفى عليها ^(١) بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليما وتحذيرا . وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة بحثا وتحقيقا . وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التي شرعها الله تعالى لعباده قريبا يتقربون بها إليه ، ووسائل يتوسلون بها كثيرة ، وهى : كل الإيمان والعمل الصالح ، وأعظمها وسيلة الإيمان بالله ورسوله ، ثم أداء الفرائض التي افترضها الله تعالى على عباده ، ودون ذلك نوافل العبادات ، وترك المحرمات والمكروهات ، وذلك لقوله تعالى فى الحديث القدسى الذى أخرجه البخارى :

« وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث ، ^(٢) .

الوسائل المشروعة

(١) الإيمان :

من الوسائل المشروعة الإيمان بالله تعالى ، وبكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .

(١) نقفى عليها أى نتبها .

(٢) متن البخارى - (٨ / ١٣١) - كتاب الرقاق باب التواضع مطبعة

محمد على صنيح وأولاده .

والإيمان من أفضل الأعمال ، وأشرف الوسائل التي يُتوسل بها إلى الله تعالى للحصول على مرغوب ، أو النجاة من مرهوب ، فقد رضي الله تعالى وسيلة إليه ، وأثنى على المتوسلين به في قوله من سورة آل عمران : « ربنا إنا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » (١) . وفي قوله من آل عمران أيضا : « ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » (٢) وفي الحديث أن رجلا توسل في دعائه بالإيمان فقال : اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يسمع فقال :

« والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ! الذى إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى » (٣) .

ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول : اللهم إني أسألك بإيماني بك ، وبرسولك ، أو بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أن تغفر لى ، وترحمنى ، أو تقضى حاجتى فى كذا ... ويسمى حاجته .

٢- الصلاة :

إن الصلاة فرضها ونفلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى : لقوله صلى الله عليه وسلم فى رواية الصحيح وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال : « الصلاة على وقتها » ، فأى مؤمن أو مؤمنة يرغب فى المنزلة عند الله تعالى والحظوة لديه عز وجل فليحافظ على

(١) الآية (١٩)

(٢) الآية (١٩٣)

(٣) رواه الترمذى وحسنه ، وأبو داود واسناده صحيح ، ورواه أحمد فى المسند وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم جامع الاصول فى أحاديث الرسول — مطبعة الملاح — تعليق عبد القادر الأرناؤوط - (٤ / ١٧٠)

الصلوات الخمس وليؤدها في أوقاتها يظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى ، وأى مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة ، ويرغب في قضائها ، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين . ويسأل الله تعالى حاجته فإنها تقضى بإذن الله كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الضير بأن يتوضأ ويصلي ركعتين ، ويسأل الله تعالى ، ففعل ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فرد الله عليه بصره (١) .

٢ - الصيام :

إن طالبَ القرب من الله تعالى ، والراغب في الخطوة لدى مـولاه ، والمتوسل إليه بالإيمان ، وصالح الأعمال يُرشد إلى الصيام فإنه خير وسيلة إلى ذلك ، فقد روى النسائي في سننه : « أن أبا أمامة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة ؟ قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له ، . وروى البخارى ومسلم واللفظ له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » (٢) ، وصح أيضاً : « أن خلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » (٣) .

هذا ورد في التوسل بالصيام للحصول على القُرب من الله تعالى . وأما التوسل به لقضاء الحاجات ، واستجابة الدعوات فقد روى الترمذى بسند حسن وأحمد كذلك عن أبي هريرة : « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، والمظلوم ،

(١) رواه الترمذى (١١٧ / ٩ ، ١١٨) وأحمد (١٣٨ / ٤) وابن ماجه (إمامة / ١٨٩) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (٢٠ / ٢) . والبخارى (٣١ / ٤ ، ٣٢) ، ومسلم (١٥٩ / ٣) .

(٣) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (١٩ / ٢) . ولفظ البخارى (والذي =

وورد بسند ضعيف « للصائم دعوة لا ترد » ويشهد له الحديث السابق عليه .

٤ - الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال ، وطيب النفس لنعم الوسيلة لطلب القرب من الله تعالى ، والزلفى إليه ، ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوى والأخروى ، وللنجاة من المهوب فى الدنيا والآخرة . وهماهى ذى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تشهد بذلك وتؤكد . قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ، وقال : « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . وقال : « صنائع المعروف تقى مصارع السوء » ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر .

٥ - الحج :

إن الحج إلى بيت الله تعالى لمن أعظم القرب ، وأشرف الوسائل ، ويكفى فى التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، كما صح ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فى رواية الشيخين .

٦ - الاعتكاف :

والاعتكاف : هو زيارة بيت الله تعالى للطواف به ، والسعى بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من الله تعالى واستجابة الدعاء ، وتكفير الذنوب لقول

= نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك (٣/٣٠، ٣٢)
ومسلم (٣/١٥٧، ١٥٨) . والخلوف : بضم الخاء المعجمة ، واللام : تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام .

الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح : « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ، والذهب والفضة » .

٧ - الجهاد والرباط :

إن الجهاد في سبيل الله ، والرباط لمن أعظم الوسائل وأشرفها ، وأجل الأعمال وأفضلها ، ولنعم الوسيلة هما للفوز بالقرب من الله تعالى والحظوة لديه سبحانه وتعالى . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيحين : « إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »^(١) . ويقول : « مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة »^(٢) . ويقول « الغازي في سبيل الله ، والحاج إلى بيت الله ، والمعتمر وفد الله دعاهم فأجابوه ، وإن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم »^(٣) . ويقول : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله ، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها »^(٤) .

ويقول : « حرمت النار على عين دمعت أو بكّت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »^(٥) .

(١) البخارى (١٥٣ / ٩) ومسلم (٣٧ / ٦٦) .

(٢) رواه الدارمى (الجهاد / ٧) وأحمد (٤٤٦ / ٢) ، والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى (٦٨ / ٢) .

(٣) رواه النسائى (١٤ / ١٥) وغيره ، ولم يعمل بأية علة قاصحة فيه ، ورواه ابن ماجه والزيادة التي بين القوسين له (مناسك / ٥) .

(٤) رواه البخارى (٤٣ / ٤) .

(٥) رواه أحمد (١٣٥ / ٤) وأصله في الصحيحين (٢٥٧ / ٢) من اللؤلؤ والمرجان وأخرج النسائى الجزء الأخير منه (١٣ / ٦) .

٨ - تلاوة القرآن الكريم

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل ، وخير ما يطلب به القرب من الله تعالى ، إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنة ، لحديث الترمذى عن ابن مسعود ، كما أن مجالس قراءته ، ومدارسه تنزل عليها السكينة ، وتحققها الملائكة ، وتغشاها الرحمة لحديث الصحيح ، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواه من سائر المؤمنين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح :

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) كما يجعله في معية الكرام البررة من عباد الله ، ولحديث مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » (٢) كما يقال له إذا دخل الجنة « اقرأ وارقي ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » كما روى ذلك الترمذى بسند صحيح (٣) .

الذكر والتسبيح :

إن ذكر الله تعالى وتسميحه بالكلمات الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل كلمات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ومثل قول : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ومثل قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لمن أعظم القرب ، وأفضل الوسائل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين . يقول الله تعالى « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسي ذكرتني في نفسي ،

(١) البخارى (٢٣٦ / ٦)

(٢) مسلم (١٩٥ / ٢)

(٣) الترمذى (٤٢ / ١١ ، ١٣) وأحمد (٤٠ / ٣)

وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم ، (١) . وقوله صلى الله عليه وسلم ، للرجل الذي قال له . « إن شرائع الإسلام قد كثرت ، فأخبرني بشيء أثبت به قال » لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله تعالى ، (٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن آدم عملا أنجي من العذاب من ذكر الله تعالى ، (٣) » وقوله « مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكر الله مثل الحى والميت » ، (٤) .

١٠ - الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات ، وقضاء الحاجات لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح : « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا » .

وقوله للذي قال له : « أجعل لك صلاتي كلها » : « إذا تكفي همك ، ويغفر لك ذنبك » ، (٥) .

وقوله في حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف والذي جاء فيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فاتبعته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه ، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ،

(١) التلويح والمرجان (٣ / ٢١٩)

(٢) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذي (الدعوات ٤١) وأحمد (٤ /

١٨٨ / ١٩٠)

(٣) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، وكذا ابن ماجه (أدب / ٥٣) وأحمد

(٢٣٩ / ٥) وغيرهم

(٤) رواه البخاري (٨ / ١٠٧)

(٥) رواه أحمد والترمذي (قبالة / ٢٣) وصححه

قال لجنّت أنظر ، فرفع رأسه ، فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له . فقال : إن جبريل عليه السلام قال لى : ألا أبشرك ؟ إن الله عز وجل يقول : من صلى عليك صليتُ عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه ، فسجدت لله شكراً .

١١ - الاستغفار:

ان الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ : أستغفر الله ، أو اللهم اغفر لى ، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم ، لثناء الله تعالى على أهلها بقوله « والمستغفرين بالأسحار » ^(١) وقوله « وبالأسحار هم يستغفرون » ^(٢) : وقوله : « والذين إذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » ^(٣) . ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه مغفر له وإن كان قد فر من الزحف » ^(٤) . ولقوله صلى الله عليه وسلم : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ^(٥) .

(١) حورة آل عمران الآية (١٧)

(٢) سورة الذاريات الآية (١٨)

(٣) سورة آل عمران (١٣٥)

(٤) رواه أبو داود وإسناده جيد

(٥) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (٣٤٨ / ١) وأحمد (١٤٨ / ١)

(٣٤٨ / ١) والترمذى (دعوات / ١١٧)

١١ - الدعاء :

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يُتوسل به المتوسلون لقضائه هو أنجحهم ، وتفريج كروبهم ، وكيف لا يكون كذلك ، والله تعالى يقول : « ادعوني استجب لكم » ^(١) ويقول : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني » ^(٢) . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول . الدعاء هو العبادة ويقرأ قول الله تعالى . « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » ^(٣) .

ويقول . « ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلاً ، ما لم يدع يائس أو قطيعة رحم » ^(٤) . وقال : « ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة إلا أعطاه إياه : إما أن يعجلها له ، وإما أن يدخرها له في الآخرة » ، وفي لفظ « إلا أعطاه الله إحدى ثلاث . إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلاً . قالوا . إذا تكثر ! قال الله أكثر » ^(٥) . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين » ^(٦) .

(١) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٦) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه الترمذي وصححه (دعوات / ١١٥) .

(٥) رواه أحمد بإسناد لا بأس به (٣ - ١٨) .

(٦) أبو داود (١ - ٣٤٢) والترمذي (دهوات - ١٠٤) وحسنه ، والحاكم

وصححه على شرط الشيخين (١ - ٤٩٧) فأحمد (٥ - ٤٣٨) وابن ماجه (دعاء ١٣) .

إن من بين الوسائل المشروعة . التي ترفع بها الدرجات ، وتقضى بها الحاجات دعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم ، فيدعو ، فيستجيب الله تعالى له فيهم ، فتقضى حاجاتهم ، فكم من مرة توسلوا رضى الله عنهم بدعاء نبيهم في طلب الغيث ، فيستجيب الله تعالى ويسقون ، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه . وقد تقدم خبر الضرير ، وأنه توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ادع الله لى يا رسول الله أن يرد على بصرى فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فرد الله عليه بصره ، وعاد كأن لم يكن قد منه ضره »^(١) ، كما صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العفرة « لا تلسنا يا أخى من دعائك ، وفى لفظ « أشركنا يا أخى فى دعائك »^(٢) وتوسل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بدعاء العباس رضى الله عنه لهم فى صلاة استسقام فاستجاب الله تعالى له ، وسقاهم بعد قحط شديد^(٣) .

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً ، فيقول المؤمن لأخيه ادع الله لى يا فلان ، لما علوا من مشروعية ذلك وجوازه ، وكيف وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من دعا لأخيه بظهر الغيب قال المولى به أمين ولك بمثله ، رواه مسلم^(٤) :

(١) رواه الترمذى (١١٨ / ٩) وأحمد (١٣٨ / ٤) وابن ماجه (إقامة / ١٨٩) :

(٢) رواه أبو داود (٣٣٤ / ١) والترمذى (دعوات / ١٠٩) :

(٣) رواه البخارى من حديث أنس (١ / ٣٢ ، ٣٣) .

(٤) مسلم (٨٦ / ٨) :

١٠ - أسماء الله تعالى الحسنى:

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا لمن بخير الوسائل وأجداها ، وأنفعها للعبد ، فإن أمراً مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب في دعائه ، ولا يُحرّم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو يائس أو قطيعة ، وما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يُل ذكروه :

١ - لفظ ياذا الجلال والإكرام ، لحديث الترمذى الحسن الإستاذ عن مُعاذ وهو قوله صلى الله عليه وسلم وقد سمع رجلاً يقول : ياذا الجلال والإكرام : « قد استجيب لك فسل » .

٢ - يا أرحم الراحمين ، لما روى الحاكم عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله ملكاً موكلاً بمن يقول يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثاً قال الملك إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل » .

٣ - اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، يا حنان يا منان ، بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح : « أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مر بأبي عياش وهو يصلي ويقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد... إلخ فقال : لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى » (١) .

٤ - يارب ، يارب ، يارب ، لحديث عائشة : « إذا قال العبد يارب ، يارب يارب قال الله تعالى : « لييك عبدى سل مُتعط » (٢) .

(١) أحمد (١٥٨/٣)

(٢) ابن أبي الدنيا، وسكت عنه المنذرى ولم يذكر له علة ، الترغيب والترهيب

(٢-٤٨٨) .

هـ - لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . لحديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي والترمذى وسنده لا بأس به : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله تعالى له ، (١) .

هذا وأسماء الله تعالى وهى تسعة وتسعون اسما كلها يدعى بها الرب تبارك وتعالى ، ويُتوسل بها إليه ، فيستجيب للداعين ، ويعطى السائلين ، وهو البر الرحيم ، الجواد الكريم . وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه ، وإلا فإن أسماء الله تعالى ، وصفاته كلها يدعى بها ، قال تعالى : « والله الأسما الحسنى فادعوه بها ، (٢) .

١٣ - فعل الغبرات مطلقا .

إنه مامن خير أو بر يفعله المؤمن إيمانا واحتسابا إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا ينحيه أبداً . وشاهد هذا ما جاء فى البخارى ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فى جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدته عليهم ، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه الله ، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من الله ، فاستجاب الله لهم ، وكشف ما بهم ، وخرجوا سالمين من الغار (٣) .

كما أن رجلا من بنى إسرائيل أمار غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم ، فشكر الله تعالى له ذلك العمل القليل ، فغفر له ،

(١) الترمذى (دعوات / ٨١) وأحمد (١٧٠ / ١) .

(٢) سورة الاعراف الآية (١٨٠)

(٣) راجع التلويح والمرجان (١٣٦ / ٣) والبخارى (٩٩ / ٣ ، ١٠٠) ومسلم

وأدخله الجنة (١) . كما أن امرأة بغيّاً من بني إسرائيل سقت كلباً عطشاناً يأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه الله تعالى فشكر الله تعالى لها ذلك ، وأدخلها الجنة ، وهذا ثابت في الصحيحين لا مجال لإنكاره ، (٢) .

١٤ - ترك المحرمات .

إن من بين الوسائل للنفاذة للمشروعة للحصول على القرب ، والفوز برضاء الرب ، ولاستجابة الدعوات ، وقضاء الحاجات ، ترك المحرمات ، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كباير الإثم خوفاً من الله تعالى وحياء منه إلا كان له ذلك وصيلة ، له أن يتوسل به إلى ربه . كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون ، فقد توسل إلى الله تعالى بقوله : اللهم كانت لى بذت عم ، كانت أحب الناس إلىّ فأردتها عن نفسها فامتنعت منى حتى أمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطينها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا مأحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ، فتخرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة . . . إلخ (٣) .

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل الى الله تعالى عند الشدائد ، وتعسر الأمور بما ترك من معاصى الله تعالى خوفاً من الله وحياء منه ، وطاعة له ، بعد أن يكون قد هم بها وأرادها ، فإنه يستجاب له ، ويفرج كربه ، أو تقضى حاجته باذن الله تعالى .

-
- (١) الحديث ثابت في الصحيحين راجع اللؤلؤ والمرجان (٢٠١/٣١)
والبخارى (١٥٧/١ : ١٥٨) ومسلم (٣٤/٨)
(٢) راجع اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) والبخارى (٢١١/٤) ومسلم (٤٥،٤٤/٧)

- (٣) متفق عليه ؛ اللؤلؤ والمرجان (٢٣٦/٣) والبخارى (٩٩/٣ : ١١٠)
ومسلم (٨٩/٨ ، ٩٠)

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة ، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة ، والتي شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة ، وصرفتهم عنها فخرموا من التوسل المشروع ، بسبب انشغالهم بالممنوع ، فخابوا في سعيهم وخسروا .

نذكر هذا نصحاً للمسلمين ، وتبليغاً لرسالة الإسلام ، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة :

١ - دعاء الأولياء والصالحين :

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ، والتوسل بجاههم لم يكن في دين الله تعالى قرينة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً ، وإنما كان شركاً في عبادة الله محرمًا ، يخرج فاعله من الدين ، ويوجب له الخلود في جهنم .

إن كل ما يفعله جملة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقول أحدهم : يا سيدي فلاناً ، ومولاي فلاناً خذ بيدي ، وكن لي كذا ، وادع الله لي بكذا ، أو أنا في حاك ، وأنا بك وبالله ، وأنا دخيلك إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال ، والجهل ، والإسلام بريء منه ، إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه ، ومنعه ، وتوعد عليه بمثل قول الله تعالى : « إنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما لظالمين من أنصار » (١) :

٢ - النذور للأولياء والصالحين :

إن ما يتنذر به جملة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى الله تعالى ، ولا لقضاء الحاجات واستجابة الدعوات ، وإنما هو شركٌ مُحَرَّم ، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن قولَ أحدهم : ياسيدى فلانا إن رزقنى الله كذا ، أجعل لك كذا . أو ياسيدى فلانا إن تحقق لى كذا ، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا ، أو أقدم لك كذا . . كل هذا نذر لغير الله تعالى ، وعبادةٌ صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آتٍ أخطر باب من أبواب الشرك ، والإسلام برىء من عمله ، إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير الله تعالى ، ودعاؤه ، وعدته بالذبح له ، أو بناء قبة عليه ، أو بإيقاد الشموع على ضريحه ، أو وضع ستائر على تابوته . إن حصل للناذر ما نذر لأجله . بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والقرض الذى يقولها المسلم من أجله ، وهو نفى العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له .

٣ - الذبائح على أرواح الأولياء :

إن ما عرفه جملة المسلمين اليوم ، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء ، وعلى المشاهد ، والقباب فى المواسم التى تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت ، ومن سوق البقر ، والغنم لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين ، كل هذا ضلال وباطل ، وليس مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً ، وإنما هو عمل من أعمال الجاهلية الأولى ، وشرك فى عبادة الله تعالى ، وتدنيد ، حرّمهما الله تعالى بقوله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » (١) وبقوله : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٢) .

(١) سورة النساء الآية (٣٦) (٢) سورة البقرة الآية (٢٢) .

٤ - العكوف حول قبور الصالحين :

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلى أضرحة الأولياء ، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور ، ولا المبيت هناك ، ولا إقامة الحفلات والحضرات . كما ليس من التوسل المشروع في شيء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور ، ولا نداءاتهم ، وطلب الدعاء منهم ، ولا الاستغاثة بهم . وإنما هذا وما شابهه مما يُقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم ، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سفه نفسه ، وجعل أكبر أصل من أصول الدين الإسلامي وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه . وإن المهر على هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى ، وكفر بعد إيمانه ، والعياذ بالله تعالى .

٥ - سؤال الله بجاء فلان :

ليس من التوسل إلى الله تعالى طلبا للقرب ، ولا اقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاء أحد من خلقه . كقول أحدهم : اللهم إني أسألك بجاء نبيك فلان ، أو عبدك فلان ، إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام ، فلم يرد في كتابه ولا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والذي عرفه الإسلام ، وأمر به ، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذلك كقول المسلم : يا الله ، يا أرحم الراحمين ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . أمثالاً لقول الله تعالى ، وطاعة له في قوله : والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، (١) أما سؤاله تعالى بجاء فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة ، ولا صدرها الصالح . وما كان من جنس البدع والأمور المحدثاة فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب ، وتقضى بها الحاجات .

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠)

٦ - سؤال الله تعالى بحق فلان :

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع : سؤال الله تعالى بحق فلان ، أو فلان ، إذ هذا التوسل لم يرد في الكتاب الذى قال تعالى فيه : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، ^(١) ولم يرد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة التى قال أبو هريرة فيها « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحرام » ، ^(٢) . فهو إذاً من التوسلات المحدثه الباطلة التى نهى عنها سلف هذه الأمة ، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبى حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من سأل الله تعالى بحق فلان ، إذ لا حق لأحد على الله تعالى فيسأل به ، وإنما الله ذو فضل فيسأل من فضله كما قال تعالى : « واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً » ^(٣) إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال يدعى منهى عنه لا يعطى به فإيسأله بسؤال شرعى مأذون فيه ؛ يستجاب له به ، ويعطى مسأله ، وهو أن يقول : « اللهم إني أسألك بإيماني بك أو بنبيك ، أو بكتابك أو بحجتي لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضى حاجتي ، أو تفرج كربى ، أو تخلصنى من حنى ... ، أو يقول « اللهم أسألك وأتوجه إليك بحجتي ، واتباعى لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن تكشف ضرى . أو تقضى حاجتى أو تعطينى كذا أو كذا ، فإن هذا من التوسل المشروع الذى يعطى به الداعى ، ويستجاب له إذا توسل به ، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه . وهو مغن للؤمن عن التوسل بما لم يشرع في كتاب ولا سنة .

(١) سورة الانعام الآية (٣٨)

(٢) روى مسلم رحمه الله عن سلمان قال : « قيل له : علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحرام قال : فقال : أجل .. » ، (١٥٤/١)

(٣) سورة النساء الآية (٣٢) .

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة وهي :

١ — حديث الضرير ، ونصه كما رواه الترمذى وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به :

« أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني . قال : إن شئت دعوت لك ، وإن شئت صبرتَ فهو خير لك ، فقال أدعهُ . فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي . اللهم شفعه في . قال ففعل الرجل فبرأ ، ^(١) ووجه الشبهة في الحديث : أن يقول المرء : مادام الضرير قد علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة . . . الخ فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجي ؟

والجواب . أن نقول إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها ، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأحدنا اليوم ، وشفاعته لنا عند الله تعالى في قضاء حاجتنا ، وذلك لوفاته صلى الله عليه وسلم ، والتحاقه بالرفيق الأعلى . فلو قام أحدنا اليوم يقول : يا رسول الله ادع الله لي أن يقضى

حاجتى . لسان قوله باطلا وضلالا . ولا معنى له ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه ولا يراه . ولا يدعو الله تعالى له أبداً ، ولو قال أحدهما اليوم : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك . . . إلخ لكان كاذباً فى قوله ، لأنه لم يقدم بين يدى دعائه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو له ، حتى يقول لله تعالى اللهم إني أتوجه إليك بنبيك اللهم شفعه فى ، إنما يقول هذا من قام الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى له كما دعا للضرير .

ومن هناك لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للتوسل . وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به ، وبراً من مرضه ، أو فُضيت له حاجته ، فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ، إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر . كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً ، ويتشفع به فتقضى حاجته ، ويقول سيدى فلان قضى حاجتى ، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم ، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط ، لا أن السيد دعا له وأن الله تجالى قد استجاب له .

هذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو أن يتوضأ فيُحسّن الوضوء ، ويصلى ركعتين ، ويقول اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبى لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تقضى حاجتى ، ويسمى حاجته . فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له ، ويقضى حاجته .

ومن باب التحدث بنعمة الله تعالى أقول : إنه صادف يوم تبيض هذه الرسالة ووصولي فيها إلى هذا الموضوع من مواضعها : أن كنت بالدار البيضاء

من المغرب وفي آخر رمضان ورغبت في عمرة فيه ، وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة ففعل لي إنه غير ممكن . وإذا تأخرت عن هذه الرحلة ينتهي رمضان ولم أعتمر فيه كما كنت أعتزم وآمل ، فتوضأت وصليت ركعتين وقلت اللهم إني أسألك وأتوجه إليك يا إيمانى بنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحجتي له ، أن تيسر لي أمر سفرى على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتمر عمرة مبرورة في رمضان هذا .

وعدت إلى مكتب الشركة فوالله مارمت مكاني حتى قضيت حاجتى ، وتم حجزى والحمد لله رب العالمين ، ونفعنى الله تعالى بهذه الوسيلة المشروعة .

٢ - حديث استسقاء عمر بالعباس رضى الله عنهما ، ونصه كما فى البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا ففسقنا ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا فاسقنا ، قال : فيسقون ، (١) .

ووجه الشبهة فى هذا الحديث . أن يقال : مادام عمر رضى الله عنه قد قال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا ففسقنا ، وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم .

فلم لا تتوسل نحن اليوم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

والجواب عن هذه الشبهة : أن نقول إن توسلهم رضوان الله عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بطلبهم منه أن يدعو الله تعالى لهم بالغيث فيدعوا فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً . لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبي ، أو بجاهه صلى الله عليه وسلم فيقولون : اللهم إنا

توسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك ، والنبي غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم ، إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس رضى الله عنهما . وإنما كان يقول : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك فاسقنا ، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم ، ولما توفي صلى الله عليه وسلم لم يبق ليدعو لهم ، توسلوا بالعباس ليدعوا الله تعالى لهم فكان يدعو ، ويستجيب الله له فيسقون .

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات ، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا : اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان . لأن هذا كذب وباطل ، مادام الذى قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً ، لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم ، ولا يسمع طلبهم منه الدعاء ، ولا هو يدعو لهم ، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة؟؟؟

٣ - ماورد من لفظ : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، (١)

ووجه الشبهة أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إني أسألك بحق السائلين عليك ، فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك ، ونقول اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان؟؟

والجواب : أن نقول : إن الحديث الذى ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف ، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه . مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، مادل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان ، لأن معنى بحق السائلين عليك : اللهم

استجبت لي كما تستجيب للداعين ، لأنك قلت ادعوني أستجب لكم ، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه ، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل من سورة المؤمن : وقال ربكم ادعوني استجب لكم^(١) . أصبح لكل داع حق أن يطلب ربه بما وعده به لينجزه له ، فمن هنا لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعده :

« اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا » . فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهي الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته ، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته .

قلنا هذا من باب التنزل والفرض ، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه ، ولا إلى من يحتاج به ، شأنه شأن حديث قول آدم في الجنة لما اقترف الخطيئة : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي . . . الخ .

وحديث فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعد أن اضطجع في قبرها . « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع مدخلها بحق نبيك ، والأنبياء الذين قبلي فإنك أرحم الراحمين » . فإن هذه الأحاديث قد حكم أهل الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها أو يحتاج بها . وفيما صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم من التوسلات المشروعة كفاية . فلنأخذ ما صفا ، ولنترك ما كدر .

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم في أمور عظيمة من الباطل: معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة . فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى ، ويستغيث بغيره عز وجل ، ولا يحسب هذا دعاء لغير الله ، ولا يعده شركا في عبادته سبحانه وتعالى . وإذا قيل له في ذلك ، وأنكر عليه قال : هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك في عبادته ، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط .

ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة ، وبيان الحق فيها تعليلها وتحذيراً .

معنى الاستشفاع :

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد ، ومعناها لا يختلف وهو : أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي مُلك أو سلطان ليقضى له حاجته في إعطائه ما هو في حاجة إليه ، أو في التجاوز عنه في ذنب قارفه ، أو جريمة ارتكبها ، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذي هو خلاف الوتر - الفرد - وبيان ذلك أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة . وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أى اثنين بعد أن كان فرداً . من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة .

حكم الاستشفاع

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذي منصب أو مال ، أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه ، لنحو له أو قصوره . وذلك لقول الله تعالى من سورة النساء : من يشفع لغيره حسنه يكن له نصيب

منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفْل منها^(١) وكان الله على كل شيء مقبلاً ،^(٢) .

ويؤجر الشافع على شفاعته ، ولولم تقض حاجة من شفع له ، وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء »^(٤) .

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون في حق ضاع ، أو حق يخشى ضياعه ، أو في شيء مباح ينتفع به . أما أن يكون في إثم باسقاط حق من الحقوق ، أو تعطيل حد من الحدود فلا ، وذلك لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب »^(٥) ، ولقول الرسول ﷺ : « إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع »^(٦) .

قياس خاطئ :

وجهل كثير من المسلمين بهم عز وجل فلم يعرفوه ، ففاسوه سبحانه وتعالى على بعض عبادهم فاستشفعوا عنده بالاولياء والصالحين من أموات المسلمين ، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى ، فكانوا يقولون ياسيدى فلانا اشفع لى عند ربى فى قضاء كذا وكذا ويا مولاي فلانا توسلت

(١) السكفل هنا الوزر المترتب على الشفاعة السيئة .

(٢) حفيظاً شاهداً أو حسيباً قديراً (٣) الآية (٨٥)

(٤) رواه الشيخان الاثنا عشر والمرجان (٣/٢٠٢، ٢٠٣) (٥) والبخارى (٢/١٣٤) .

ومسلم (٢٧/٨) (٥) سورة المائدة الآية ٢ .

(٦) التعليل فى الشفاعة فى الحدود ثابت فى البخارى (٨/١٩٩) والحديث المذكور ذكره مالك عن ابن الزبير موقوفاً بلفظه « إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع » الموطأ (٣/٤٩، ٥٠) وهذا فى حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأى .

بك إلى ربي ، فادع الله لى يفعل بى كذا وكذا . ولما ينكر عليهم ذلك يقولون
إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة ؟؟

فجمعوا بذلك بين عظيمنتين : الأولى دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر ،
والثانية : قياس الخالق على المخلوق ، وتشبيهه به حيث طلبوا له واسطة كما
تطلب للمخلوق من ذوى السلطان ، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر
الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به ، ويدينه إليه ، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه
عليم بأحوال عبادہ ، لا يخفى عليه من أمرهم شيء ، فاهو فى حاجة إلى من
يعلمه بأحوال عبادہ ، أو ينبهه إليها ، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع
حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة
يشفع له برفع حاجته إلى من يقضيها له ، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف
تمام الاختلاف ، إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة
وبدون واسطة ، لعلمه تعالى بأحوال عبادہ وقربه منهم بخلاف المخلوقين فإنهم
لجهلهم بأحوال الناس ، وعجزهم عن كفاياتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى
واسطة ترفع حاجته إليهم ، ليعلموها ، وتؤثر عليهم ليقضوها ، وهذا المعنى
منتف مع الله تعالى تماماً . ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد
من خلقه . وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة ، وكيف وربه تعالى
يقول : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ،
فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (١) .

ويقول : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن
عبادتى سيدخلون جنهم داخرين » (٢) .

وإن قيل كيف جاز لنا إذا أن يقول بعضنا لبعض : يا فلان ادع الله
تعالى لى بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع
بالأولياء ؟ .

(١) سورة البقرة الآية (١٨٦)

(٢) سورة غافر الآية (٦٠)

قلنا : إن هذا ليس من ذاك أبداً ، وذلك لأمرين : أولهما : أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه ، إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله تعالى لهم . كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له فقال : « لا تلسنا يا أخى من دعائك » (١) ، وبه أصبح المسلمون لا يترددون في أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو الله تعالى له بخير . وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن في قوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » (٢) . إذ في القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض . وثانيهما : طلبنا الدعاء من عبد صالح حتى يسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يناولنا شيئاً ، أو يعطينا آخر ، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً ، أو يعطينا مالا أو متاعاً ، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا ، أفليس هذا جائزاً ؟ بلى وقطعاً ، وبدون شك . وإذا فأى مانع من أن نقول لمؤمن صالح حتى يصوم ، ويصلى . ويسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله لنا ، أى مانع أن تقول له : ادع الله تعالى لنا يا فلان بكذا أو اسأل الله تعالى لنا كذا أو كذا . رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا ، أو نحصل على خير من خيري الدنيا أو الآخرة .

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموال المسلمين من أولياء وصالحين ، إذ هم أموات ، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه ، ولا يعرف من يستشفع به ، فتداؤه وطلب الدعاء منه ، والاستشفاع به ضلال عقلي وخطأ فكري ، وفساد ديني ، يبرأ منه الإسلام وأمله ، وهذه أقل أحواله . وإلا فهو شرك في عبادة الله ، وفاعله من المشركين بالله . والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين .

(١) رواه أبو داود (١ / ٣٤٤) والترمذي (دعوات / ١٠٩)

(٢) سورة الحشر الآية (١٠) .

الشفاعة في الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة، والاستشفاع إنما كان في الشفاعة، والاستشفاع اللذين يتمان في هذه الحياة الدنيا . أما الشفاعة في الدار الآخرة فإنها تختلف - عنها في الدنيا اختلافا كبيرا وذلك لأن الأمر يومئذ كله لله ، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء كما قال تعالى : « وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله »^(١) . وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجري على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا وهذا بيانها :

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة الى قسمين : شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها ، ولا واقع ، ولا وجود ، وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود .

وللشفاعة المنفية صور منها :

١ - شفاعة الآلهة التي عُبِدَت من دون الله أو معه فهذه شفاعة (لا وجود لها البتة ، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ماسكا ، أو نبيا ، أو صالحا ، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين ، أو الحيوانات والجمادات ، وذلك لقول الله تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً »^(٢) .

ولأن من عبد غير الله تعالى مشرك كافر ، ولا شفاعة لكافر لقول الله تعالى « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »^(٣) .

(١) سورة الانفطار الايات (١٧ - ١٩) .

(٢) سورة الزمر الايتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٣) سورة المدثر الاية (٤٨) .

وقوله : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا سفعها شفاعاً ولا هم ينصرون » (١) وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين .

٢ — الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع ، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » (٢) .

وقوله : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٣) . وقوله : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (٤) .
والشفاعة المثبتة قسماً .

القسم الأول : شفاعات النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

والقسم الثانى : شفاعات غيره من الأنبياء ، والأولياء ، والصالحين من عباد الله تعالى ، فأما شفاعاته صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة منها : الشفاعة العظمى ، وهى الشفاعة فى فصل القضاء ، وهى المقام المحمود الذى ذكر له فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به فافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » (٥) .

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة فى الصحيحين فروى البخارى ومسلم واللفظ لمسلم عن أبى هريرة قوله : أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهس منها نهمسة (٦) فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ،

(١) سورة البقرة الآية (٤٨)

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥)

(٣) سورة الانبياء الآية (٢٨) .

(٤) سورة النجم الآية (٢٦) .

(٥) سورة الإسراء الآية (٧٩) .

(٦) نهس أى أكل منها بمقدم أسنانه .

وهل تدرون بما ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذ فيهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : اتوا آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي ، نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً عليه السلام ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة فدعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام

فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبي الله تعالى ، وخليه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي ، نفسي اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى .. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله تعالى برسالاته ، وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى عيسى .. فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمت الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا

إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن
 ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، وإن يغضب بعده مثله ، ولم
 يذكر له ذنباً ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ
 فيأتوننى ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك
 ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟
 ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى
 ثم يفتح الله تعالى على ، ويلهمنى من محامده . وحسن الثناء عليه شيئاً لم
 يفتح لأحد قبلى ، ثم قال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعط ، اشفع تشفع ،
 فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى ، فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك
 من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس
 فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفسى بيده إن ما بين المصرعين من
 مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى (١) .

ومن شفاعاته ﷺ : شفاعته فى أناس من أمة فيدخلون الجنة بغير
 حساب ، وقد تقدم دليلها آنفاً فى حديث الشفاعة العظمى حيث قال له
 الرب تعالى : « أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن »
 ومنها : شفاعته ﷺ فى أناس من أمة استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم
 فلا يدخلوا النار ، ومنها : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمة فيخرج منها
 بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه
 أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته
 وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . ففى نائلة إن شاء الله من
 مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً (٢) .

(١) اللؤلؤ والمرجان (٤٩/١ - ٥١) والبخارى (١٠٥/٦ - ١٠٧) ومسلم
 (١٢٧/١ - ١٢٩) .
 (٢) اللؤلؤ والمرجان (٥١/١) ، والبخارى (١٧٠/٩) ومسلم (١٣١/١) .

والقسم الثاني من الشفاعة المثبتة : شفاعة الملائكة ، والأنبياء ، والعلماء ،
والشهداء : فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى : « وكم من ملك في السموات
لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (١) .

وبقوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (٢)
وأما شفاعة الأنبياء ، والعلماء ، والشهداء فهي ثابتة بعموم القرآن ، وخصوص
السنة ، ففي القرآن الكريم يقول تعالى : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » (٣) .
ويقول وقوله الحق : « ولا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن
عهداً » (٤) .

ويقول : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (٥) . فهذه الآيات دالة
على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها .

وفي السنة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن ماجه والبيهقي
والبزار : « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، واسناده
حسن (٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)

(١) سورة النجم الآية (٢٦) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

(٣) سورة المدثر الآية (٤٨) .

(٤) سورة مريم الآية (٨٧) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٦) ابن ماجه (زهد / ٣٧) .

رواه أبوداود (١٧ / ٢) وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك ، (١) .

وآخر القول في هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء ، والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود فلا تتم الشفاعة لعمد من عباد الله تعالى إلا بعد توفرها له ، وتلك القيود هي : —

١ — أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له . وذلك لقوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ؟ والاستفهام هنا للثني أى لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى .

٢ — أن لا يشفع أحد في آخر إلا إذا كان الله تعالى قد رضى عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله . وذلك لقوله عز وجل « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » ، (٢) فانه صريح في نفى الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك .

٣ — أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر ، وذلك لحكم الله تعالى بخلود الكافرين والمشركين في النار بقوله : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » ، (٣) ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد في غير الله تعالى : فلا يطلب الشفاعة من أحد ، ولا يسألها من غير الله عز وجل ، إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شيء ، قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعاً » ، (٤) . وقال : « من ذا

(١) لما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه »... الحديث — متن مسلم (١٩٧ / ٢)

(٢) سورة الأنبياء. الآية (٢٨)

(٣) سورة البقرة الآية (٦)

(٤) سورة الزمر الآية (٤٤)

الذى يشفع عنده إلا بإذنه» (١).

ومن أراد شفاعته النبي ﷺ فليسألها من الله تعالى ، وليقل : اللهم شفّع في نبيك ، أو اللهم ارزقني شفاعته نبيك ، أو يارب اجعلني ممن تُشفع فيهم نبيك ، وليتبع سؤاله الشفاعته من الله تعالى بالعمل الموجب لها ، والمقتضى تحقيقها ، وهو يتلخص في ثلاثة أمور :

١ - الإخلاص لله تعالى في العبادة ، ونفي الشرك عنه تعالى في ربوبيته وأسمائه ، وصفاته ، وفي عبادته ، لحديث الصحيح : « مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ » (٢).

٢ - كثرة الصلاة ، لما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سأله أحد أصحابه مرافقته في الجنة فقال له : فأعني على نفسك بكثرة السجود ، « (٣) » .

٣ - الصلاة على النبي ﷺ . وسؤال الوسيلة له ، وذلك لحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ . فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، لَا تَبْغَى إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ . فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » (٤) .

(١) - سورة البقرة الآية (٢٥٥)

(٢) البخارى (١ / ٢٥)

(٣) مسلم (٢ / ٥٢) .

(٤) مسلم (٢ / ٤)

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها سبى فهمها ، وجنل الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين فى أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامى ، وأسله إلى الحياة الإسلامية إيما إساءة .

فباسم التبرك ، وتمت شعاره مُعبدت الأشجار والأحجار ، وانهكت الحرمات ، ورضيحت الفرائض ، وأسقطت الواجبات . كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى ، واستغث بغيره عز وجل .

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك فى هذه الامة أيام جهلها بكتاب ربها ، وسنة نبيها ، وبعدها عنهما إنما كان فى الغالب عن طريق التوسل ، والتشفع ، والتبرك ، ولهذا رأينا أنه مما ينبغى أن يبحث فى هذا المعتقد ، ليكون المسلم فيه على علم كامل ، وبينه تامة ، هذه الثلاثة : التوسل والاستشفاع والتبرك ، وقد بحثنا الأول والثانى ، وهانحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى فنقول :

التبرك

التبرك مصدر تبرك بالشئ . يتبرك به تبركا إذا تيمن به ، والتيمن بالشئ هو طلب اليُمن ، وهو البركة . والبركة هى النماء فى الخير والزيادة فيه . ويطلق لفظ البركة على كل كثرة فى الخير . واشتقاقها من برك البعير ، وهو استناخته فى موضع ، ولزومه فيه . فالخير الدائم الثابت فى الشئ ، والنامى فيه هو البركة .

والبركة فى عرف الدين : ما يجعله الله تعالى من الخير فى الشئ الذى

يباركه . فقد أخبر تعالى أنه بارك في أرض الشام أى جعلها مباركة^(١) وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً^(٢) ، والمعنى كثير خيرهما دائماً لهما ، ثابت فيهما ، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه في المهد أن الله تعالى جعله مباركا أينما كان . فقال : «وجعلنى مباركا أينما كنت» ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرأ بوالدتي ، ولم يجعلنى جباراً شقياً^(٣) .

ومن الأدعية الماثورة : «وبارك لى فيما أعطيتنى ، وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعا ، لأنه من طلب الخير والتماسه .

ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة الله ؟

ولكن بم يكون التبرك ، وكيف يكون ؟

أما بما يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما علم شرعا أن فيه بركة ، وأذن الشارع فى طلبها منه . والتماسها فيه ، وذلك كبيت الله الحرام ، وزمزم الذى قال فيه الرسول ﷺ : «ما زمزم طعام طعم ، وشفاء سقم»^(٤) .

وكالمساجد الثلاثة التى لا يشد الرحال إلا لها ، وككل المساجد التى بنيت باسم الله ، وتقام فيها عبادة الله من صلاة وغيرها ، وكالأراضى المقدسة من الحجاز والشام ، وكمجالس العلم والذكر ، وقراءة القرآن ، ومجالسة الصالحين ، ومراقبتهم فى أسفارهم ، وطلب دعائهم .

(١) فى قوله تعالى : ونجيناه ولو طأ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، سورة الانبياء الآية (٧١) .

(٢) فى قوله تعالى : «كتاب أنزلناه إليك مبارك ...» سورة ص الآية (٢٩) .

(٣) سورة مريم الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

(٤) روى مسلم «إنها مباركة لأنها طعام طعم» ، فى حديث فضائل أبى ذر

(١٥٢/٧ - ١٥٤) والريادة (شفاء سقم) لغيره .

واما كيف يكون التبرك :

فانه يكون إن كان بيت الله تعالى فزيارته للحج والعمرة ، وبالطواف به واستلام ركنيه ، والدعاء عنده ، والجلوس حوله ، وإن كان بزمزم فبالشرب منه ، والدعاء عند ذلك ، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها ، والاعتكاف بها ، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها ، والعبادة بها من ذكر وتسبيح ، وقراءة قرآن ، وطلب علم ، وإن كان بالأراضي المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة ، وكال أدب ، والحياة فيها ، والموت بها والدفن فيها ، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى فأخذ العلم عنهم ، وسماع نصائحهم ، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم ، والرغبة في الحصول على دعائهم .

هذا - وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به ، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماما للبحث حقائق هامة لا بد من بيانها في هذا البحث وهي :

١ - أن التبرك لم يعد كونه مشروعا ، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحبا لا غير .

٢ - إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدي إلى فعل مكروه ، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه ، ويتعين عدم فعله ، لأن درء المفسد مقدم على جلب المنافع ، ويشهد لهذا فعل عمر رضي الله عنه ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعا باتباع سببهم ، فإنه رضي الله عنه لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية في طريقهم إلى مكة في النزول تحت شجرة يبعة الرضوان للتبرك بها ، أمر بقطعها ، حسماً لمادة الفساد ، إذ لو تركت لعُبدت كما عبد غيرها من أشجار كثيره باسم التبرك ، وفي كل زمان ، ومكان من عهد نوح إلى ساعتنا هذه .

٣ - إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرجال إلى زياره قبر

فلان وفلان ، أو ضريح فلان من سيّد أو صالح ، وإقامة الحفلات حولها ، والنزول بساحتها ، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك ، كل هذا باطل منهي عنه ، ولم يشرع فعله للمسلمين ، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع ، وقد أدى إلى الشرك والعباد بالله ، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة ، وكما ترى حولها من مسجير بها ، وداع ضارع لها ، وبكاء خاشع لها ، وكما تجد من ذاعان البقر والغنم تساق إليها ، وتذبح قرباناً لها ، كل ذلك تحت شعار التبرك ، وعنوان التوسل والتشفع ، ألا فلا تبرك ، ولا توسل ، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر .

٤ — إن العبد الصالح الذي تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به ، وبارشاده ، وتوجيهه ، ونصائحه ، وبالتالي بدعائه ، هذا العبد الصالح ينبغي أن يكون من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى ، وإلا فلا تُشرع زيارته ، ولا التبرك به لعدم وجود البركة في غير أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى .

٥ — إذا كان الرجل يدعى الولاية ، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها ، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة ، من جاه ، أو مال ، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدينيّة ، فإن مثل هذا الرجل دجالي لا بركة عنده ، ولا خير فيه ، فلا تحل زيارته ، ولا مجالسته ، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به ، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهي العلم ، والإيمان والتقوى .

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة يبحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة. إذ الولاية ولايتان، ولاية للرحمن، وولاية للشيطان، والكرامة منها ما هو كرامة بحق يُكرم الله تعالى بها أوليائه من صالحى عباده، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتحان. وعندئذ التمييز بين كرامة المؤمن، ومهانة الشيطان، يوقع فى أخطاء قد تؤدى بكثير من المؤمنين إلى اعتقاد الباطل، والعمل به.

ومن هنا كان لا بد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها، ليكون المؤمن على بصيرة كاملة فى مُعتقدِه الذى هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذى تتوقف عليه سعاده فى الدنيا والآخرة معاً.

ولنبداً بحث هذه المسألة بالسؤال التالى :

ماهى الولاية ؟ :

الولاية فى عرف اللغة مصدر ولى الشيء بليه ولياً وولاية^(١) إذا دنا منه وقرب أو أقام به، وملك أمره، أو نصره وأحبه — ويصاغ من فعل ولى المفاعلة فيقال : والاه بواله موالاة إذا صادقه وناصره فهو موال له ضد مُعاد له . كما يصاغ التولية فيقال : تولاه تولية إذا صار له ولياً . ومنه اشتق لفظ الولى الذى هو ضد العدو .

هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيراً فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب، والنصرة، والقيام بالأمر لصالح

(١) قال فى مختار الصحاح ولىه بليه بالكسر فيهما وهو شاذ .

الولى ، وضد الولاية العداوة، وهى تدور على البعد ، والبغض ، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادى، على عكس الولاية. وبناء على هذا فولاية الله تعالى للعبد : أن يهديه إلى الإيمان به ، وإلى معرفته ، وطاعته ومحبته ، ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك ، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه ، فإذا أحبه قرب به ، وتولى أموره ، ونصره ، وحفظه ، فكان بذلك وليه . كما قال تعالى من سورة البقرة : « الله ولى الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » (١) .

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به ، ويتقيه ، ويتقرب إليه بطاعته ، ويوافقته في محابه . ومكارهه ، ويوالى من يوالى ، ويعادى من يعادى وينصر دينه وأوليائه ، وبذلك يكون وليا لله تعالى ، قال تعالى من سورة يونس : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ، لا تبدل لكلمات الله وذلك هو الفوز العظيم » (٢) .

الحال الجامعة :

وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى والولى الحميد ، وبين العبد المؤمن . التقي هى الموافقة فى الحب والبغض ، والقرب (٣) ، والمناصرة والموالاتة ، والمعاداة .

ومن هذا يستخلص أصل الولاية وشرطها ، فأصلها الإيمان والتقوى ،

(١) الآية (٢٥٧)

(٢) الآيات (٦٢ - ٦٤)

(٣) يشهد لهذا حديث الصحيحين القدسي « وإن تقرب إلى بشر تقربت إليه ذراعاً ، الحديث الأولو والمرجان (٢٢٣/٣) والبخارى (١٤٧/٩ ، ١٤٨) ومسلم (٨ / ٦٧ ، ٦٨) .

وشرطها الموافقة التامة في الحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به ، ودعا إليه من أصول العقائد ، والعبادات ، والآداب ، والأخلاق ، متابعة يتجرد فيها العبد لله ، ويخلص له فيها ، إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ ، وذلك لقوله تعالى من سورة آل عمران « قل إن كنتم تحبون الله ، فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » (١) . وهذا لأن المتابعة هي سبيل طهارة الروح ، وزكاة النفس ، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، مع البعد عن الشرك ، والمعاصي كان أهلا لحب الله تعالى ، وموالاته عز وجل .

الفرق بين الولايتين

إن هنالك فرقا بين ولاية الله تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد لله عز وجل .
نحب ملاحظته ، وهو أن الله تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد ، واحتياج إليه ،
وإنما يوالى إكراماً للعبد ، وإنعاماً عليه ، لغناه تعالى عن كل ما سواه ،
واقترار كل ما عداه إليه تعالى ، وهذا من معاني اسمه (الصمد) وقد نفي الله
تعالى في كتابه العزيز من سورة الإسراء ، نفي أن يكون له ولى من الدن ، فقال
تعالى : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ،
ولم يكن له ولى من الدن ، وكبره تكبيراً » (١)

وأما العبد فإنه يوالى — إن وفقه الله تعالى — يوالى لفقره وحاجته إلى
ربه ، إذ هو دائماً فى حاجة إلى نصره ربه ومعوته ، ومحبه ورضاه ، وإدناؤه
منه ، وتقريبه إليه ، إذ لا يسعد العبد إلا فى جوار مولاه ، ولا ينعم إلا إذا
تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً منه رضوانه . فالمنة إذاً لله تعالى على
موالاته لعبده وقبوله له ولها ، وأما العبد فلا منة له بحال ، وليس له أن يُبدل
على الله تعالى . ولو أذاب نفسه فى طاعة الله ، وأوقف كل حياته عليه ، وحتى
لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد للرب
سبحانه وتعالى فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة .

الولى

إننا بعد معرفتنا للولاية سببها علينا - إن شاء الله - معرفة الولى .
 أن لفظ الولى وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره ، المولى له ،
 ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يوالىه غيره ويتولاه . فآله تبارك وتعالى وهو
 الولى الحميد ، ولّى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان ، ووقفه للطاعة ، وأدناه
 منه ، وقربه إليه ، وأحبه ، ونصره فهو مولاه ووليه .

قال تعالى : هـ أن ولّى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين (١) .
 والمؤمن ولّى الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه وبمعنى أن المؤمن والى
 الله تعالى فأمن به . واتقاه وأحبه . وأطاعه . ووافقته فى محابه ومسخاطه ،
 فوالى من يوالى . وعادى من يعادى . وأحب ما أحب ومن أحب ، وكره
 ما كره ومن كره ، فكان بذلك عبده ووليه قال تعالى فى إثبات هذه الولاية
 وذكر كرامتها : هـ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين
 آمنوا . وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبدل
 لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ، (٢) .

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً فى بحث الولاية فإزداد وضوحاً وتقريراً ،
 وبالجملة فإن ولّى الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته فأمن
 به واتقاه . وتقرب إليه بالصالحات ووافقته فيما يحب وما يكره من النوات
 والصفات ، ووالى من يوالى ، وعادى من يعادى ، فوالاه الله تعالى لذلك .
 وتولاه ، وأكرمه بكرامات . فكان إذا دعاه استجاب له . وإن استعاضه
 أعاضه . وإن سأله أعطاه .

(الكرامة)

ما هي الكرامة ؟

الكرامة : الاسم من كَرُم ، والجمع كرامات ، وهي ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات ، وهي عامة وخاصة . فالعامة هي ما كَرَّم الله به بنى آدم ، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية ، ومن ذلك اعتدال القامة ، والخلق في أحسن تقويم ، والعقل ، والمنطق ، وتدبير المعاش وإصلاحه ، وتسخير الكون لهم ، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام ، قال تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١) .

والخاصة وهي أفضلها : ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان ، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات ، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون في قول الله تعالى : « وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين » (٢) وفي قوله : « أما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » (٣) . وهم المقصدون المذكورون في قوله تعالى : « ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » (٤) ، وهم المبشرون بالجنة في قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

(١) سورة الاسراء الآية (٧٠) . (٢) سورة الواقعة الآية (٢٧) .

(٣) سورة الواقعة الايات (٩٠ ، ٩١) . (٤) سورة فاطر الآية (٣٢) .

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، (١) .

وأخص من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة ، ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى ، من الورع والتقيل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة ، وصدقات ، ورباط وجهاد ، وصيام ، وحج . وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم : ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين » ، (٢) . وفي قوله تعالى : « فنفهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ياذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير » ، (٣) وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخارى : « من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيدنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ، ولا بد له منه » ، (٣) فهو لا فى أعلى مرتبة من مراتب الولاية ، إذ يعرفون باستقامتهم ، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون ، فلو سألوه زوال جبل لزال ، ولو أفسهوا عليه تعالى لأبرههم ، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات ككثير القليل ، وشفاء العليل ، وكإكساب المعدوم ، والإنقاذ من الهلاك المحتوم .

(١) سورة الأحقاف الآيتان (١٣ ، ١٤)

(٢) سورة الواقعة الآيات (١٠ - ١٤)

(٣) سورة فاطر الآيتان (٣٢ - ٣٣)

(٤) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب التواضع (١٣١/٨) . إلا أنه ليس

فيه (ولا بد له منه) .

مراتب الأولياء

وبناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب : عليا وعالية ، ودنيا ووسطى .
فالعليا : هى مرتبة الأنبياء والمرسلين ، وكراماتهم يهرفونها لله تعالى
الذى من بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس .

والعالية : وهى مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام
وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم فى تسمى الدرجات ، وعلو
المنازل .

والوسطى : وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين ،
ودنيا : وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى ، وهم
الظالمون لأنفسهم ، المذكورون فى قول الله تعالى من سورة فاطر : ثم
أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ،
ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ، جنات عدن
يدخلونها يحاون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير .
وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا
دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ، (١) .

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من
الناس وهم الظالمون لأنفسهم ، والمقتصدون ، والسابقون بالخيرات ،
وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب
ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، فدل ذلك على أن أهل الضعف فى الإيمان

(١) سورة فاطر الآيات (٣٢ - ٣٥) .

والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى ، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات ، غير أن درجاتهم دون درجة السابقين ، ولم تصل إلى درجة المقتصدين ، فهم في منزلة دون ، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم (١) .

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها ، متفاوتون في العدد قلة وكثرة ، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية ، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى ، وأهل الوسطى أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه .

تقريرات

الأول : أنه لا تتم ولاية عبد لله تعالى ، ولا ينتظم في سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح ، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

الثاني : أن الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى ، وعلو منزلتهم عنده وفي كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم ، وكال موافقتهم لربهم ، ونبيهم فيما يحببان ويكرهان .

الثالث : أن الكرامات وهي الأمور الخارقة (٢) للعادة التي يظهرها

(١) لعل قائلًا يقول ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم ؟
نقول : إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له ؛ ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة .

(٢) هذا النوع الذي يطلقونه على الكرامة ؛ ويقولون إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدي ودعوى النبوة .

الله تعالى على يد بعض أوليائه ، ليست شرطاً في ثبوت الولاية ، ولا في نفيها
ولما كانت مُتنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه ، لأنها بمثابة
تعجل الجزاء على الإيمان والتقوى في الدنيا ، كان بعض الأولياء يتوبون منها
إلى الله تعالى ، ويستغفرونه لأجلها .

• الرابع : الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لاعصمة لهم ، فقد يُخطئون
ويغلطون ، غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ،
ويخل بمقامها ، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على
الفور ، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها ، فيسلم بذلك مقامهم من
التداعي والسقوط ، ومنزلتهم من النزول والهبوط .

الخامس : إننا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نصف كل
مؤمن تقي بالولاية ، فنقول : فلان ولي من أولياء الله تعالى أو نقول فلان
ولي ، ونكرمه لذلك ، ونتحاشى أذيته لحديث أبي هريرة في البخارى عن
النبي ﷺ عن الله تعالى من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ... الحديث (١)
ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة
الدعوى .

السادس : جهل المسلمين بحقيقة الولاية ، وبمعرفة الولي جعلهم
لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا
إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات ، أو مات وشيد له ضريح ، أو بنيت
على قبره قبة ، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولي من أولياء
بلده لا يدلّه على مؤمن تقي يعيش بين الناس وإنما يدلّه على ميت له ضريح

(١) ذكر بتمامه في باب الكرامة فليرجع له.

أو على قبره قبوا وان كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه ، ويصح حكمه عليه .

السابع : لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه في قوله من سورة الرعد ، قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ؟ ، (١) .

فلا يحل للمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل ، فيلجأ إليه في الشدائد ، ويستغيث به عند المخاوف ، ويستعيز به من المسكاره ، أو يعبده ويتوكل عليه ، ويوالى فيه ويعادى فيه ، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله ، وهو شرك وكفر والعياذ بالله .

أولياء الشيطان وموالائهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم ، كتاب الله رب العالمين ، وحسبنا بالقرآن شاهداً ودليلاً ، قال تعالى في سورة الأنعام : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » (١) . وقال تعالى من السورة نفسها : « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » (٢) وقال تعالى من سورة الأعراف : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » (٣) .

والسؤال الآن هو : كيف تتم الموالاة بين الفريقين ؟

والجواب : أنها تتم حسب سنة الله تعالى في اتحاد المتجانسات ، وتلاقى التشابهات وانجذاب كل شيء إلى شبيهه ، ومن هنا كان إذا خبث الإنسان نتيجة توغله في الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة في معاصي الله تعالى ومعاصي رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن ، والتفاعل معهم ، وتوليهم وتبادل المنافع معهم ، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده وإيقاعه في الشرور والمفاسد ، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن ، فإن شياطين الجن يخمنون إخوانهم وأولياءهم من الإنس ، فيطلعونهم على بعض المغيبات التي أمكنهم الاطلاع عليها ، ومعرفتها ، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة ، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد ، كما قد يجمعون لهم بين شخصين متباعدين ، أو متقاطعين ، وقد يظهرون لهم أشخاصاً ، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كائى يظهرها الله تعالى على أيدي أوليائه كرامة لهم .

(١) الآية (١٢٨)

(٢) الآية (١١٢) .

(٣) الآية (٣٠) .

الركن الثاني من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالملائكة

مقدمة :

قبل البحث في هذا الركن من أركان العقيدة نقدم بيان الحقائق الثلاث التالية :

الأولى : أن الكون كله ينقسم إلى غيب ، وشهادة

فالغيب : ما غاب عن الموجودات عن أعين الناظرين ، وإن كانت حقيقة مضملة في صدورهم ، لا تغيب عن خواطرهم ، وذلك كسكنى الموجودات الأرضية والسموية .

والشهادة : خلاف الغيب وهي كل ما كان من الموجودات أمام نظر الإنسان يشاهده ويراه ، أو كان بحيث يدركه بإحدى حواسه التي هي السمع ، والبصر ، واللمس ، والذوق .

الثانية : أن الإنسان بحسب طبيعة الحياة مقدر له الإيمان بالغيب : مفروض عليه ، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللهم إلا إذا سَفِهَ نفسه ، وأراد التخلي عن كرامته الأدمية ، وعن شرفه الإنساني : ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعى لها ، ولا إدراك !!!

وذلك لأن الإنسان كائن متحيز متى وُجد في مكان استحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائه في مكانه الذي هو فيه . ومن هنا تصبح سائر الإمكانيات التي تخلو منه بجده عنها غيباً له . وليست بشهادة عنده ، ولا بد له من أن يؤمن

بها ، وبما فيها من أشياء جواهر وأعراض ، متى وجدت آثار تدل على ذلك ، أو أخبار صادقة تنبئ به .

ثم إن حواس الإنسان التي يحصل له العلم بها محدودة القوة محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه . فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية فإذا انخفضت إلى درجة معينة تغذر عليه أن يسمع ، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة فإذا صغرت ودقت ، وبلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفت انقطع إحساسه بها . وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيا عن تصورهما تماماً .

ومن هنا كان لا بد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها ، بأية حاسة من حواسه ، ولم يدرك حتى تصورهما بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً ، ولقيمته البشرية قدراً من الاحترام والتقدير !!

وكيف تنكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد ، ويصدق بوجودها وهو لم يرها ، ولم ير من رآها قط .

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجوده . هذا الحيوان الذي لم يره ، ولم ير من رآه أبداً . ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يرى ولا يشاهد أبداً .

ونجد رابعاً ولد ولم يعرف والده لموته قبل ولادته ، وهو يؤمن بأن له والداً ، ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه

لا يؤمن بالغيب ، أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون الإيمان بالغيب .

الثالثة : أن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معاً ، فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية ، وبالحواس يدرك سائر الماديات من مرقق ، ومسموع ، ومحسوس ، ومشموم ، ومطعموم . فبالعقل أدرك فضيلة الصدق ، ورذيلة الكذب . وبالعقل أدرك المستحيلات : ككون الشيء إذا وجد في مكان لا يوجد في غيره ، والتواجبات ككون الجسم لا بد له من خير يشغله ، وككون المصنوع لا بد له من صانع . والجائزات ككون المريض قد يشقى وقد لا يشقى ، والغائب قد يعود وقد لا يعود .

وبحاسة البصر أدرك المراتب : أطوالها ، وأعراضها ، وصفاتها .

وبالسمع أدرك الأصوات ، وفرق بينها ، وأدرك الأخبار ومدلولاتها ، وبالذوق أدرك سائر الطعوم ، وعرف خلوها ومرها ، وحامضها وساجها ، وبالشم أدرك سائر الروائح طيبها وكرهها . وباللمس أدرك الأجسام وفرق بين خشنها وناعمها ، وحارها وباردها .

هذه هي طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه (العقل والحواس) وهو مستعد دائماً للحصول على المعارف بواسطة إن الإنسان يتعقل الشيء ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات ، أو بالنفي ، بالوجوب ، أو الاستحالة أو الجواز ، وينظر إلى الشيء فيحكم عليه بالطول ، أو القصر ، باليأس أو العود ، ويسمع الصوت فيحكم بأن المسموع صوت كذا أو كذا ... الخ .

وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات بقسميها : الغيب والشهادة بواسطة العقل والحواس ، بيد أن ما كان من الموجودات غيباً

محضاً فإن طريق الحصول على معرفته ، والإيمان به هو السماع به ، أو مشاهدته ، آثاره الدالة عليه .

فالمرء إذا أخبره أحد أن فلان مات ، أو سافر ، أو قدم من سفر ، وكان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر ، أو قدوم منه ، حصل له بواسطة الخبر الذى تلقاه عن غيره من عقلاء الناس ، والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولا تجري ، وشعابا طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل بتلك الأرض ، وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أخذ ، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشجاب . وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشتم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطارا ، أو أشجارا من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينه ، ولم يخبره به أحد من الناس . وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التى آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها .

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولا ، ومطلباً سهلاً ميسورا ، فالملائكة وإن كانوا غيباً ، فقد دل على وجودهم الدليل الذى ثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان ، والذى هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات . ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول :

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدق في خبره ، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن به فى الصوت ، ويصدق بوجوده كأنه رآه وشاهده ؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيًا قد وضع فى غرفة فيعلم أن هناك أحداً قد وضع هذا الكرسي وأعدّه للجلوس عليه وإن لم ير من فعل ذلك ؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحداً أُملي هذا الكتاب وأن آله قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها من طريق الخبر أو الأثر ، وهما الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب . ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم ونقرر أن وجودهم يقينى ، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها . أما الذين كفروا برهم ، وتكفروا لعقوبهم وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم فأصبحوا لا يؤمنون بشئ حتى بوجودهم فإننا لا نقيم لهم وزناً آمنوا أو كفروا صدقوا أو كذبوا .

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام وهو الدليل الذى قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة ، والدليل كما سبق أن عرفناه ، يتكون من عنصرين : الأول الأخبار والثانى الآثار .

الأخبار

أولاً : أخبار الله تعالى ، رب العالمين ، وخالق الملائكة ، والجن ، والناس أجمعين ، وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً ، إذ الخالق أعلم بما خلق . ومن أخباره تعالى قوله : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (١) فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ، ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى ، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة . وقوله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (٢) . ففى هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود

(١) سورة البقرة الآية (٣٠)

(٢) سورة البقرة الآية (٣٤)

لآدم ، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى ، وهل يؤمر ويمثل غير موجود ؟

وقوله تعالى : لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ،^(١) . ففى هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستكفون من عبادة الله ولا يستكبرون ، وهل يستكف ويتكبر غير موجود ؟ وقوله تعالى : وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إباناً أشهدوا خلقهم ،^(٢) وفى هذا الخبر ينكر تعالى ، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم ، فهل يعقل أن يُغاب أو ينكر على غير موجود ؟

وقوله تعالى : وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويمرّضى ،^(٣) ، ففى هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عن أحد شيئاً ، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟ وأخيراً ففى هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهى كثيرة جداً ، وكلها تتحدث عن صفاتهم ، وأحوالهم ، وعباداتهم ، وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة ، دلالة تُكسب اليقين ، اللهم بلى .

ثانياً : أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحديثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وتلقيهم الوحي بواسطةهم وهى كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد عليه الصلاة والسلام فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة ،^(٤) . وقوله : إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ،^(٥) وقوله : إن لله فى الأرض

(١) سورة النساء الآية (١٧٢)

(٢) سورة الزخرف الآية (١٩)

(٣) سورة النجم الآية (٢٦)

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم . الثؤلو . والمرجان (٣٩/٣) مسلم (١٥٧/٦) .

والبخارى (١٣٨/٤) .

(٥) رواه مسلم (٨٠/٢) .

ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام (١) وقال : « إذا أمتن الإمام فأمنوا فإن الملائكة تؤمن ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » (٢) وكان يقول في دعائه : « اللهم رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (٣) . كما أخبر ﷺ ، وتحدث عن ملك الموت وأعوانه ، وعن الروح ، وعن ملكي القبر ، وعن الجفظة ، والكرام السكاتيين ، وعن وضوان خازن الجنان ، وعن مالك خازن النيران ، وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة ، فكيف يسوغ عقلا ، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية ، وهي أصح خبر في الوجود ، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم .. اللهم لا ؟!

الآثار :

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً نكتفي بطرف منها فنقول : هذا القرآن الكريم كتاب الله بين أيدينا سورة عديدة ، وآياته الكثيرة ، وعلومه ، ومعارفه ، وإعجازه أثر من آثار الملائكة إذ تلقاه المنزل عليه ﷺ بواسطة ، ولم يكن من الله مباشرة فها هي الوسطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله ، ومنزله في قوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » (٤) . وهذا ملك

(١) إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح وقد أخرجه أحمد والنسائي وابن خبان ... فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من تعليق الألباني الطبعة الثانية ص (٣٦) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم - الأثر والمراجع (٨٣/١) مسلم (١٧/٢) والبخاري (١٨٧/١) .

(٣) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (١٨٥/٢)

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٩٢ - ١٩٥) .

الموت الذى يتخطفنا يومياً فيأخذ أرواحنا ، ويُنهى بأخذها حياتنا ، ويفصلها عن أجسامنا ، فَنُعدم الحياة ، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له ؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنسك ؟ اللهم لا . ولو سألنا خالقنا وقلنا من يتوفانا ؟ لكان الجواب « قل يتوفاكم ملك الموت الذى مُكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » ، (١) .

ثم إن كلا من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة وهما من أعظم الملائكة فجبريل قد دخل مرة المسجد وعشرات المصلين حاضرون ، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس فجلس إليه ، وأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع يديه على فخذه ، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه ، فسأله عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، وأشرط الساعة ، وكان ساعته في صورة رجل (٢) . كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه ، فكلم من مريض تحدث بذلك ، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت .

الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية :

وبعد : فانه لم يبق بنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن فنقول : لقد ذكر الله تعالى أركان العقيدة الإسلامية في عدة آيات من كتابه ، وذكر من بينها عقيدة الإيمان بالملائكة وذلك في قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين » ، (٣) .

(١) سورة السجدة الآية (١١) .

(٢) هذا الحديث الذى ذكر إجمالاً رواه مسلم (٢٨/١ - ٢٩) ورواه البخارى بمعناه (١٤٤/٦) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧) .

وفي قوله «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ،» (١) .

وفي قوله : «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً» ، (٢) . كما ذكر الرسول ﷺ في حديث عمر المعروف بحديث جبريل أركان الإيمان الستة وذكر من بينها الإيمان بالملائكة وأقره جبريل على ذلك ، وصدقه إذ كان هو السائل له في محضر مئات الصحابة وهو في صورة رجل وبعد انصرافه أعلن الرسول ﷺ لأصحابه أن السائل كان جبريل عليه السلام ، (٣) .

وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم إلا به ، وكان من شك فيه ، أو حاول التشكيك كاذباً كافراً لا حظ له في الإسلام ، ولا لمقام له بين المسلمين ، لتكذيبه لله ، ورسوله والمؤمنين ولإنكاره لقضايا العقول ، ومسلّماتها البديهية .

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٨) .

(٢) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة (١٨٩) .

خلق الملائكة

تعريف

الملائكة : جمع ملائكة ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حذفت الألف تخفيفا فصارت ملكا ؛ وهو مشتق من كلمة الألوكه التي هي الرسالة ، والجمع ملائكة وملائكة .

مادة خلق الملائكة :

الملائكة خلق عظيم ، وعددهم كثير لا يأتي عليه العدد ، ولا يحصى من دون الله أحد ، خلقهم الله من النور ، وطبعهم على الخير ، فهم لا يعرفون الشر ، ولا يأمرؤن به ، ولا يأتونه ، ولا يفعلونه .

فلذا هم لربهم مطيعون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يسأمون من عبادة الله ولا هم عنها يستكبرون ، أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم ، فقال « خاقت الملائكة من نور ، وخلق ألجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، (١)

(١) إشارة إلى قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ، سورة آل عمران الآية (٥٩) وإلى قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » ، سورة الحجر الآية (٢٦) والحديث رواه مسلم (٢٢٧/٨) .

تفاضل الملائكة

والملائكة يتفاضلون في القُرب من الله تعالى : وعلو المنزلة كالْبشر أَوْهَمَ أكبر تفاضلاً ، إن منهم الملائكة المقربين لقوله تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون » ^(١) ومنهم حمله العرش لقوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ^(٢) . ومنهم الكترُيون ، ومنهم غير ذلك ، وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ملك الموت ، وأعظمهم الروح عليهم السلام أجمعين .

أعمال الملائكة

إن ما يقوم به الملائكة من أعمال لكثير جداً ، ومختلف متنوع إلى حد كبير ، وهذا بيان مجمل عما جاء في القرآن للكريم ، والسنة النبوية الشريفة من وظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة : —

١ — جبريل عليه السلام ، ويسمى روح القدس أيضاً ، وصفه الله عز وجل بالقوة والأمانة في قوله تعالى من سورة التكوين « إنه لقول رسول كريم ذي قوة ، عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين » ^(٣) . وخصه بأشرف وظائفه ، وهى السفارة بينه تعالى ، وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحي كما قال تعالى « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ،

(١) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .

(٣) الآيات (١٩ — ٢١) .

على قلبك لتكون من المنذرين ، (١) ، وصح عن النبي ﷺ أنه رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود وهي إسرائ النبي ﷺ ومعراجة ، فرافقه عليه السلام من مكة إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى سدة المنهى بالملكوت الأعلى (٢) .

٢ - ميكائيل : ووظيفته التي وكله الله بها المطر والنبات .

٣ - إسرئيل : ووظيفته التي وكل بها النفخ في الصور يوم القيامة .

٤ - ملك الموت عزرائيل : وهو موكل بقبض الأرواح ، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (٣) .

٥ - أعوان ملك الموت وهم صنفان : ملائكة رحمة ، وملائكة عذاب وهم مع ملك الموت ، المقصودون بقوله تعالى : « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

٦ - حملة العرش : عرش الرحمن عز وجل وهم أربعة ، وإذا جاء يوم القيامة أضيف إليهم أربعة آخرون ، لقوله تعالى : « الذين يحملون العرش ، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا » (٤) ، ولقوله تعالى « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٥) .

(١) سورة الشعراء الايات ١٩٢ - ١٩٤

(٢) قصة الإسرائ والمعراج ثابتة في الصحيحين ، راجع للؤلؤ والمرجان (٣٥/١ - ٣٩) . والبخارى (٩٢/١ - ٩٤) ومسلم (٩٩/١ - ١٠١) ، وقد ثبت قبل ذلك بالقرآن وفيه سورة باسم الإسرائ ، وسيأتى تفصيل في (الوحي الإلهمي وطرقه) فيما سيأتى من موضوعات الكتاب - إن شاء الله تعالى .

(٣) سورة الأنعام الاية (٦١) .

(٤) سورة غافر الاية (٧) (٥) سورة الحاقة الاية (١٧)

(١٣ - عقيدة)

٧ - رضوان وعمله الذى وكل به خزانة الجنان ، فهو خازن الجنة ورئيس الخدم بها .

٨ - خديم الجنة : وهم ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (١) . وورد أن للواحد من أهل الجنة خدماً لا يقاؤون عن ثمانين ألف خادم ، وظيفتهم : خدمة أهل الجنة (٢) .

٩ - الزبانية وهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله تعالى بالنار ، فهم خزائنها يعذبون فيها أهلها قال تعالى : « سأصليه سقر » ، وما أدراك ما سقر ؟ لا نبقى ولا نندر ، لواحة للبشر عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، (٣) . ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى مالكا . قال تعالى فى الحديث عن أهل النار « ونادوا : يا مالكا ليقتضى علينا ربك ، قال إنكم ما كنون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » (٤) .

١٠ - الكرام الكاتبون وعملهم كتابة أعمال البشر ، وإحصاؤها عليهم ، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله ، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله . قال تعالى : « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » (٥)

(١) سورة الرعد (٢٣ ، ٢٤)

(٢) روى الترمذى حديثاً فى هذا المعنى ولكن فى استاده كلام .

(٣) سورة المدثر الايات (٢٦ - ٣١)

(٤) سورة الزخرف الايتان (٧٧ ، ٧٨)

(٥) سورة الانفطار الايات (٩ - ١٢)

وفي الصحيح : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبتزق أمامه فإنه ينجس الله تعالى مادام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملسكا ليصق عن يساره ، أو تحت قدمه ، (١) .

١١ - الحفظة وعملهم حفظ الإنسان من الجن ، والشيطان ، والعاهات والآفات قال تعالى : « له مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » (٢) قال ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير الآية : « ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال (٣) . مجاهد : يحفظونه في نومه ويقظته من الجن والإنس ، والهوام ، (٤) .

١٢ - الملك الموكل بالرحم لحديث البخارى ومسلم واللفظ له « إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال : قال الملك أى رب ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه ، (٥) .

١٣ - ملك الجبال وهو ملك وكله الله بالجبال لحديث البخارى ومسلم : « فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ فقال يا محمد ذلك فيما شئت أن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ... الحديث ، (٥) .

(١) وان قيل كيف يبصق عن يساره وكاتب السيئات عن يساره ؟ قيل إن الثوم في الصلاة لا يفعل سوا قط فلذا ينضم كاتب السيئات إلى كاتب الحسنات إذ الصلاة هى أم الحسنات ولا سيئة فيها ، والحديث رواه الشيخان بلفظ قريب من هذا - التلوي والمرجان - (١١١/١)

(٢) سورة الرعد الآية (١١)

(٣) تفسير ابن كثير طبعة الحلبي (٥٠٣/٢)

(٤) التلوي والمرجان (٢٠٨/٣) والبخارى (٨٣/١) ومسلم (٤٦/٨)

(٥) التلوي والمرجان (٢٢٨/٢٢٧/٢)

١٤ - الملائكة السباحون وهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ لحديث أحمد وهو صحيح الإسناد « إن لله في الأرض ملائكة سباحين يبلغوني عن أمتي السلام » (١) .

١٥ - ملائكة الدعاء ، وعملهم الذي وكوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك : « آمين ولك بمثل ذلك » ، ولحديث مسلم : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل » (٢) .

١٦ - ملائكة العروج بأرواح العباد بعد الموت لحديث مسلم « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدانها قال حماد (راوى الحديث) فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى ما كنت تعميرنه ، فينطلق به إلى ربه ، عز وجل ثم يقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . . . وذكر للكاثر عكس ذلك » (٣) .

١٧ - منكر ونكير : وعملهما سؤال العباد في قبورهم عن الرب تعالى ، والدين ، والنبي ﷺ أى يقولان له : من ربك ، ما دينك ، ومن نبيك ؟ لحديث الترمذى وهو حسن الإسناد وأصله في الصحاح وفيه « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله

(١) وأخرجه النسائي وابن حبان ، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص ٣٦)

(٢) معناه لمسلم (٨ / ٨٦)

(٣) مسلم (٨ / ١٦٢)

فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : ثم فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان : ثم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان مناققا : قال : سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله . لا أدري ، فيقولون : قد علمنا أنك تقول ذلك ، فيقال للارض انشعي عليه فلتتم عليه ، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، (١) .

هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى : والصافات ، والزاجرات ، والفاتيات ، والنازعات ، والناشطات ، فالمدبرات ، فالمقسمات ، لقائنا في صدق إن السكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تديره بالملائكة ، وذلك بإذن ربهم تعالى ، ويضاف الى ذلك أن النبي ﷺ قال : أظت السماء وحق لها أن تظ ، مامن موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى ، (٢) .

-
- (١) رواه الترمذى (جناز/٧٠) وأبو داود بمعناه (٥٤٠/٢ ، ٥٤١) وابن ماجه (جناز/٦٥) وأحمد (١٢٦/٣ ، ٢٨٨/٤)
- (٢) رواه أحمد (١٧٣/٥) والترمذى (زهد/٩) وابن ماجه (زهد/١٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

بعض صفات الملائكة

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض ، قد ، دل الدليل العقلي ، والشرعى على وجودهم ، وعلى وجوب الإيمان بهم ، والتصديق بأحوالهم ، وأحوالهم ، والمراد من الدليل العقلي والشرعى ما سبق أن ذكرناه من أنه الأخبار الصادقة ، والآثار الناطقة .

ومن خلال الأخبار الصادقة التى هى الدليل الشرعى تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة ، وأحوالهم تثبتت هنا فى آخر بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيداً فنقول :

١ - حياؤهم :

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أسنحى من رجل تسنحى منه الملائكة؟ »^(١) يعنى بذلك الرجل عثمان بن عفان رضى الله عنه . ففي هذا الخبر الصادق . الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة .

٢ - تاذيهم :

إن الملائكة تآذى من المكروه كما يتآذى منه الإنسان لحديث مسلم : « من أكل من الثوم ، والبصل ، والكراث فلا يقربن مسجدنا؟ فإن الملائكة تآذى بما يتآذى منه بنو آدم »^(٢) ولحديث الصحيحين أيضاً « إن الملائكة

(١) رواه مسلم (١١٧/٧) .

(٢) مسلم (٩٠/٢) .

لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة،^(١) . فعدم دخولهم البيت الذى فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهذا دليل على تأذيتهم من هذا المكروه .

٣ - تنزههم عن الاعراض البشرية :

إن الملائكة منزهون عن الاعراض البشرية كالجوع، والمرض، والأكل والنوم، والتعب وما إلى ذلك ، فقد جاء فى القرآن ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام ، إذ أخبر تعالى عنهم : أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون،^(٢) ولازم ذلك أنهم لا ينامون ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتعبون .

٤ - خوفهم من الرب تبارك وتعالى :

ان الملائكة يخافون من الله تعالى، أثبت ذلك الخبر القرآنى فى مثل قول الله تعالى : : والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة، والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون،^(٣) وقوله : : ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون،^(٤) .

٥ - طاعتهم لله تعالى :

ان الملائكة مطيعون لله تعالى ، لا يعصونه بحال من الأحوال ، وذلك لقوله : : لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون،^(٥) وقوله : : عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .،^(٦) .

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم ، التؤلة والمرجان (٣ / ٣٩) مسلم (٦ / ١٥٧)
والبخارى (٤ / ١٣٨) .

(٢) سورة الانبياء الآية (٢٠) .

(٣) سورة النحل الآيتان (٤٩ ، ٥٠) (٤) سورة الانبياء الآية (٢٨) .

(٥) سورة التحريم الآية (٦)

(٦) سورة الانبياء الآيتان (٢٦ ، ٢٧) .

٦ - جهنم ان يحب ربهم :

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم ، وحسب ذواتهم فقد دل الدليل الشرعى على أنهم يحبون ، ففى حديث الصحيحين : « ان الله تعالى اذا أحب عبداً نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحوه فيحبه أهل السماء ، ويضع له القبول فى الأرض ، (١) » .

٧ - دعاؤهم ولعنهم :

إن الملائكة يدعون ربهم ويسألونه كما قال تعالى عنهم : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا ، واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، (٢) » .

وانهم ليلعنون من لعنه ربهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين خالدين فيها ، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون (٣) » ،

٨ - عظم خلقهم وتفاوتهم فيه :

إن خلق الملائكة لعظيم ، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً ، فقد صح أن لجبريل عليه السلام ستائة جناح (٤) فى حين أن من الملائكة من له جناحان فقط ، كما قال تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، (٥) » .

(١) التلوة والمرجان (٢٠٥/٣ ، ٢٠٦) البخارى (١٧٣/٩ ، ١٧٤) ومسلم

(٤١٠ ، ٤٠/٨) (٢) سورة غافر الآية (٧)

(٣) سورة البقرة الآيتان (١٦١ ، ١٦٢) .

(٤) ثبت هذا فى الصحيحين التلوة والمرجان (١ / ٤) البخارى (١٤٠/٤٦)

ومسلم (١٠٩/١) (٥) سورة فاطر الآية (١) .

روى أبو داود بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، ومن شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، فيقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت » .

ويروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في ذلك عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض ، وعنقه مثنية تحت العرش ، وهو يقول : سبحانك ما أعظمك ! »
فيرد عليه : لا يعلم ذلك من حلف بي كاذباً ،^(١) .

(١) ذكره صاحب الجرائد وعزاه إلى أبي داود ، والذي وقف عليه في أبي داود نعه ، أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، والمراد من الديك أنه ملك شبه الديك ، ومعنى مرقت : خرقت . أبو داود (٥٣٤ / ٢) .

الجن والشیاطین

وبمناسبة بحث الركن الثاني من عقيدة المؤمن « الإيمان بالملائكة عليهم السلام ، نعرض لقضية الجن والشیاطین ، إذ الإيمان بوجودهما جزء من عقيدة المؤمن أيضاً ، وذلك لأنهما من الغیب الذى أمر المؤمن بالإيمان به وبتصديق الله والرسول فيما قالَا فى شأنه ، وأخبرا به .

ولولا الرغبة فى زيادة إثارة عقيدة المؤمن لما كان بنا حاجة إلى بحث هذه المسألة من العقيدة بحثاً مستقلاً ، وذلك لأمرين . أولهما : أن من آمن بالله تعالى ، وبعلمه ، وقدرته ، وحكمته لا يتردد فى تصديق الله تعالى فى أى شىء . يخبر به من غیب ، أو شهادة ، لا سيما مسألة كهذه حيث قررها الله تعالى ، وأثبتها فى عشرات الآيات من كتابه الكريم . وثانيهما : أن الأدلة العقلية ، والبراهین التى سقناها للإيمان بالملائكة عليهم السلام ، هى بعينها يوثق بها هنا ، ويُستدل بها على وجود الجن والشیاطین ، وخلاصتها : أن الكائنات كلها ما بين غیب وشهادة ، وأن الإنسان إذا كان فى مكان خلت منه سائر الامكنة وأصبح كل ما لا يراه ، ولا يسمعه ، ولا يحس به لبعده عنه غيباً له ، فإذا ما صدق به كان ذلك إيماناً منه بالغیب ، وطريقه إليه هو الآثار الدالة ، والأخبار الصادقة . فإذا وُجد أثر لشىء ما كان الإنسان مضطراً إلى التصديق به ، وإن لم يره ، ولم يسمعه ، ولم يحس به . يأية حاسة من حواسه التى هى مصدر حصوله على أغلب علومه ، ومعارفه . كما أنه إذا أخبره ثقة بشىء من الممكنات فضيلاً عن أن نخبره جماعة كثيرة تستحيل عادة تواطؤها على الكذب آمن بما أخبر به ، وصدق تصديقاً جازماً ، بحيث لا يتردد فى صحة ثبوته أبداً ، بل قد يُعد المكذب به ناقصاً فى عقله ، هابطاً من شرف إنسانيته وكرامة آدميته .

ولما كان المؤمن قد آمن على مثل هذين الدليلين بالملائكة وهم من الغیب المحض فكيف لا يؤمن بعالم الجن والشیاطین ، وهما أقرب المغيبات إلى الملائكة عليهم السلام .

أدلة وجود الجن والشیطان

والآن نورد الأدلة والبراهین المثبتة لوجود الجن والشیاطین بالآثار والأخبار كما برهننا بذلك علی وجود الملائكة الأطهار ، وإكتفينا به :

أ - الآثار :

إن الآثار الدالة علی وجود الجن والشیاطین كثيرة جداً وحسبنا منها مايلي :

١ - الصرع الذى لا یکاد یخلو منه زمان ولا مکان ، ومنذ فجر التاريخ ، ونعنى بالصرع ما كان سببه الأرواح الخبيثة ، وهى أرواح الشیاطین ، وأما ما كان سببه الاخلاط الرديئة فذاك شىء آخر ، فإنه قد یعالج بالأدوية المادية ، وقد یشفى صاحبه ، وقد لا یشفى ، وإنما نعنى بالصرع الدال علی وجود الجن والشیاطین ، الصرع الذى سببه الأرواح الخبيثة ، ذاك الصرع الذى وقف الطب حتى فی أيام تقدمه ، وقف حiale لا یبدى ، ولا یعید ، فإنه أثر من آثار الجن والشیاطین ، ودلیل قاطع علی وجودهم .

٢ - تكلم الجن علی لسان الشخص الذى یحل فیهِ ، ویلبس به ، وإخباره بأمور لم یکن الإنسان المصاب به یعرفها ، حتى إن بعضهم لیستکلم بلغات لم یکن المصاب یعرف منها حرفاً واحداً .

٣ - خروج الجن من الإنسان الذى حل فیهِ ، وركبه بواسطة الرقى من ذوی الأرواح الطيبة ، والنفوس الزكية ، أو بواسطة الأرواح الخبيثة من البشر عن یوالون الشیاطین ، یتعاونون معهم ، وتصریح الجن بالخروج وعدم العودة بالمصرع ، وذلك بعد تخويفه وتهديده من الراقى ، وهذه المسألة قد یستغربها البعض ، أو ینکرونها ، غیر أن الواقع أثبتنا بما لا مجال للشك فیهِ بحال من الأحوال :

٤ - ظهور بعض الجان لبعض الناس ، ومخاطبتهم إياهم وهذا أيضاً متواتر الأخبار بحيث يعد إنكاره غباء وجهالة . أو مكابرة وجحوداً ، لا يرضاها العاقل لنفسه .

٥ - الجرائم التي يرتكبها الإنسان بين الناس من لواط ، وزنا ، وقتل نفس ، وسرقة ، وشرب خمر ، وكفر ، وعقوق ، وكذب ، وخلف للوعد ، ونسك بالعهد . كل هذه الجرائم التي تتنافى مع الفطر البشرية ، والشرائع الإلهية ، والقوانين الدولية هي بدون شك آثار للشياطين . إذ هي التي تحسبها للإنسان . وتزينها له . وتغريه بارتكابها . لإغوائه وإفساد روحه التي عليها مدار سعادته وشقائه في الدار الآخرة ، إذ الشياطين في إفساد أرواح الناس هي بمثابة الجرائم التي تفسد أجسامهم وسواء بسواء .

وهنا نقول سبحانه الله إتنا لو قلنا لإنسان مريض إن سبب مرضك أيها الأخ الجرائم الفلانية ، أو الفلانية فاستعمل لها الدواء الفلاني فانك تشفى بإذن الله تعالى ، لما تردد في تصديقنا ، ولبادر إلى استعمال الدواء . وجربه مع أنه لم ير الجرائم . ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه . وإنما صدقنا الأثر الذي شاهده وهو المرض القائم بجسمه . والذي يشعر بالآلامه وأنعايه كل ساعة من ساعات أيام مرضه ، وإذا قلنا له إن نفسك مريضة ، ولذا أنت تحب الكذب ، والخيانة . وترغب في الجريمة . وتميل إلى الخبث . وإن سبب مرض نفسك الشيطان فاستعمل له كذا وكذا فانك تشفى بإذن الله لأنكر غالباً ولم يصدق ، في حين أن الدليل واحد في المسألتين ، وهي الآثار الدالة على المرض الجثماني والروحاني ، وعدم تصديقه بالمسألة الأخيرة أكبر دليل على وجود الشيطان ، إذ لولا صرفه عن التصديق بما ألقى في نفسه من الريب ، والشكوك لما كذب ، وأنكر أبداً ، إذ ما ثبت به وجود الجرائم في الجسم وهو الأثر ، هو عين ما يثبت به وجود الشياطين وهو الأثر أيضاً .

الاخبار :

إن الأخبار الإلهية ، والنبوية الصادقة ، والناطقة بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً ، فلنكتف بذكر طائفة منها ، ولنبدأ بأخبار الله تعالى :

١ - اخبار الله تعالى :

أخباره تعالى المصروفة بوجود الجن والشياطين كثيرة منها ، قوله تعالى في خلق الإنسان والجان : «خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار»^(١). وقوله في بيان العلة في خلقه للانس والجن : «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»^(٢). وقوله تعالى في الاخبار عن طاعة ملائكته له ، وفسق إبليس عن أمره ، وفي النهي عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق من أمر ربه ، أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو»^(٣). وقوله تعالى في إخباره بخلق الإنسان ، وتصويره ، وأمر ملائكته بالسجود له ، وامتناع إبليس عن ذلك ، وتوبيخه على عدم السجود ، واعتذار إبليس عن عدم السجود لآدم ، وهو عند أقبح من ذنب ، وعن طرد الله تعالى له من الجنة وإبلاسه ، وإيعاده هو ومن تبعه من الناس بعذاب جهنم : «ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ، قال أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال إنك من

(١) سورة الرحمن الآيتان (١٤ ، ١٥)

(٢) سورة الذاريات الآيات (٥٦ - ٥٨)

(٣) سورة الكهف الآية (٥٠)

المنظرين ، قال فيما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، ثم لا تبينهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمنهم ، وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال اخرج منها مذموماً مدحوراً^(١) لمن تبعك منهم لا ملأن جهم منكم أجمعين^(٢) ، وقوله في الإخبار بأن شياطين الجن وشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض الباطل والكذب ، لتضليل الناس ، وأغوائهم بالفتن والشور : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً »^(٣) ، وقوله تعالى في الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام ، وتسخير الجن والشياطين له ، حيث كان يستخدمهم عليه السلام في شتى الأعمال والأغراض : « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »^(٤) ، وفي آية أخرى يقول « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب »^(٥) وقوله تعالى في الإخبار عن جن نصيبين الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول عليه الصلاة والسلام في بطن نخلة^(٦) وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ . وينذرونهم عما يترتب على عدم إيمانهم من العذاب الأليم : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به

(١) المذموم : المغيّب بأسوء العيوب ، والمدحور : المطرود المبعد .

(٢) سورة الأعراف الآيات (١١ - ١٨)

(٣) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٤) سورة سبأ الآيات (١٢ ، ١٣)

(٥) سورة ص الآيات (٣٧ - ٣٩)

(٦) مكان بين مكة والطائف .

ينفر لكم من ذنوبكم ويحرم من عذاب أليم^(١).

وقوله تعالى في أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر بما أوحى إليه من استماع الجن لقراءته ، وبالذي دار بين الجن من أحاديث عجيبة ، تحوى حقائق مذهبة عظيمة عن الجن ، وعقائدهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشده فآمنا به ، ولئن نشرك ربنا أحدا »^(٢) ، في كذا آية من سورة الجن .

وقوله تعالى في الأمر بالاستعاذة من الشيطان في ثلاث آيات منها : « وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم »^(٣) ، ومنها : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »^(٤) ومنها « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس »^(٥) .

اخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم -

وهي كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم في الاخبار عن القرين من الجن ، والذي وكل بكل إنسان :

ما من أحد إلا وقد وُكل به قرينه من الجن قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال :

(١) سورة الاحقاف الآيات (٢٩ - ٣١) .

(٢) سورة الجن الآيتان (٢ ، ١) .

(٣) سورة الاعراف الآية (٢٠٠)

(٤) سورة النحل الآيات (٩٨ - ١٠٠)

(٥) سورة الناس بكاملها

وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ، ، أخرجه مسلم (١) وقوله صلى الله عليه وسلم في الإخبار عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته ، وتناوله من طعامه وشرابه وذلك من رواية مسلم : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان (لأولاده ومن معه من الشياطين) لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا ما لم يذكر الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء ، (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم في النهي عن الأكل والشرب بالشمال والتغليل بأكل الشيطان وشربه بشماله « لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بها فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها ، (٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم وهو يحذر المؤمنين من أن يبيت أحدهم وفي يده أثر طعام ، أو إدام من أن يأتي شيطان للحس ذلك من يده فيؤذيه : « إن الشيطان حساس لحساس فاحذروه على أنفسكم ، من بات وفي يده عظم فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه ، (٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله الجن الزاد في حديث الصحيح : كل عظم ذكر اسم الله عليه وقع في يد أحدهم أو فر ما يكون لحما وكل بعر حلف لدوابهم ، (٥) . ومن هنا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الاستجمار بالعظم والروث وقال

(١) مسلم (٨ / ١٣٩)

(٢) مسلم (٦ / ١٠٨)

(٣) رواه مسلم (٦ - ١٠٩) ومالك وأبو داود

(٤) أخرجه الترمذي (أطعمة / ٤٨) ، وأبو داود (٣٠ / ١) وابن حبان

وغيرهم . ومعنى حساس : شديد الاحساس ، ولحاس : كثير اللحم ، غمر بفتح العين والميم : رائحة الطعام .

(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة وجاء فيه فقلت : فما بال العظم

والروث ؟ قال هما من طعام الجن وأنه أتاني وفد جن نصيبين ونعم الجن فسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاما (٥٩/٧)

(١٤ - عقيدة)

معللاً النهي : « فانه زاد إخوانكم من الجن » ، (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم في صلاته بالليل : « إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على الصلاة فأمكنى الله منه فأردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتظروا اليه كلكم ... الحديث » ، (٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم في إرشاده لأمته أن تسأل الله تعالى عند سماع صياح الديكة وتستعيز بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار ، وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فانها رأيت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فانه رأى شيطاناً ، (٣) وقوله صلى الله عليه وسلم في الارشاد الى الاداب في حديث البخارى « التثاؤب من الشيطان » ، (٤) وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً وهو يرشد أمته الى كيفية رد كيد الشيطان ومجاهدته بدفع ما يلقيه من الشبه في نفس العبد « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فاذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » ، (٥) وقوله صلى الله عليه في الصحيح كذلك « إذا كان جنب الليل أو أمسىتم فكفوا صيائكم فان الشياطين تنتشر حينئذ ... الحديث » ، (٦) .

وجوب الإيمان بوجود الجن والشياطين

للك الأدلة العقلية والفعلية ، التى سقناها كان الايمان بوجود الجن والشياطين واجبا حتما ، بل كان جزءا من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة

(١) رواه أبوداود والترمذى والنسائى .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى للؤلؤ والمرجان (١٠٩/١)

(٣) متفق عليه واللفظ للبخارى للؤلؤ والمرجان (٢٣٣/٣) ومتن البخارى

(١٥٥/٤)

(٤) متفق عليه واللفظ للبخارى للؤلؤ والمرجان (٣٢٧/٣) متن

البخارى (١٥٢/٤)

(٥) متفق عليه واللفظ للبخارى للؤلؤ والمرجان (٢٦/١)

(٦) متفق عليه واللفظ للبخارى للؤلؤ والمرجان (١٦/٣)

الإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود على الجن والشیاطین تعد كفرأ صراحا ، مخرجاً من الملة المحمدية لأجل ما في ذلك من الشكر للعقل ، ورفض بدهياته ، وتكذيب الله تعالى في أخباره ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم . وكفى بتكذيب الله تعالى ، وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفراً وباطلاً .

بعض معلومات عامة عن الجن والشیاطین

وها هي ذی بعض المعلومات عن عالمی الجن والشیاطین ، نوردها تقریراً لمبدأ الإيمان بوجودها ، وتوضيحاً لكثير من معالم ذلك العلم الغیبی المجهول عند الذين يعيشون بعيدین عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

١ - مادة خلق الجن :

الجان هو أبو سائر الجن ، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة ، وكان خلقه قبل خلق الإنسان ، وذلك لقوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنونہ ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (١) وهل السنة في خلق الجن وذريته كالسنة في خلق آدم وذريته ؟ بمعنى أن الجان الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل محتمل والله أعلم .

٢ - لم سمی الجن جناً ؟

سمى الجن جناً لاجتنانهم وهو استارهم ، وعدم ظهورهم للناس ، لأن الاجتنان هو الاستار . وهو مأخوذ من جن الليل اذا أظلم ، فستر الأشياء بظلامه ، ومنه سميت جنة المقاتل وهي الخوة التي يجعلها على رأسه في الحرب وسميت الجنة دار النعيم جنة ، لأنها تستر بأشجارها الكثيرة الملتفة من يدخلها كما سمي الجنين في بطن أمه جيناً لاستاره ببطن أمه ، وعدم ظهوره . قال تعالى في الشيطان من الجن : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » (٢) .

(١) سورة الحجر الايتان (٢٦ : ٢٧)

(٢) سورة الاعراف الاية ٢٧

٢ - افتقار الجن الى الغذاء :

إن الجن مفتقرون الى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها ، والدليل على هذه الحقيقة : ما صحح من أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد فقال لهم : " كل عظم يذكر بسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون حمأً " (١) . ونهى ﷺ عن الاستجار بالعظم ، وقال إنه طعام إخواننا من الجن ، (٢) . كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلى ذلك بأن الشيطان يأكل ويشرب بشماله ، (٣) .

ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة في البخارى ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون ، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التى خلقهم الله تعالى عليها .

٤ - الجن يتوالدون :

لا شك أن الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم ، وأن لهم سنة في ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم ، كما تتوالد سائر الأحياء ، كل على نظام السنة التى جعلها الله تعالى له . ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها القرآن الكريم : حيث جاء فيه قول الله تعالى : « أفقتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا » (٢) فإن المنهى عن اتخاذ ذريته أولياء هو إبليس وذريته بدليل السياق إذ أوله : « وإذ قلنا للامسكة ، اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، فسق عن أمر ربه أفقتخذونه ... الآية » (٣) . كما ورد في صحيح مسلم أن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه وشرابه وفراشه إن لم يذكر اسم الله تعالى عند أكله وشربه ومخالطة أهله (٤) .

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريبا في فصل أخبار الرسول ﷺ

(٢) سورة الكهف الآية (٥٠) . (٣) سورة الكهف الآية (٥٠) .

(٤) تقدم هذا الحديث بلفظه قريبا في فصل أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم

ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله باسم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا ، ثم قدر بينهما في ذلك ، أو قضى ولد لم يضره شيطان أبداً ، (١) .

• هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً ، ولكي تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن الخلق الراقى أربعة أنواع وهي : الملائكة ، والإنس والجن ، والشياطين .

فالملائكة : عالم روحاني مستقل له خصائصه ، وصفاته ، وأحواله ، وقد تقدم البحث مستفيضاً في بيان حقيقة هذا العالم العلوى الكريم .

والجن : نوعان ، شياطين لا خير فيهم البتة ، وجن منهم الصالح . ومنهم الفاسد ، فخالهم كحال الناس ، منهم البار ومنهم الفاجر ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، يد أن الشياطين أصلهم من الجن ، وذلك لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : «إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه . . . الآية» (٢) . ولما أبلس الشيطان ، وطرد من الرحمة الإلهية ، وانقطع من الخير كلية ، كانت ذريته مثله بحكم الوراثة ، لا خير فيهم أصلاً ، فلا يعرفون إلا الشر ، ولا يدعون إلا إليه . والمثل القريب لذلك أن الخية لا تلد إلا خية ، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها منذ أن كانت تغيير بحيث تلد أولاداً ، لا سُم فيهم ، ولا خبث معهم .

ثم إن كل من يخبث ، ويتمرد ، وينقطع عن الخير من أفراد الجن والإنسان يصبح شيطاناً ، فإن عتا قيل فيه مارد . وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت .

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى ، اللؤلؤ والمرجان (٢/١٠٠-) ، والبخارى

(٢٩/٧ ، ٣٠) . ومسلم (٢/١٥٥)

(٢) سورة الكهف (٥٠) .

وقد أثبت القرآن العظيم هذه الحقائق كلها ، اذ جاء فيه أن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين قال تعالى : من سورة الأنعام : «شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا» (١) . كما جاء فيه أن من الجن صالحين وذلك في قوله تعالى فيما حكاه عن الجن من سورة الجن :

«وأنامننا الصالحون ، ومنادون ذلك» (٢) .

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته في قوله جل جلاله : «وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يُطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (٣) . كما أخبر تعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء في قوله من سورة البقرة : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا» (٤) . كما أخبر تعالى أن الشيطان يضل من يتبعه ، ويهديه إلى عذاب السعير في قوله من سورة الحج : «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير» (٥) .

وهذا هو النوع الذى لاخير فيه من شياطين الجن ، وهو إبليس عليه لعائن الله تعالى .

٦ - هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك في أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة ، ويتلونون تلوفا

(١) الآية (١١٢)

(٢) الآية (١١)

(٣) سورة الذاريات الايات (٥٦-٥٨) .

(٤) الآية (٢٩٨) .

(٥) الايتان (٣ ، ٤) .

كبيراً ، وهذا بما دل عليه دليل السمع ، والمشاهدة ، وهو من الممكنات الجائزة عقلاً ؛ اذ تصوّر وجودها لا يوجب تناقضاً عقلياً أبداً .

ومن الاخبار الدالة على تشكّل الجن بأشكال متعددة مايل :

١ - بحىء الشيطان إبليس إلى دار الندوة في مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعوته الإسلامية التي أظهرها فيهم ، فتجربوا لها ، وعظم عندهم أمرها ، فاجتمعوا يبحثون عن تخرج لهم منها ، ولو كان قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عبسه ، أو نفيه ، فهم كذلك حتى دخل عليهم الشيطان في صورة ركب كبير محترم من رجالات نجد ومشائخها الموقرين ، وشارك في اجتماعهم ، ومداولاتهم ، ورجّح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه ، وأكثره شراً وفساداً ، ألا وهو الحكم بقتل الرسول إلى الله عليه وسلم (١) .

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها .

٢ - تشكّل جان من جنان المدينة النبوية في صورة حية ، لما روى مسلم أن أبا سعيد الخدري قال : كان قتي منا حديث عهد بعرس ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ خذ عليك سلاحك فأبى أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعن بها ، وأصابته غيرة ، فقالت له : أكفف عليك رمحك ، وأدخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني ؟ فدخل فإذا بحية عظيمة منظوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح

(١) ذكر القصة ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ١٧٥ - ١٧٦) وابن

هشام (٢ / ١٠٣ - ١٠٥) .

فانتظمها به ، ثم ، خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه ، فما يُدري أيهما كان أسرع موتاً : الحية أم الفتى ؟ (١) .

٣ - تشكل شيطان في صورة إنسان ، وسرقته من تمر الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري ، إذ فيه ما معناه أن أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة ، الزكاة ، فكان الجان يأتيه في صورة إنسان ويأخذ من تمر الزكاة ، فقبضه ، وأراد أن يوقع به فاعتذر اللعين فتركه ، ثم أتى للمرة الثالثة ، وعندما عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيالا ، وأنه مضطر ، وطلب من أبي هريرة أن يغفو عنه ، على أن يعطيه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن للشيطان لا يقربه . وهذه الآية هي آية الكرسي ، فغفا عنه وتركه . ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبي ﷺ قائلاً : ما فعل أسيرك البارحة ؟ فقال له أبو هريرة كان من أمره كذا وكذا . . . فقال له النبي ﷺ صدقك وهو كذوب !!! (٢)

تنبيه :

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون ، كما تشكل الملائكة نفيه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية تشكل الملائكة ، والجان ، والشياطين ، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعونه بها ، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك التشكل على الصورة التي يريدون ، في حدود ما أذن لهم فيه ، بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثيل بصورة الرسول ﷺ

(١) مسلم (٤٠ / ٧) .

(٢) رواه البخاري تعليقاً (١٢٥ / ٣)

لقوله عليه الصلاة والسلام : « من رآني فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي » (١)

٧ أين يسكن الجن ؟

الغالب في الجن والشياطين أنهم يسكنون الخرائب ، والحشوش ، والمزابل ، والقمام لحديث أبي داود « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث » .

ومن هنا كانت الشياطين تنزل على أخبات الرجال والنساء من أهل الآثام والأفاكين ، الملوئين بالذنوب ، والجرائم العظام . قال تعالى من سورة الشعراء : « هل أنبشكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » (٢) .

٨ - هل الجن تسترق السمع من الملا الأعلى ؟

نعم إن الله تعالى أعطى الجن والشياطين قدرة على العروج إلى المسمكوت الأعلى ، فلذا هم يعرجون كما تعرج الملائكة من الأرض إلى السماء ، ويسترقون السمع من الملائكة ، ويهبطون به إلى الأرض ، ومن كان له ولى من الإنس يقضى به إليه ، ليحدث به الناس ، فيفتنهم ، ويغويهم ، ويشهد لهذه الحقيقة ويثبتها ما قصه الله تعالى في كتابه ، وحكاها عن الجن أنفسهم في قوله من سورة الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشبهاً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/٨٠) والبخارى (٩/٤٢) .

ومسلم (٧/٥٤)

(٢) الايات (٢٢١ - ٢٢٣) .

لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، (١) كما يؤكد هذه الحقيقة حديث البخارى ، والذي فيه أن النبي ﷺ قال : « إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » (٢) .

٩ - الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الانسان

إن الجن حتى الصالحون منهم لأقل قدراً ، وأدنى كرامة ، وأنقص شرفاً من الإنسان ، إذ قرر الخالق عز وجل كرامة الإنسان ، وأثبتها في قوله من سورة الإسراء : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (٣) ولم يثبت مثل هذا التكريم للجان لا في كتاب من كتب الله ، ولا على لسان رسول من رسله عليهم السلام ، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف من الجان ، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم ، وضعفهم أمام الإنس ، يدل على ذلك أنهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم تعاضموا وترفعوا لما في استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم ، وإكبارهم وهم ليسوا كذلك ويزدادون رهقاً أى طغياناً وكفراً . قال تعالى في الحديث عنهم من سورة الجن : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » (٢) . ويشهد لذلك أيضاً أن الإنسان إذا توسل بهم ، أو بأسماء عظائهم ، أو أقسم بأشرفهم أجابوه ، وقضوا حاجته ، كل ذلك شعور منهم بالضعف ، والحقارة أمام ابن آدم الكريم على الله تعالى إذا آمن بالله تعالى ، وعبدته موحداً له في ربوبيته ، وعبادته ، وأسمائه ، وصفاته . أما بدون ذلك فإن الإنسان كالجان ، وصالحو الجان أفضل وأكرم من كفار بني آدم ومشركيهم .

(٢) البخارى (٤ / ١٣٥) .

(١) الآيات (٨ - ١٠)

(٤) الآية (٦) .

(٣) الآية (٧٠) .

١٠ - هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم ، وبيننا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس ،
 'خلقوا لعبادة الله تعالى وطاعته ، شأنهم في ذلك شأن بني الإنسان ، وأن منهم
 الصالحين . ومنهم دون ذلك ، وعليه فالصالحون منهم ، وهم أهل الإيمان والتقوى
 يدخلون الجنة ، وينعمون فيها إن هم ماتوا على الإيمان والتوحيد ، والتقوى
 والعمل الصالح .

والدليل على هذه الحقيقة العلمية غوامات قوله تعالى : « إن الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ، (١)
 وقوله تعالى « فمن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له
 كاتبون ، (٢) . وقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم
 مغفرة وأجر عظيم ، (٣) . فـ كلمة (من) من ألفاظ العموم فيدخل فيها كل
 من حقق الشرط الذي 'قرن بها من إنس وجن ، ويتلقى الجزاء ، وهو المغفرة ،
 والجنة كل من حقق الشرط من أنسى وجنى . وأصرح في الدلالة من هذا قوله
 تعالى من سورة الرحمن « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، (٤) . في سياق ذكر
 الإنس والجن معا .

١١ - هل الجن يؤذون الناس ؟

إن أذى الجن للإنس ثابت لا يُنكر ، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعى ،
 والدليل الحسى ، والعقل لا يحيله ، بل يجيزه ويقره . ولولا المعقبات
 من الملائكة التى أناط الله تعالى بها حفظ الإنسان لما نجا من الجن
 والشياطين أحد .

(١) سورة البروج الآية (١١) . (٢) سورة الانبياء الآية (٩٤)

(٣) سورة المائدة الآية (٩) . (٤) الآية (٤٦)

وذلك لعدم رؤية الإنسان لهم ، ولقدرتهم على الانتقال والتحول بسرعة ، ولكون أجسامهم من الطاقة بحيث لا تشعر بها ، ولا نحس ، ومن هنا كان مما لاشك فيه أن بعض الجن يؤذون بعض الناس ، إما ليكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى فأذاهم بصب ماء حار عليهم ، أو ببوله عليهم ، أو بنزوله في بعض منازلهم وهو لا يشعر ، فينتقمون فيؤذونه .

وإما لمجرد الظلم من بعضهم ، فيؤذون الإنسان بدون سبب كما يحدث ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان ، إذ أحياناً يؤذى الإنسان أخاه لسبب خاص ، وأحياناً لمجرد الظلم ، كما هو مشاهد في الناس عند فساد فطرهم ، وضعف إرادتهم ، وحقوقهم ، وقد تقدم حديث الصحيح وجاء فيه أن الشاب الأنصاري لما طعن الجنى المتمثل في صورة حية ، ما مات الحية حتى انتقم منه الجن ، وقتلوه ، فمات لقوره حتى قال أبو سعيد « لم يدرك أيهما كان أسرع موتاً من صاحبه الحية أم الفتى » ؟ (١) ولشبهة هذه الحقيقة ، وتسليم الناس بها لا نطلب لها إيراد شواهد أخرى ، ونكتفي بحادثة الأنصاري الثابتة في صحيح مسلم ، وبذكر حادثة أخرى تمت في بيتنا وعشنا آلامها ، وعانينا آثارها السيئة .

إنه كان لي أخت أكبر مني تدعى « سعدية » وكنا يوماً ونحن صغار نطلع عراجين التمر من أسفل البيت إلى سطحه بواسطة حبل يربط به القنطرة (العرجون) ونسحب إلى السطح ونحن فوقه ، فحصل أن أختي سعدية جرت الحبل ، فضغفت عنه ، فقلبها فوقعت على الأرض على أحد الجنون ، فكأنها بوقوعها عليه آذته أذى شديداً ، فانتقم منها فكان يأتيها عند نومها في كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً ، أو أكثر فيخنقها ، فترفس المسكينة برجليها ،

(١) روله مسلم وتقدم في (هل الشياطين يتشكلون) ؟ (ص ٢١٦، ٢١٧)

وتضطرب كالشاة المذبوحة ولا يتركها إلا بعد أن تصبح أشبه بميته ،
ونطق مرة على لسانها مصرحا بأنه يفعل بها هذا لأنها آذته يوم كذا في
مكان كذا . . وما زال يأتينا ويعذبها بصرعة تأتيا عند النوم فقط حتى
قتلها بعد نحو عشر سنوات من العذاب الذي لا يطاق ، نصرعها ليلة
على عادته فما زالت ترفس برجليها وتضطرب حتى ماتت — غفر الله لها ،
ورحما آمين .

هذه الحادثة عشتها ، وبعمى رأيتها ، وما راها كمن سمع !!!

فائدة عظيمة

ونختتم هذا البحث في موضوع الجن والشياطين بفائدة جليلة ، وهى أن التحصن من الشياطين ، والاحتراز منهم ممكن ، إذا استعمل المؤمن واحداً من سبعة أشياء وهى : —

١ — الاستعاذة بالله تعالى ، لقوله عز وجل ، « وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » ، (١) ، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث الصحيحين : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، (٢) .

٢ — قراءة المعوذتين : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس لحديث النسائي وغيره وهو حديث حسن الإسناد : « يا بن عابس ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعذون ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين » ، (٣)

٣ — قراءة آية الكرسي : الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . . إلى آخر الآية ، (٤) . لحديث أبى هريرة فى صحيح مسلم وقد تقدم (٥) حيث جاء فيه : أن الشيطان لما ألقى أبو هريرة عليه القبض قال : أطلقنى وأعلمك آية لا يقرؤها أحد ويقربه شيطان أبداً ، وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « صدقك وهو كذوب » .

(١) سورة فصلت الآية (٣٦) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم التلوة والمرجان (٣/١٩٩) . ومسلم (٨/٣١) .

والبخارى (٨/٣٤ ، ٣٥) .

(٣) النسائي (٨/٢٢٠ ، ٢٢١) (٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥)

(٥) فى « هل الجن والفياطين يتشككون ؟ » فى (ص ٢١٤-٢١٦)

٤ — قراءة سورة البقرة بكاملها ، لحديث مسلم وفيه : « لا تجفلوا بيوتكم مقابر إنه الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » ، (١) .

٥ — ذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، فإن من فعلها كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، (٢) .

٦ — ذكر الله تعالى لحديث الترمذي وفيه قال يحيى بن زكريا « وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » ، (٣) .

٧ — الوضوء عند الغضب ، فمن غضب فليتوضأ فإنه يعصم نفسه من الشيطان أن يحمله على ارتكاب ما لا ينبغي ، أو ما لا يحسن من قول أو فعل ، وذلك لحديث أبي داود : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان من القار ، وإنما تطأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ ، (٤) .

(١) رواه مسلم (١٨٨/٢)

(٢) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٢٢٥ / ١)

(٣) الترمذي (أدب / ٧٨) .

(٤) أبو داود (٥٥٠/٢) ، وأحمد (٢٢٦/٤) .

الركن الثالث

من أركان عقيدة المؤمن الإيمان بالكتب

تعريف :

الكتب جمع كتاب ، والكتاب : مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة إذا جمع الحروف ، وألف بينها ، فكانت كلمات ذات معان خاصة ، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملاً مفيدة ، تسمى كلاماً .

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً ، ذا أغراض متعددة . وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها : هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكانت كتباً ، أو بقيت صحفاً لم تجمع ، ولم يتكون منها كتاب خاص . فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ، والكتب كالتوراة ، والزيور ، والإنجيل ، والقرآن العظيم .

حقيقة الإيمان بالكتب :

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن : التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام ، لمجمع ودون فكان صحفاً مطهرة ، وكتباً قيمة .

فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً ، وما لم يعرف آمن به إجمالاً .

ما عرف من الكتب الإلهية

وما لم يُعرف

إن المصدر الوحيد الذى يرجع إليه فى معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده ، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً ، لا يتطرق إليه معه الزيادة ، ولا النقص ، ولا التحريف ، ولا التغيير ، أو التبديل ، بحال من الأحوال : لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات ، أو السورة القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته فى سطورهم ، وحفظه فى صدورهم ، فلم يتم نزوله فى خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأماناء ، ثم لم يمض غير قصير زمن حتى أصبح حفاظ القرآن غيباً فى الصدور عشرات آلاف من الرجال الأفاضل ، والنساء الفضليات ، واستمر محفوظاً فى الصدور ، ومدوناً فى السطور ، ترعاه دول ، وأمم ، وشعوب ، وحكومات ، وتتوارث حفظه ، ورعايته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا . وأكبر شاهد أنى أنا كاتب هذه العقيدة أحفظه عن ظهر قلب ، وكذا والذى رحمه الله ، وجدى كذلك ، وقد يسكون جد أبى كذلك . وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى له إلى قرب نهاية هذه الحياة ، مصداقاً لقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (١) . وقوله تعالى «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد» (٢) .

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف إبراهيم ، وصحف موسى وثلاثة كتب هى :

(١) سورة الحجر الآية (٩) (٢) سورة فصلت الايتان (٤١ ، ٤٢) .

توراة موسى ، وزبور داود ، وانجيل عيسى ، عليهم السلام ، ذكرها في مواضع متفرقة منه : نذكر منها قوله تعالى من سورة الفرقان : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً » (١) والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية التوراة ، وقوله تعالى في الحديث عن اليهود : وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استخفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء (٢) . وقوله تعالى : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً » (٣) . وقوله تعالى : « ثم وقفنا على آثارهم برسلنا ، وقفنا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل » (٤) وقوله تعالى : « أن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » (٥)

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحب إبراهيم وموسى ، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار نحو قوله تعالى في التوراة : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين... الآية (٦) حيث ذكرت حكما من أحكام القصاص في الأطراف . ونحو قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج

(١) الآية (٣٥) .

(٢) سورة المائدة الايتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٣) سورة الاسراء الآية (٥٥) .

(٤) سورة الحديد الآية (٢٧) .

(٥) سورة الأعلى الايتان (١٨ ، ١٩)

(٦) سورة المائدة الآية (٤٥)

شطاء فأزروه فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. (١). فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصف الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذى حوته هذه الآية القرآنية الكريمة . كما جاء فى قوله تعالى : «أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فى صَـحْفِ موسى، وإبراهيم الذى وفى»: ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزأه الجزاء الأولي ، (٢) .

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن فى صَـحْفِ كل من إبراهيم وموسى : الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها ، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله ، وسعى فيه بنفسه ، كما أن سعى الإنسان سوف يعرف به ، ويجزأه كاملاً غير منقوص .

فهذه الكتب التى ذكرت فى القرآن الكريم بأسمائها ، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم ، يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة ، ويؤمن ببقاى كتب الله تعالى التى لم تذكر فى القرآن مفصلة ، حيث لم يرد فى القرآن ذكر أسمائها ، ولا أسماء من نزلت عليهم ، وإنما ذكرت مجملة كما فى قوله تعالى من سورة الحديد : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» ، (٣) .

وكما فى قوله تعالى من سورة البقرة : «كانه الناس أئمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» ، (٤) . فقد جاء فى هاتين الآيتين ذكر الكتب مجعلاً فيؤمن بها المؤمن مجملة ، وإن لم يعرف أسمائها ولا أسماء من أنزلت عليهم .

(١) الآية (٢٩) من سورة الفصح

(٢) سورة النجم الايات (٣٦ - ٤١)

(٣) الآية (٢٥)

(٤) الآية (٢١٣)

وهكذا تتلخص عقيدة المؤمن في الإيمان بالكتب بأنه يؤمن بكل كتاب أنزله الله تعالى على من اصطفى من رسله ، لحل رسالاته ، وإبلاغها إلى عباده ، فما عرف منها مفصلاً آمن به مفصلاً ، وما عرفه منها مجملًا آمن به مجملًا . ولا يؤمن ببعض ويكفر ببعض تعصباً وضلالاً ، كما هو حال اليهود والنصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة ، والإنجيل المبدل المغير ، وكفروا بالقرآن المحفوظ الباقي غيضاً طرياً كما نزل ، والصافي المحض ، الذي لم يشب . فكانوا كمن آمن بالباطل وكفر بالحق . وهم - يعلم الله - كذلك .

على أى دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن فى حاجة إلى أدلة عقلية ، ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملأ نفسه إيماناً راسخاً ، لا تزغره أعاصير الشك ، ولا تعصف به عواصف الآوهم مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة ، ويتحاشى دوماً أن يؤمن بإيمان التقليد والتبعية ، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة ، وأم كل البراهين ليقم اعتقاده بالكتب عليهما ، كما أقام ويقم كل معتقداته عليها إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان ، والبرهانان اللذان لا يُغلبان ، وهما دليل الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب ، وآمن به كل عقلاء البشر ، فمن دليل الأثر نكتفى بأثر واحد وهو القرآن الكريم ، الكتاب الذى دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود منزله ، وعلى علمه ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ، ودل على نبوة من أنزل عليه ، وعلى رسالته ، وعلمه ، وحكمته ، وفضله ، وشرفه ، وكأله ، كما دل بالتالى على ذات نفسه ، بأنه كتاب الله ، ووحيه ، وتنزيله ، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه ، حيث ذكر صف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليه السلام ، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام ، كما قرر أن الله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شئ .

وبعد : فأى أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى ؟ ؟ .

إن من يصفى إلى صوت العقل ، ويستمع إلى شهادة الفطرة ، ويحكم شواهد الوجدان البشرى ، ويرضى بحكمها ، لا يسعه أبداً غير الإيمان بالله رباً ، ومحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن إماماً وحاكماً ، وبالإسلام شرعاً وديناً ،

كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التي لا أرى ما هو أعظم منها في باب الدلالات على اختلافها وتنوعها ، إذ القرآن - وهو كتاب معجز - قد حوى علوماً ومعارف لم يأت للبشر أفراداً وجماعات ، وأممًا ، وشعوباً إلا تيان بمثله حتى ولو أضيف اليهم العالم الثاني (الجن) ، والتحدى ما زال قائماً في قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، (١)

القرآن الذي هذا هو واقعه قد ثبت ثبوتاً قطعياً يغنينا أيضاً أنه نزل وحياً على محمد ، النبي الأمي ﷺ ، ولم يكن من تأليف أحد من الخلق ، ولا من نظمه فضلاً عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ ، أو من نظمه ، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، إذ حكم العادة البشرية جار على أن من لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي معلم قط ، يستحيل في حقه أن يأتي بمثل القرآن في علومه ، ومعارفه ، وشرائعه ، وآدابه ، وقصصه ، وأخباره ، يأتي بمثله من نفسه ، لا سيما وأن المنزل عليه ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتسكلم فيها بوحى ، ولم ينطق فيها بقرآن قط .

وبالجملة فإن دلالة القرآن على ما ذكرنا من وجود الله تعالى ، وعلمه ، وحكمته ، وقدرته ، ورحمته ، وعلى نبوة محمد ورسالته وفضله ، وشرفه ، وكمالته ، وعلى أن القرآن نفسه وحى الله ، وكتابه ، وأن الكتب التي سبقته هي كذلك كتب الله ، مُنزلة وموحى بها إلى من نزلت عليه من رسل الله ، وأنبيائه ، دلالة عقلية منطقية ، لا ترد بحال ، وبرهان عقلي لا يغلب بآخر ، وأن كل من أراد أن ينفي عن القرآن دلالاته العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يثورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي :

- ١ - وجود كلام بدون متكلم .
- ٢ - وجود علم بدون عالم .
- ٣ - وجود رسالة بدون رسول ولا مرسل .
- ٤ - وجود نبوة بدون نبي ولا منبئ .
- ٥ - وجود دلالة بدون دليل .
- ٦ - وجود أثر بدون مؤثر .

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه ، ويحاول أن ينسج دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً . وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات ، ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة ؟ اللهم ، لا .

ودليل الخبر ١

ما الذى نورده من الأخبار وهى متكاثرة متواترة ؟ إن العاقل الحى من الناس لينجمل إذا أراد أن يدل على وجود البدهيات العقلية ، والضرورات الكونية .

أرأيت لو قام أحد فى وسط جمع حاشد من الناس ، يدل لهم فى حماس على وجود الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، أو على حاجة العطشان إلى الماء ، والجامع إلى الطعام ، أو المريض إلى الدواء ، والخائف إلى الأمان ، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟

إذا فإن حال من نصب نفسه للناس يدل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتباً ، أو حاشاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب ، وعملوا بها ، واتفموا بهديها ، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من السكال البشرى ، ومنذ آلاف السنين ، لأعجب وأغرب من حال الأول - والله المستعان !

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان : هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ يقول تعالى في تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بين الناس : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (١) . ويقول في الامتحان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » . (٢) .

ويقول في الإخبار عن توحيده في ألوهيته ، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصدقاً لما بين يديه من الكتب التي سبقته ، وإنزال التوراة ، والإنجيل ، والفرقان : « السم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، (٣) . ويقول في تقرير وجهه إلى أنبيائه ورسله ، وإيتائه داود زبوراً ، وتكليمه موسى تكليماً ، وفي بيان الحكمة من إرسال الرسل . « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهرون ، وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً » . (٤) .

(١) سورة النساء الآية (٥٠) .

(٢) سورة النساء الآية (١١٣) .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١-٤) .

(٤) سورة النساء الآيات (١٦٣ - ١٦٥) .

ونكتفى بهذا القدر من أخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله القرآن الكريم ، فإن فيه من أخبار الله تعالى المصروفة بوحيه وكتبه ، وبأسماء كتبه ، وأسماء رسله الذين أوحى اليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفوس أناس في شأن الكتب الإلهية ، ووجوب الإيمان بها ، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام ، وشرائع وآداب .

أدلة وجوب الإيمان

بالكتب الإلهية ، وكونه

ركن الإيمان

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية لواجب شرعاً كما هو واجب عقلاً
وهذا بيان ذلك* :

أما كون الإيمان بالكتب الإلهية واجباً شرعاً فذلك لأن الله تعالى أمر
به أمراً جازماً لا يقتضى إلا طاعة الله تعالى فيه ، وتحريم معصيته إذ قال
تعالى فى الأمر بالإيمان بكتبه : **« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِى أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا »** (١) .

إن هذه الآية وحدها كافية فى الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى
عامة ، وبالقُرآن الكريم ككتاب الإسلام والمسلمين خاصة ، وفى تحريم
التكذيب بها ، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها ، مما هو وحى الله ، وكلامه
سبحانه وتعالى .

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان الإيمان السنة
التي لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها . وإنه - الإيمان
بالكتب - للركن الثالث من تلك الأركان ، التي هي بناء العقيدة الإسلامية ،
كما جاء ذلك فى الكتاب والسنة ؛ فى الكتاب يقول تعالى من سورة البقرة :
**« لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ،
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْمَلَائِكَةِ ، وَالْكِتَابِ ، وَالنَّبِيِّينَ »** (٢) ، ويقول : **« آمَنَ**

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، (١) .

ومن السنة حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه والذي جاء فيه سؤال جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، وجواب الرسول له بأنه : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره (حلوه ومرة) (٢) .

وأما كون الإيمان بها واجباً عقلاً فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها ، وإقامة الحجة عليهم بها ، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به ، ويصدقوه ، ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به ، والتشريع الإلهي نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويثبت فيه ، ليبقى بعد وفاة الرسول الذي جاء شرعاً محفوظاً ، تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى ، أو بنسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل ، فقد فسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة . ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما .

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذي جاء به ، أو ضاع الكثير منه ، وحينئذ يقول الناس : بيم نعبد الله ، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به ؟ ؟

وتكون لهم الحجة على الله تعالى ، وهذا ما لم يرد الله تعالى حيث صرح بنفسه في قوله : درسلا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، (٣) .

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٥) (٢) مسلم (١/٢٨ ، ٢٩)

(٣) سورة النساء (٢٦٥)

فهذه المسائل الثلاث :

• احتياج الرسول في إثبات رسالته إلى كتاب من ربه تقوم له به الحجة على قومه .

• افتقار التشريع الإلهي إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويثبت فيه .

• عدم إعطاء الناس الحجة على الله تعالى ببقاء التشريع الإلهي محفوظا في كتاب ، ثابتاً فيه ، هي التي اقتضت عقلا وجوب كتب إلهية ، كما اقتضت وجوب الإيمان بها ، وتصديقتها ، والعمل بما فيها ، لافتقار سعادة البشرية في الحياتين إليها ، وثوقها عليها .

منزلة القرآن الكريم بين

كتب الله تعالى

إن مما لا شك فيه عند الدارسين للقرآن الكريم ، الواقفين على أسرارهِ وعجائبهِ ، العالمين بما حواه من أصول التشريع وقواعده ، والمدرّكين للحقائق العلمية التي أثبتتْها ، ولفت النظر إليها - أن للقرآن الكريم منزلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول

وقد تتجلى هذه المنزلة العالية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط الخمس التالية والتأمل فيها : -

كونه ناسخاً لها لفظاً وحكماً ، فلا تُقرأ للتعبيد ، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام وذلك :

أولاً - لما داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان إذ لم يبق فيها ما يُحْزَم بصحة نسبته إلى الله تعالى أبداً ، عرف هذه الحقيقة وقررها المنصفون والمحققون من علماء أهل الكتابين معا .

وثانياً - كان التشريع فيها خاصاً ببني إسرائيل ، وموقوتاً بزمن معين ، وليس أدل على نسخ القرآن للكتب قبله من أمر الله تعالى لنبي القرآن محمد ﷺ أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ما ينتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم ، وذلك في قوله تعالى : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ^(١) بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

(١) أَلْ هَذَا تَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ فِيهِ فَهُوَ الْكِتَابُ الْفَيَّ أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ ، فَهُوَ الْحَرِيُّ بِأَنْ يَنْصَرَفَ إِلَيْهِ لَفْظُ الْكِتَابِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ ، وَمَعْنَى بِالْحَقِّ : مُتْلِساً بِهِ مُؤَيِّداً بِهِ ، مُشْتَمِلاً عَلَيْهِ ، مُقَرَّراً لَهُ .

لما بين يديه من الكتاب^(١) ومهيئنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ،^(٢) . وقوله : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ،^(٣) .

• كونه مهيئنا عايباً رقيباً شديداً ، فاصححه منها وأقره فيها صح وقر ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً عايباً ليس منها بطل وانتفى . كما جاء شاهد هذا في الآية السابقة « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه » .

• كون ما يحمل من التشريع الإلهي عاماً لكل الناس في أى مكان كانوا وفي أى زمان وجدوا ، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزل عليه ﷺ ، إذ قال الله سبحانه وتعالى « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ،^(٤) ، وقال « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ،^(٥) ، وقال « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ،^(٦) . بخلاف الكتب التى سبقتة فإنها كانت خاصة فى المكان والزمان ، ولا عموم فيها البتة .

• تعهد الرب تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، إذ قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ،^(٧) . وقال : « وإنا لكتاب عزيز ،

(١) آل فى الكتاب للجنس أى من جنس الكتاب ، فيدخل فى ذلك التوراة والزبور والإنجيل وغيرها .

(٢) سورة المائدة الآية (٤٨)

(٣) سورة النساء الآية (١٠٥)

(٤) سورة الفرقان الآية (١)

(٥) سورة الاعراف الآية (١٥٨) .

(٦) سورة سبأ الآية (٢٨)

(٧) سورة الحجر الآية (٩)

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، (١) . لحفظه
 الرب تبارك وتعالى بأن قيض له رجالا أمناء، حفظوه في صدورهم، وسطورهم
 فلم تقو يد الزمان، ولا يد العدوان على أن تزيد فيه حرفا، ولا أن تنقص
 منه حرفا، بخلاف غيره من الكتب وخامة التوراة فقد ضاعت كلها في غزو
 بختنصر البابلي لمملكة بني إسرائيل، ولم يثر عليها إلا قبا بعد، ثم ما إن
 جمعت والله أعلم بصحة ما جمع فيها حتى تسلط عليها عبدة المادة فحرفوها وبدلوا ما
 حسب مصالحهم وأهوائهم، أما الإنجيل فيكفي في الدلالة على عدم حفظه
 أنه اليوم خمسة أناجيل (٢)، بعد أن كان يوم نزوله إنجيلا واحدا . ١١١

• شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج
 رباني يحقق لسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة متى آمن به وعمل بما فيه .
 قال تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون
 من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به
 الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم
 إلى صراط مستقيم، (٣) .

(١) سورة فصلت الايتان (٤٢، ٤١)

(٢) من إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا وبرقايا والأنجيل أصحابا وقد أخذني
 من القرن الرابع إلى القرن السابع عشر . الميلادي

(٣) سورة المائدة الايتان (١٥ - ١٦) .

لوحة مشرفة

ببيان ما في القرآن من الهدى

والخير

إن في القرآن المجيد من الهدى والخير لبنى الناس كافة ما لا يوجد اليوم
— والله — معشار عشره في كتاب غيره ، وفي الأرقام التالية بيان ذلك
وتحقيقه : —

١ — الهدى الموصل إلى كل خير ، والمرشد إلى كل كمال ، والهادى إلى
معادة الدارين ، قال منزله سبحانه وتعالى : التمس ، ذلك الكتاب لا ريب فيه
هدى للمتقين ، (١) .

٢ — الرحمة بأنهم معناها ، الرحمة التي نعم الإنسان ، والجان ، والحيوان
والكبير والصغير ، والكافر والمؤمن ، والحى والميت . قال تعالى في اثباتها :
« التمس ، تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدى ورحمة للمحسنين » ، (٢) .

٣ — الشفاء : التام العام لجميع الأمراض العقلية ، والنفسية ، والقلبية
شفاء من الكفر والشرك ، والقلق والاضطراب ، والحيرة والخوف ، والكبر
والحسد ، والكسل والعجز ، والبخل والشح ، والظلم والحرف . قال تعالى
في اثبات هذا الشفاء وتقريره :

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، (٣) .

(١) سورة البقرة الايتان (١ - ٣) .

(٢) سورة لقمان الايات (١ - ٣) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٢) .

٤ - النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية ، والمبدد لسائر الجهالات النفسية ، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية . قال تعالى في تقرير نورانيته : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (١) .
 ٥ - الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة ، قال تعالى في ذلك : « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور » (٢) .

٦ - البشـرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتـهما . قال تعالى في ذلك : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٣) .

٧ - الحق الإلهي الثابت في نفسه ، المحقق المثبت لغيره من كل ماهو حق ، فكل حق القرآن يؤيده ، والقرآن يقرره ، قال تعالى : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » (٤) وقال : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » (٥) أي متلبساً به مشتملاً عليه ، مؤيداً له ، ومقرراً .

٨ - الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب ، وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتزكو بالعمل به النفوس . الذكر المكتسب للشرف ، والماوصل للحضرة . القدس ، والرافع إلى ملائكة الأختيار . قال تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر » (٦) وقال في الحديث عنه : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (٧) .

٩ - الخير العام لكل إنسان ، وحيوان ، فما من كائن في هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن من يوم نزوله إلى يوم رفعه إلى الله ، وقبضه إليه ، اللهم الا من كان من المطرودين من شياطين الانس والجان ،

-
- (١) سورة النساء الآية (١٧٤) . (٢) سورة يونس الآية (٥٧)
 (٣) سورة التمل الآية (٨٩) (٤) سورة الاسراء الآية (١٠٥)
 (٥) سورة المائدة الآية (٤٨) (٦) سورة ص الآية (١)
 (٧) سورة الزخرف الآية (٤٤)

المبلسين من كل خير . قال تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟
قالوا . خيراً » (١) .

١٠ — التبيان والبيان لكل شيء ما الانسان في حاجة إليه مما
تنوقف عليه سعاده دنيا وأخرى . قال تعالى . « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً
للكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٢) .

١١ — الروح التي تنوقف عليه حياة الإنسان ، فالقرآن هو الروح
اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة . ان الناس بدون أن تسرى فيهم الروح
القرآنية أموات حقاً ، لا ينتفعون بوجودهم ، ولا بحياتهم المادية ، قال
تعالى في هذا : « وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ما كنت تدري
ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ،
وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (٣) .

(١) سورة النحل الآية (٣٠) (٢) سورة النحل الآية (٨٩)

(٣) سورة الشورى الآية (٥٤)

شروط الاعتداع بنام بما في القرآن

من سير والهدى

لما جاء مخرج من هذه الدراسة لتسوية بطور القرآن ومعاينه يتبين لنا بحق
وصدق أن في القرآن الكريم من الهدى والخير ما يكفل للإنسان سعادة ،
في دنياه وأخراه ، غير أننا نلاحظ هنا النظر لتلك الدراسة نجد أن ما في
القرآن من الخير والهدى مخصوص بـ "سبعة" بصفات أربع هي : الإيمان ،
والإسلام ، والإحسان ، والسير . واستجمع تلك الصفات فقد تهيأ لتلك
التي هي : الرقية ، وفان بما في سير من الخير والهدى ، ومن قصر عنها ،
ولم يستكملها فإن حصه منه بقدر حصه منها .

وهذا إيضاح لسبب الصفات الأربع :

١ — الإيمان : بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول الله عن الله ،
ويؤمن إيماناً خاصاً بما في القرآن من الهدى والخير إيماناً يحمله على تعرفه عليه ،
وطبقة منه ، وعلقت بدراسة القرآن ، والنسب بما فيه من العقائد والشرائع ،
والآداب ، والسير .

٢ — الإسلام : بأن يسلم المرء تسليماً قلبه ، ووجهه ، فيستخر كل شيء
فيه تسليماً بحيث لا يكون له عم إلا الله تعالى ، فيعيش طالباً لما يرضاه الله من
استغناء ، وقول ، وحسن ، وسبباً ، حتى ما يسخطه الله تعالى من إعتقاد ،
وقول ، وعمل .

٣ — الإحسان : بأن يحسن في دينه وإسلامه ، فيعيش يراقب الله تعالى
في كل ما يأتي ويذكر ، وما يتم وما يؤخر ، يراقبه في ساعة كما يراقبه في
معصيته ، ويبذل أمره يراقبه في حركاته يسبق ويسبقها برتقان ، وفي

مساخطه فيتجنبها في بغض لها ، ويبتعد عنها في كره منه لها تام .

٤ - التقوى: بأن يتقى الله تعالى في أن يترك به ، أو أن يسبب به بترك ما أوجب عليه ، أو اتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له .

وكلمة أخيرة أن من استكمل هذه الصفات ، وحققها كما هي موضحة أعلاه ، ومبينة فيما سلف فقد استوجب كل ما في القرآن من خير وهدى ، وتحقق له ذلك كاملاً ، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه ، والرحمة في قلبه ، والنور في بصيرته ، والذكر والموعظة في قلبه ، والبيان في لسانه ، والحق في حكمه ، والبشرى في حياته وآخرته .

وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم ينتفع بما في القرآن من الهدى والخير ، وليس ذلك عانداً إلى أن القرآن نقد منه هداً وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه . وإن لذلك مثلاً نضربه هو وجود مريض يُوصف له دواء نافع ، ويسدّم له ، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله ، فيبقى الدواء في خزانته ، ويبقى هو يمانى من آلام مرضه إلى أن يُسكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفى من مرضه ، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يمانى من أسقامه ، وأوجاعه حتى يموت بها ويموت . فهل الذنب في هذا ذنب الدواء ؟ والجواب لا ، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء وهو بين يديه ، فكان حاله كحال من قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ

ولما فوق ظهورها محمول

تقرير أخير لعقيدة المؤمن في الكتب الأربعة

القرآن ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل

أن المؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب إجمالاً فيما لم يعرف ، وتفصيلاً فيما عرف . فآمن بصحف إبراهيم ، وألواح موسى وتوراته ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهي هو أكمل الكتب ، نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب ، لأنه متأخر عنها في النزول ، وسنة النسخ وطريقته دائماً أن يسخ المتأخر المتقدم ، واللاحق السابق ، ولأن الرسالة التي تضمنها رسالة عامة لكل الناس أبيضهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ، وأسودهم ، فلم تكن مخصوصة بشعب دون آخر من شعوب البشر ، كما أن الكتب المتوفرة والموجودة لدى نزوله كالنوراة ، والزبور ، والإنجيل كان قد دخلها التحريف ، والتبديل ، والتغيير ، والزيادة ، والنقصان ، وذلك بنسيان أهلها لاكثرها ، ولانقطاع سندها إلى من أوحيت إليهم من أنبياء بني إسرائيل ورسلمهم ، كما هو معروف ومسلم لدى عقلائهم ، والمنصفين منهم . فأصبحت تلك الكتب لا تمثل حقيقة كتب الله تعالى ، ولا تحمل الهدى ، والنور ، والرحمة ، والموعظة لأهلها ، فضلاً عن غيرهم فلم تكن قادرة على الإصلاح ولا الهداية للخلق ، ومن ثم اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن يجدد لهم عهد النبوة بعد اندثارها ، وعهد الوحى بعد اندراسه ، فيبعث الله تعالى النبي الخاتم ، النبي المنتظر ، النبي الأمامي محمداً ﷺ ، وأن ينزل عليه الكتاب الكامل الجامع ، فينسخ به سائر الكتب ، وضمنه هداية الأبيض والأسود ، والعربي والعجمي من الناس أجمعين .

فهو الكتاب الذي أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب ، ومهيماً عليها ، وأمر محمداً عبده ورسوله أن يحكم به بين الناس كافة إذ قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم » (١) . وقال عز وجل : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (٢) . فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب الله تعالى ، ونسخ الدين الاسلامي لسائر الأديان السابقة . قال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » (٣) ، وقال : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٤) .

وقال رسول الله ﷺ مينا نسخ كتابه ، القرآن ، لغيره من الكتب ، ونسخ دينه ، الاسلام ، لغيره من الأديان ، قال : « والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى » . قاله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أناه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأ عليه ، فنضب ، وقال : « لقد جتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم - أهل الكتاب - عن شيء فيخبروكم بحق ، فتكذبوا به ، أو باطل فتصدقوا به ، والذي نفسى بيده . . . الخ » (٥)

وكيف لا يكون إلا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزم به

(١) سورة المائدة الآية (٤٨) .

(٢) سورة النساء الآية (١٠٥) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩) .

(٤) سورة آل عمران الآية (٨٥) .

(٥) رواه أحمد والبخاري وابن أبي شيبة وإسناداه صحيح .

من اتباع موسى عليه السلام له فضلا عن أمته، والله تعالى يقول : « وإذ أخذ
الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول يستدق لما
معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ (١)
قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك ،
فأولئك هم الفاسقون ، (٢) .

(١) إصرى : قال ابن جرير : عهدى وورسيتى .

(٢) سورة آل عمران الآيتان (٨١ ، ٨٢) .

الركن الرابع

الإيمان بالرسول عليهم السلام

مقدمات :

(أ) إمكان الوحي :

تعريف الوحي :

الوحي اسم مصدر من أوحى إليه بكذا يوحى إِيحَاء : إذا أشله بمراذه في سرعة وخفاء .

فالوحي إذاً هو الاعلام السريع الحق ، وبأى واسطة حصل ، إذ ليس شرطاً فيه أن يكون من قرب ، أو بقول ، أو بين متجانسين ؛ فقد قال تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل : أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ، وما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً .. » الآية (١) .

وقال تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعبه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ... الآية » (٢) .

فقد أعلم الله تعالى النحل مراده ففهمت عند ذلك ، ونفذته كاملاً ، ولم يكن هنا قرب ، ولا قول . ولا تجانس مما يعرف الناس في حياتهم المادية هذه . كما أنه تعالى أعلم أم موسى بمراذه ففهمته ، ونفذته كاملاً تاماً ، وبدون قرب أيضاً ، ولا قول ، ولا تجانس أبداً بين الموحى ، والموحى إليه .

فالوحي بهذا المعنى ممكن ، ولا معنى لانكاره أبداً ، ونقول هذا تنزيلاً مع الشاكن فقط ، وإلا فالوحي تدويع ، وتم ، ومنذ وجد الانسان الأول على سائر الارض وهو آدم عليه السلام .

(١) سورة النحل الايتان (٦٨، ٦٩) (٢) سورة التمسس الآية (٧) .

والذين كلت أذهانهم أمس عن فهم الوحي وإدراكه لم يبق لهم اليوم من عذر في دعوى كلال الذهن عن فهم الوحي وهم يشاهدون الانصالات السلكية واللاسلكية ، والاذاعية وغيرها .

وقد بلغهم أن الاكتشافات العلمية أثبتت بما لا مجال للشك فيه أن الوحي بالمعنى الذى قررنا موجود حتى بين الحيوان وأخيه الحيوان ، بل بين أصغر الحشرات كالفراش والنمل وما إلى ذلك ، فيتم الاعلام السريع الخفى بين حيوان وآخر وبدون قرب بل أبعاد شاسعة ، وبدون قول أيضاً ، ولا مشابهة البتة .

فالوحي إذا ممكن وموجود ، وإنكاره يعد إنكاراً للحس ، وتكذيب بالواقع المشاهد . نعم الوحي تختلف وسائله ، فالوحي الالهى كان يتم بوسائل متعددة ، وكيفيات مختلفة وفيما يلى : بيان ذلك .

الوحي الإلهي وطرقه

تعريف :

الوحي الإلهي هو ما يوحى به الله تعالى من كلماته الصادقة في أخبارها ،
العادلة في أحكامها ، بطريقة من طرق الوحي إلى من يصطفى من الناس ،
ولا شاهد أقوى على وجوده وإمكانه من كلام الله تعالى الموجود بين أيدي
المؤمنين بقرونه محضاً لم يشب بكلمة واحدة من كلام الناس ، وهو القرآن
الكريم الموحى به إلى النبي محمد ﷺ آيات وسوراً ، شيئاً فشيئاً حتى
اكتمل نزوله ، ووحيه في خلال ثلاث وعشرين سنة .

وقد حاول خصومه منذ شروق أنواره أن يبعده عن حقيقته ، ويخرجوا
به عن كونه وحياً تلقاه النبي محمد ﷺ من ربه كما قال تعالى : « وإنك لتلقى
القرآن من لدن حكيم عليم » (١) .

حاول أولئك الخصوم أن يخرجوا به عن حقيقته ، فقالوا : سحر ،
وقالوا : شعر ، وقالوا : أساطير الأولين ، وقالوا غير ذلك . بيد أنهم لم
تطل بهم الحياة حتى أذعنوا للحق ، وسلموا أنه وحي الله وكلامه ، الذي
أوحاه إلى صفوة خلقه ، وسيد أنبيائه ورسله محمد ﷺ ، فآمنوا به ،
وعملوا بهدأته ، فكمّلوا ، وسعدوا ، وسادوا أيضاً .

ولتلقى الوحي الإلهي طرق يبينها الله تعالى في كتابه بقوله من سورة
الشورى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، » .

(١) سورة النحل الآية (٦) .

أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم^(١) . ف هذه ثلاث طرق لتلقى الوحي الإلهي : -

الأولى : الوحي المباشر وهو أن يعد الله تعالى قلب العبد اعداداً خاصاً بتصنيفته من الكدورات ، والرعونات النفسية ، ثم ياتى إلى صاحبه بكلماته التى أراد أن يوحى بها إليه . فيتلقاها ذو القلب المظاهر وهو النبي من أنبياء الله تعالى ، ويعيها وعياً كاملاً صحيحاً ، وهو جازم بأنها كلام الله تعالى ، ووحى إليه ، وذلك لما يجد في نفسه من ضرورة تحتم عليه ذلك وتضطره إليه أكثر من ضرورة معرفة أحدنا بوجوده إنساناً حياً بين الناس ، أو بضرورة معرفة صوت ، أبيه أو أمه أو أخيه ، ذلك الصوت الذى عاش دهرأ يسمعه ، ويفرق بينه وبين سائر الأصوات .

الثانية : أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله فيسمعهم كلامه المباشر مع القرب وبدونه ، ولكن من وراء حجاب ، فيسمع النبي الكلام ولا يرى المتكلم ، وقد تم هذا للنبي محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في الملكوت الأعلى ، إذ أُعرج به ﷺ حتى بلغ سدرة المنتهى ، وكلمه ربه تعالى ، وفرض عليه الصلوات الخمس هذه التى يصلها المؤمنون خمس مرات في كل يوم وليلة ، غير أنه لم يره ربه تعالى ، فقد سئل عن ذلك فقال : « نور أنى أراه »^(٢) . أما قوله تعالى من سورة النجم « ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى »^(٣) . فإن الضمير في قوله

(١) الآية (٥١)

(٢) حديث الاسراء ثابت في الصحيحين وغيرهما التواتر والمرجان (٣٥/١)

وقوله ﷺ نور أنى أراه رواه مسلم (١١١/١)

(٣) الايات (١٣-١٨)

تعالى « ولقد رآه نزلة أخرى ، عاهد إلى جبريل عليه السلام وليس عائداً إلى الله تعالى .

كما تم هذا التكلم من ورده حجاب لموسى بنى إسرائيل عليه السلام ، وكان بجبل الطور من سيناء حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، ونباهه ، وأوحى إليه ، وأرسله إلى فرعون وملائه ، كل هذا وموسى عليه السلام يسبح كلام الله تعالى المباشر ، ولا يرى الله تعالى مُكلمه عز وجل حتى تأتت نفسه (رؤيته) ، فسأل ربه ذلك فقال : « رب أرني أنظر إليك ، فقال الله تعالى له : « لن تراني » (١) . وأقنعه ببعده عن الرؤية لله تبارك وتعالى ، فأمره أن ينظر إلى الجبل وقد تجلى له ، فصار دكا فنظر موسى إلى الجبل فلم يقو على رؤيته فخر ، فغشى عليه فلما أفاق من غشيته قال : « سخطك بتت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٢) .

الثالثة : أن يوحى الله تعالى إلى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله إليه ؛ وكان جبريل عليه السلام موكلًا بالنبي ﷺ ، وهو الذي صحبه في إسرائه ومعراجه (٣) ؛ وما زال معه بأنه يوحى ربه حتى

(١) سورة الأعراف الآية (١٤٣)

(٢) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

(٣) إن الإسراء والمعراج المجهدين : يتلن بالكتاب والسنة ، ففي الكتاب من سورة الإسراء يقول تعالى : « سبحان الذي أخرجنا من هذه الأرض الحرام إلى هذه الأرض الحرام ، أتريه من آياتنا ، ففي هذه الآية تصريح بالإسراء وأنه كان من المسجد الحرام مكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، وفي قوله أخرجنا من آياتنا ، إشارته إلى المعراج عند التصريح بالإسراء إذ المعراج تم مع الإسراء في رحلة واحدة ، كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة . وفي قوله تعالى من سورة النجم :

ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى فنتهاجه المورى ، إذ ينشئ السجدة =

قُبض ﷺ ، والملك الرسول يأتي أحياناً في صورته الملائكية ، وأحياناً يتمثل بشراً كما تمثل لمريم البتول عليها السلام ، وقال لها لما استعانت بالرحمن منه : « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ، قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولتجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ، (١) .

كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبي وجاءه مرة في صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ وأخذ ركبته إلى ركبته ، ووضع يديه على فخذه ، وأخذ يسأل الرسول ﷺ . والرسول يجيبه وهو يصدق به قوله : « صدقت ، حتى عجب الصحابة منه ، كيف يسأله ويصدق .

== ما يغنى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدة المتهى عند جنة المأوى ، وفي المسكوت الأعلى وما في الآيات من إجمال لحادثة الإسراء والمعراج فقد بينه السنة وفصله أيما تفصل إذ أغلب كتب الصحاح والمسانيد قد روت حادثة الإسراء والمعراج مفصلة . ولما كانت عقيدة المؤمن مبنية على أساس تصديق الله والرسول في كل ما أخبرا به وجاء عنهما فإن تصديق المؤمن بحادثة الإسراء والمعراج ليس موضع شك أبداً كما أن إثبات هذه الحادثة لا يتطلب دليلاً بعد إثبات الكتاب والسنة لها إن الإسراء والمعراج نبأ للنبي محمد ﷺ بروحه وجده ويقظة لا مناماً وذلك في السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية ، ولا التفات إلى رأى من يقول بحصولها بالروح دون الجسد ، أو في المنام دون اليقظة إذ هذا الرأى فاسد وباطل لما فاته معنى (أسرى بعبد) ولرفض سلف هذه الأمة له وإنكاره على قائله ومرثيب .

ولما انصرف أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه فطلبوه فلم يظفروا به ، فقال لهم : إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم ، (٢) .

ب - ضرورة الوحي ، وحاجة الناس إليه :

إن الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الإنسان على هذه الأرض ، يكابد فيها حياة طويلة فرُضت عليه ، وقدرت له ، ولا ينتهي منها إلا بابتها . هذا الكون وانقراضه ، حيث ينقل إلى ملكوت آخر فهو في هذه الرحلة الطويلة من حياته لا بد له من تعاليم من ربه تنظم حياته ، ولا بد له من هدى يعيش عليه ، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي ؟ فالوحي إذا ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال .

وضرورة الوحي ، وحاجة الإنسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الإنسان مكون من روح وجسد ، وأن العالم عالمان علوى وسفلى ، وأن الحياة حياتان : أولى تنقضى ، وثانية تدوم ولا تنتهى ، وتبقى أبداً ولا تنقص ، وأن بين الحياتين برزخا تنقضى فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية ، ويبان ذلك : أن كون الإنسان روحاً يقتضى وحياً إلهياً ، يخبره عن الروح ، وصفاتها ، وأحوالها ، وأسباب كمالها ونقصانها ، وسعادتها وشقاها . وأن كون الإنسان جسماً يقتضى كذلك وحياً إلهياً يبين له فيه طرق المحافظة على جسمه ، وبضع له القوانين ، التى تساعد على بقاءه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة . وأن كون العالم عالمين علوياً وسفلياً يقتضى وحياً إلهياً يخبره عن العالم العلوى ، وما فيه ، لعجز الإنسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة ، وإدراكه دون الوحي الإلهي ، وأن كون الحياة حياتين يقتضى كذلك وحياً إلهياً يعرف الإنسان بواسطته الحياة الثانية ماذا فيها ؟ وما الذى يتم للإنسان يوم يُنقل إليها ؟ إذا مثل هذا لا يدركه الإنسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي الإلهي بحال من الأحوال .

(٢) مسلم (٢٨/١) ، (٢٩) .

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحي الالهي ، وجعلته حاجة من حاجات الانسان التي لا يستغنى عنها بحال ، فالوحي إذاً مع إمكانه هو ضرورة من ضرورات حياة الانسان ، وحاجة من حاجاته ، وإنكاره والتكذيب به يُعد خطأ عقلياً كبيراً ، وعجزاً فكرياً مُشيناً ، وفساداً فطرياً خطيراً ، لأن إنكار ما هو موجود وواقع ، وجحود ما هو ضرورة للحياة ، وحاجة أكيدة لها لا تفره العقول ، ولا توافق عليه بحال أبداً .

(ج) النبوة .

تعريف :

النبوة اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره ، ومنه قولهم . نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس ، أو هي اسم مشتق من أنبا فلان غيره يلبثه إنباء إذا أخبره بخبر ذي شأن ، ولهذا يقال النبوة بالهمزة بعد الواو وبها قرأ ورش عن نافع : « وآتيناه الكتاب والحكم والنبوة »^(١) . وقرأ حفص عن عاصم النبوة بواو مشددة . ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه وذلك بقلب الهمزة واوا ، وإدغامها في الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة .

وبناء على هذا فالنبوة الشرعية هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، والإعلام من شأنه بإنبائه بالوحي الذي أراده له ، أو له ولغيره .

والأنبياء جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال نبيوه كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غالبه ، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوة .

والنبي : ذكر من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بأمر ، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول ، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول ، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه ، والنبي من أوحى إليه بشئ . ولم يؤمر بإبلاغه لاختصاصه به دون غيره من الناس ، وعليه فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً . ومثال النبي غير الرسول يوشع بن نون صاحب موسى وقاه عليهما السلام ، قد نبأه الله تعالى ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل وهو الذي غزا بيت المقدس وفتحها الله تعالى عليه .

ومثال النبي الرسول نبينا محمد ﷺ ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين ، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى في بحث هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن .

د - مؤهلات النبوة

الذي يلزم أن يُعلم هنا أن النبوة لا تأتي من طريق الكسب والاجتهاد أبداً ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ، وتخلّى عن سائر الحظوظ النفسية ، وعن كل الرغبات ، والشهوات ، وسائر متع الحياة ، ولذا نذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبياً أو رسولاً بحال من الأحوال . إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله وأهبا من أهله لها من عباده المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسى ، والضلال العقلى ، والفساد الخلقى ، والانحراف الفطرى ، ويضفى عليه من الكمالات النفسية ، والعقلية ، والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف ، ومن المؤهلات للنبوة ، وتلقى الوحي الإلهى : -

١ - المثالية : ونعني بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوز به المرء المرشح لمقام النبوة ، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس .

٢ - شرف النسب : إن عامل الوراثة سبق أن قررناه ، ولم ننكره ، وهو أن كثيراً من الصفات ، والخصائص ، والمميزات تنتقل بهذه السنة الإلهية (عامل الوراثة) من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء ، يبعثون في أشرف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام : الترفع عن الدنيايا الخلقية ، والنزاهة عما يخل بالمروءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل ملوك شائن منحرف ، تكبره الطباع البشرية السايمة ، وتشتمز منه النفوس الكريمة .

٣ - عامل الزمن : إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين ، تحتم بعثة نبي ؛ وإرسال رسول ، وتقضيته . ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير ، فأصبحت الحال تتطلب نبياً مصلحاً ، يرد للحياة اعتبارها ، والإنسان قيمته ، وذلك كالفرغ الذى كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وكذلك كان قبل نبوة عيسى ورسالته عليه السلام وكذلك كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته ؛ فإن الأحوال التى كانت سائدة فى تلك الأزمنة الثلاثة كانت تلح مطالبة بنبوة نبي ورسالة رسول ، لإصلاح البلاد والعباد ، وكان الناس يومها يشعرون بالحاجة الملحة إلى نبوة تغير الأوضاع الفاسدة التى سادت يومئذ ، والذين قالوا الفرعون إن زوال ملكك سيكون على يد رجل من بنى إسرائيل وبنو إسرائيل يومئذ مستعبدون ، مضطهدون أكثر من غيرهم ، لا شوكة لهم ، ولا قوة ، هذا القول وإن نسب إلى الكهنة فإنه هو نفسه عامل الزمن ، وهو الشعور العام بالحاجة إلى مصلح يصلح الأرض بعد أن أفسدها الطغيان الفرعونى ، وجبروت الكبر ، وفساد العلو فى الأرض ، والإسراف فى الشر .

كما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية كان يوحى بقرب نبوة مصلحة ، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها ، بل صرحوا بقربها ، وجأهروا به ،

وانظروه، لذا بادركثيرمنهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولم ينهدوا في ذلك بمجرد ظهورها، وذلك كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود وغيرهما من أحبار اليهود، ورهبان النصارى، وذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذى انتظم العالم بأسره وبخاصة جزيرة العرب، وبلاد الروم، وفارس، وهى تمثل العالم الإنسانى تقريباً (١).

وبحسب القول أن وجود فساد عام فى الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد، وذلك لما غرز الله تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية، وقربها كلما عم الشر، وعظم الفساد شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء، وتطلعه إليه.

وهاهى ذى البشرية اليوم فى حاجة ملحة إلى نبوة إلهية تصلح فسادها، وتخرجها من محتها المادية التى تعانى منها. والنبوة الإلهية موجودة بين أيدينا ولكن الذى أعوزنا العبرى الملمم الذى يحملنا على الاهتداء بهديها، والسير على ضوء هدايتها، حتى ننجو من هلكتنا؛ ونسعد فى حياتنا. إن النبوة المطلوبة هى نبوة محمد ﷺ، وهى محفوظة لم تُشب بفساد، ولم تخاطب بباطل ولم يمسها سوء، ولأمر ما حفظها الله تعالى سالحة نقية بعد مضى زمن طويل على ظهورها، وما يدرينا أن الله تعالى قد ادخر لنا عباده المؤمنين، سيظهر فى يوم ما من الأيام فيملأ به الأرض طهرا وعدلا بعد ما ملئتُ خبيثاً وظلماً.

(١) ويشهد لهذا القرآن الكريم إذ جاء فيه قوله من سورة البقرة: ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها، فهى شهادة القرآن بأن الأرض كانت قبل البعثة المحمدية فاسدة، وأن الله تعالى قد أصلحها بها.

٥ - صفات الأنبياء :

إن النبوة تلين لجل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد في أحدهم أبداً ، إذ هي واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى ، إلى عبادته ، ومن تلك الصفات .

١ - الصدق : صدق النية ، والإرادة ، صدق القول ، والعقل بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بهذا الصدق وهو الكذب ، والنفاق ، أو الإهمال ، واللامبالاة ، والمتنبه لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ، ويؤمن بها .

٢ - الأمانة : الأمانة في كل شيء في القول والعمل ، في الحكم والقضاء في الحديث والنقل ، في الرواية والتبليغ ، في السر والعلن معاً ، إذ يستحيل أن يتصفوا بهذا وهي الحياة بحال من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبداً ، ولو في أقل الأشياء وأنفها ، ومتى وجد شيء من الحياة فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً .

٣ - التبليغ : والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفي منه شيئاً ، ولا يكتمه بحال من الأحوال . فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحى إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ، والكتمان للروحى الإلهى بشعور على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ، ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهملهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير . ففى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتقضت الرسالة .

٤ - الفطنة : إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هي مع ذلك رقة الشعور ، وصفاء الذهن ، ورهانة الحس وصدقه ، وسرعة البدهاه . على حد قول حسان بن ثابت في النبي محمد ﷺ :

لو لم يكن فيه آيات مينة

كانت بسببه تأنيك بالخبر

إذ الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحي ، والأمانة عليه ، فالنبأ ، وبلادة
الحس ، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة ، وشرف التلقى عن الله تعالى ،
وسوف نكشف عن هذه المؤهلات ونجلى الكثير من معانيها إن شاء الله تعالى
عند الحديث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، إذا هو المقصود بهذه الدراسات
كلها ، وذلك لوجود رسالته قائمة بين أيدي الناس ، ولحاجة الناس إليها .

الرسول عليهم السلام

نثرقتل في التاريخ :

لقد سبق أن عرفنا الرسول في اصطلاح الشرع وهو : ذكر من بنى آدم أوحى إليه بشرع ، وأمر بتبليغه ، وأنه بوحي الله تعالى إليه أصبح نبياً ، وبارساله كان رسولا .

والآن نعرض لجملة من تاريخ الرسل فنقول : ان التاريخ الذي كتبه يد البشر ومهما كانت اليد الكاتبة أمينة ، وعاصمة لتاريخ ناقص عن توفية الرسل ختمهم فيما وهبهم الله تعالى من الكمال ، وقاصر عن اعطاء الصورة الواضحة لرسول الله وأنبياؤه الذين لم تخل من وجودهم فيها أمة من الأمم ، ومن بدء الخليقة الى أن ختموا بإمامهم ، وسيدهم ، محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم قسليهما كثيراً ، لقول الله تعالى : « وإن أمة إلا خلا فيها نذير ، (١) » .

ومع هذا فإنه لا يوجد في مصادر التاريخ اليوم ما يُعول عليه في هذا ، الشأن ، وما يعتمد عليه في هذه المهمة العظيمة ، وهى التاريخ الصادق الكامل لصفوة الخلق ، وخلاصة البشر الرسل عليهم السلام ، اللهم الا ما كان من كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، فإنه المصدر الوحيد الموثوق ، الذى لا يُعدل به غيره ، ولا يلتفت معه الى سواء ، اذ لا يعرف الأنبياء ، كمن نبأهم ، ولا يعرف المرسلين المصطفين كمن اصطفاهم وأرسلهم . فحسبنا اذا القرآن في هذا الشأن فنكفى بإيراد بعض ما جاء فيه عن رسل الله من حيث عددهم ،

وبيان زمن وجود كل منهم ، ومعرفة أسمائهم ، ومعرفة أعاضلهم وأولى العزم منهم ، وذكر بلادهم ، وأقوامهم ، وما إلى ذلك من تاريخ حياتهم .

عدد الرسل

لم نشك أبداً فى أن الرسل كانوا جماً غفيراً ، وذلك لقول الله تعالى :
 « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (١) ،
 وقوله : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٢) . غير أننا لا نستطيع أن
 نحزم بعدد معين لازيد عليه ، ولا نقص منه ، ذلك لعدم ثبوته عن الوحي
 الإلهى ، والخبر النبوى الصحيح ، وكل ما ورد عن النبى ﷺ فى بيان عدد
 الأنبياء والمرسلين حديث أبى ذر الغفارى فى مسند أحمد وسنده ليس بالقوى
 كما قيل ، ولفظه : « قلت : يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ »
 قال آدم ، قلت : يا رسول الله أبى كان ؟ قال نعم ، نبى ، مكلم ، قلت
 يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً . وفى لفظ :
 « كم وفاء عدد الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأريرة وعشرون ألفاً ، الرسل منهم
 ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً » (٣) . فى هذا الخبر المرفوع بيان أن آدم كان
 نبيا يكلمه الله تعالى ، ويوحى إليه ، وبيان عدد كل من الأنبياء والمرسلين ،
 ولا يبعد أن يكون هذا الخبر صحيحاً وإن ضعف سنده . وذلك لما فيه من
 آثار طابع النبوة وروحها .

ولما لم يجد علماء الإسلام بديلاً عنه قالوا بالملعى الذى جاء فيه لحكموا

(١) سورة النحل الآية (٣٦)

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤)

(٣) أحمد (١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٧٨ / ٥)

بنبوة آدم ، وحدثوا أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، وأن المرسلين منهم ثلثمائة وخمسة عشر . ، ولا تريب عليهم في ذلك لعدم وجود ضرر يترتب على القول بهذا الخبر ، إذ هو كإخبار بني إسرائيل تصح روايتها للاختبار بها ، إذا لم يوجد في الإسلام ما يناقضها ، (١) . أو يقتضي معها .

فمن وجوه كل منهم

إن تاريخ الرسل عليهم السلام يبتدىء بآدم أبي البشر عليه السلام ، ووجوده في الأرض ، وتكاثر أبنائه فيها مقتضى للوحي الإلهي ، اذ به تتكامل آدمية الإنسان ، وبه يتم شرفه ، وعليه تزكو نفسه ، ويتأهل للتعاذة في الحياتين الأولى والآخرة .

ولم يعرف الناس نبياً من أولاد آدم لصلبه اللهم الا ما كان من شيث عليه السلام ، فإنه روى أنه كان حفيداً لآدم أبي البشر النبي عليه السلام ، وقد أنزل عليه عدة صحف ، تعرف بصحف شيث عليه السلام . وجاء بعد شيث نبي الله ورسوله إدريس عليه السلام وهو مذكور في الكتاب الكريم ، وتقول الأخبار انه من ذرية شيث عليه السلام .

ثم جاء نوح عليه السلام وهو أول رسول كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح ، والنبيين من بعده » (٢) .

(١) ولا يقول قائل بل جاء في القرآن ما يقتضي معها وهو قوله تعالى : ومنهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك فاتنا نقول المنى هو اختيارهم ، وأسمائهم وأحوالهم مع أهمهم . أما خبر إجمال كذا فانه لا يقتضي مع الآية أبداً .

(٢) سورة النساء الآية (١٦٣)

ثم جاء بعده هود فصالح فأبراهيم ، فلوط ، فإسماعيل ، فإسحاق ، فيعقوب ، فيوسف ، ثم شعيب ، فموسى فهارون ، فداود ، فسلیمان . ثم الياس فأیوب ، واليسع ، وذو الكفل ، ويونس ، وزكريا ، فيحيى ، وعيسى ، ثم خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وهذا الترتيب الزمني صحيح الى حد ما ، ولولا الخفاء في زمن كل من يونس ، وأیوب ، وذو الكفل ، واليسع لكان إلى الصحة أقرب منه إلى غيرها . والحقيقة في هذا أنه من باب علم لا ينفع ، وجهالة لا تضر ، إذ المطلوب هو الإيمان بالرسول ، وتوحيدهم ، وتعزيرهم ، واتباعهم ، والاقتداء بهديهم في أى زمان كانوا ، وفي أى أرض وجدوا .

ديار الرسل :

إن عامة من ذكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم في الشرق الأوسط ، منها بعثوا ، وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا ودفنوا ، فأبراهيم عليه السلام بعث بالعراق ، وهاجر منها إلى أرض كنعان ، فتنقل بين الحجاز والشام وأرض المعاد حتى توفاه الله تعالى ، وإسماعيل عايه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة لم يفارقها ، وفيها بعث ، وبين القبائل العربية دعا إلى الله حتى توفاه الله . وإسحاق كان بأرض المعاد وكذا يعقوب ولده إلا أن الأخير هاجر إلى أرض مصر ، فعاش بها مع أولاده ، ولعله توفى بها وأرسل من بعده يوسف ، فعاش بمصر حتى هلك بها ، ثم أرسل موسى وهارون ، وعاشا بين مصر وبيناء إلى أن توفاهما الله تعالى ، وجاء داود وسليمان فكانا في أرض القدس ، وتوالت أنبياء بني إسرائيل على أرض الشام ، وكان آخرهم عيسى عليه السلام فولد في بيت لحم ، وعاش بأرض المقدس حتى رفعه الله تعالى إليه . ثم بعث خاتم الانبياء محمد ﷺ بمكة ،

فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز ، فعاش بها عشر سنوات ، وبها توفي ، وبها قبره الشريف .

وأما نوح عليه السلام فلا يبعد أنه كان كذلك بين الشرقيين الأوسط والأدنى ، وأما هود ، وصالح ، وشعيب فقد كانوا بأرض العرب ، هود في الجنوب ما بين حضرموت والشحر ، وصالح بالشمال ما بين الحجاز والشام ، وشعيب بغرب الجزيرة ، جنوب الأردن الشرقي بأرض مدين ، ولوط عليه السلام كان قد هاجر مع عمه إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق ، فبعثه الله تعالى إلى المؤمنين ، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها سدوم ، وعمورة فأهلك الله أهل تلك البلاد لفسادهم وخبيثهم ، ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين ، فارتفعوا إلى أرض الشام وأقاموا بها .

أولو العزم من الرسل :

بما يعتبر جزءاً من العقيدة الإسلامية معرفة أولى العزم من الرسل عليهم السلام ؛ إذ جاء في القرآن قوله : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (١) : فتعيلت معرفتهم لذلك ، كما جاء في القرآن بيان عددهم ، وأسمائهم معاً ، وذلك في آية من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى :

« واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم . وموسى وعيسى بن مريم » (٢) . فالسكاف من قوله ومنك حرف خطاب تعني محمد ﷺ ، فهو مقدم في اللفظ والفضل ، ويأتي أربعة منهم بعدهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، مرتبون في الفضل ، والزمن ، فنوح أولهم وعيسى بن مريم آخرهم فصولات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١) سورة الاحقاف الآية (٣٥).

(٣) الآية (٧) .

وجوب الإيمان بالرسل

عليهم السلام

بعد أن عرفنا إمكان الوحي ؛ وعرفنا الوحي . وطرقه الخاصة به ،
وعرفنا ضرورته ، وحاجة الناس إليه ، كما عرفنا النبوة ، ومؤهلاتها
وعرفنا صفات الانبياء والرسل ، وتاريخهم العام ، نذكر إتماماً للبحث
في هذا المعتقد أن الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً جزء من عقيدة المؤمن
لا يتجزأ ، بحيث لا تصح عقيدة المؤمن ، ولا تكمل إلا به .

ومعنى الإيمان بالرسل إجمالاً أن يؤمن المرء بكل مانبأ الله من نبي وبكل
ما أرسل من رسول من عرف نبوتهم ورسالاتهم ، ومن لم يعرف ،
فيؤمن إيماناً إجمالياً .

ومعنى الإيمان بالرسل تفصيلاً : أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف
نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلاً ، فمن عرفهم من طريق الوحي
الالهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل ، ولا يؤمن برسالة بعض
ويكفر برسالة بعض آخر ، إذ الكفر بواحد منهم يعتبر كفراً بجميعهم . وقد
تقدم آنفاً بيان الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم ، وهم خمسة وعشرون
نبياً ورسولاً ، منهم ثمانية عشر قد ذكروا في آية ، وتلك حجتنا . . من سورة
الأنعام (١) ، وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم

وهم آدم ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، (١) .

والإيمان بالرسول ضرورى ، لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى ، لأن الله تعالى هو الذى نبأهم ، وأرسلهم ، وأخبر عنهم ، وأمر بالإيمان بهم ، وتصديقهم ، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به ، من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، والبعث ، والجزاء ، والقدر ، والقضاء ، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به فيكفى المؤمن دليلا أن يبلغه خبر الله ، وأمره بالإيمان بالرسول كقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، (٢) وقوله تعالى : آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، لانفرق بين أحد من رسوله ، (٣) .

فلها تين الآيتين وغيرهما يؤمن المؤمن برسل الله تعالى ، ولا يفرق في الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود والنصارى ، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل وكفروا بعيسى بن مريم ومحمد ﷺ ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء ، وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ .

وقد كفر الله ، وتوعد بالعذاب المهيمن من يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر ببعض في قوله من سورة النساء : إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون

- (١) آدم في (٢٣) من آل عمران ؛ وإدريس في (٥٦) من مريم وهود في (٥٠) من سورة هود وصالح في (٧٣) من الاعراف وشعيب في (٨٥) من الاعراف وذو الكفل في (٨٥) من الانبياء ومحمد في (٤٠) الاحزاب .
 (٢) سورة النساء الآية (١٣٦) .
 (٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

أن يفرقوا بين الله ورسوله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً . واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ، (١) .

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل بسوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم ، وكاملهم ، ووجوب تعظيمهم ، واحترامهم .

ولهذا نكتفى بما سبق من البحث فى اعتقاد المؤمن بالرسول عليهم السلام لنفخص بالبحث النبى الحاتم ، صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع ، والعامّة لكل الناس ، وهو النبى الأمى محمد رسول الله ﷺ .

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

التعريف به صلى الله عليه وسلم :

نسبه : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

نشأته

ولد صلى الله عليه وسلم بمكة بدار أبي يوسف ، ولدته آمنة بنت وهب ابن زهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . ولدته صبيحة يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل ، الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية ومات والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكفله جده عبد المطلب ، ومات والدته آمنة وهو ابن ست سنين ، وحصلته أم أيمن جارية أبيه . ومات جده فكفله عمه أبو طالب .

زواجه وأولاده .

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره صلى الله عليه وسلم تزوج بخديجة بنت خويلد ، لإحدى شريفات قريش ، فأنجب منها ولدين هما القاسم وعبد الله^(١) ماتا صغيرين ، وأربع بنات هن فاطمة الزهراء وزينب ورقية ، وأم كلثوم رضى الله عنهم ، ولم يزاول من الأعمال صلى الله عليه وسلم

(١) ومن أصحاب السير من يزيد الطيب فيجعل الأبناء ثلاثة والله أعلم بالحقيقة .

في هذه الفترة من عمره سوي رعى الغنم ، إذ قال صلى الله عليه وسلم : ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أراها على قراريط لأهل مكة ،^(١) والتجارة حيث خرج مع عمه إلى الشام مرة واحدة وخرج بعد ذلك في تجارة لحديجة فربح لها ربحاً عظيماً .

وكان صلى الله عليه وسلم في هذه المدة من حياته يتمتع بأفضل الأخلاق ، وأطيب الشئائل ، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط ، فلم يأت ولا مرة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرأ ، ولم يلعب قمارأ ولا ميسراً ، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم أحداً في عرض ، ولا مال ، ولا دم ، لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثالياً في أخلاقه ، وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، هذا اللقب الذي لم يظفر به أحد في ديارها أبداً ، لقد كان صلى الله عليه وسلم أميناً في سره ، وفي علنه ، أميناً في قوله وفي عمله ، أميناً في غيبه ، ومشهده ، أميناً في كل شيء ، وعلى كل شيء . .

وإذا كانت قريش قد اضطرت إلى منحه ذلك اللقب السامي ، الرفيع ، والكرام ، لقب الأمين ، فإن الله تعالى قد أقسم له في مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم ، وهي شهادة والله لا تعادها شهادة أبداً ، إذ قال من سورة القلم : ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرأ غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ،^(٢) .

عناية الله به :

لم يكن الكمال الذي عاش عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف به

(١) البخارى (١٠٩/٣ ، ١١٠) كتاب الإجارة ، باب رعى الغنم على

قراريط .

(٢) الآيات (١-٤) .

قبل نبوته ، لم يكن نتيجة تربية أم أو أب ، أو أثر تعليم أستاذ ، أو مرب قط ، وإنما كان أثر عناية الله تعالى له ، فالله الذى خلقه لأن يكون واسطة بينه وبين عباده ، ليبلغهم شرعه ، ودينه ، هو الذى حماه من كل ما يلوث نفسه ، أو يعكر صفاء روحه ، إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه ، وحمل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس ، وكذلك كان رسول الله ﷺ ، ولستشهد على عناية الله للرسول ، وحمايته تعالى له من التلوث النفسى منذ ولادته بشاهدين اثنين نستغنى بهما عن عشرات الشواهد والأمثلة وهما :

١ - ما روى البيهقى عن محمد بن إسحق عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهيمون به إلا ليلتين ، كتاتهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها ، فقلت لصاحبي : أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ، قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالزرايل ، والمزامير ، فقات : ما هذا ؟ قالوا : تزوج فلان فلانة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مسّ الشمس فرجعت إلى صاحبي ، فقال : ماذا فعلت ؟ فقلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت (وذكر أنه حصل له مرة أخرى قم له مثل الذى حصل فى الأولى) ثم قال : فوالله ما هممت ، ولا عدت بعدهما شيئاً من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته ، (١) »

٢ - ما روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ كان ينقل معهم الحجارة

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير فى البداية والنهاية ، وقال هنا حديث غريب جداً ، وقد يكون عن على نفسه ، ويكون قوله فى آخره « حتى أكرمنى الله بنبوته » مقحماً ، والله أعلم . أ . أ . - (٢ / ٢٨٨) الطبعة الأولى ١٩٦٦ أشرف عليها مكتبة المعارف ومكتبة النصر .

للكعبة (لما أرادوا تجديد بنائها) وعاليه إزاره ، فقال له العباس عمه : يا ابن أخى لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة ، قال : فخله فجعله على منكبيه ، فسقط مغشيا عليه ، فما روى بعد ذلك عريانا ﷺ ، (١)

نبوته وبعثته :

وعلى رأس الأربعين كما هى سنة الله فى الأنبياء نبيه محمد ﷺ إذ جاء الحق وهو بغار حراء ، بعد أن كان قد حُجب إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان ، فجاءه جبريل وهو به فضه إلى صدره وأرسله ثلاثا وقال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء وفى الرابعة قال : « اقرأ بسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، » (٢) . فذهب بها ﷺ إلى خديجة زوجه الكريمة ترجف بواذره ، وهو خائف على نفسه . فهدأت رضى الله عنها من روعه ، وسكنت من اضطراب نفسه ، وهى تقول له : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وانطلقت به رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل بن أسد ابن عمها ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة ، هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا (٣) ،

(١) اللؤلؤ والمرجان (٧٢/١) البخارى (٩٧/١) ومسلم (١٨٤/١) وما بين القوسين ليس من الحديث .

(٢) سورة العلق الآيات (١-٣) .

(٣) جذعا منصوب على أنه خبر كان المحذوفة والتقدير ليتنى أكون فيها جذعا . أو الخبر متعلق الجار والمجرور وجذعا منصوب على الحال .

يا ليتنى أكون حياً ، إذ يخرجك قومك ، فقال النبي ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ، ثم لم يشب ورقة أن توفى وفتر الوحى ، (١) .

وبعد فترة فتر فيها الوحى ، تبدى له جبريل فى صورته الملائكية وقد سد الأفق ، وله ستائة جناح ، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى !! ونزل عليه قوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، (٢) ، فأرسل بها ﷺ .

بدء الدعوة :

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله ، وكتابه ، ولقائه وتوحيده تعالى فى عبادته ، بدأها فردية ، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى ، وأنواعاً من الاضطهاد مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة النبوية . كما حوصر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بنى هاشم ، حوصروا فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات ، جاعوا فيها جوعاً أكلوا معه ورق الشجر ، مع كامل الأسف .

وفى هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة ، وزوجه المفضلة رضى الله عنها ،

(١) لم ينشب أى لم يتعلق بأى عمل من الأعمال ، كناية عن كونه مات بعد قليل ولم تطل حياته ، والحديث بطله أخرجه البخارى فى أول كتابه (٦٠/١) ومسلم (٩٧/١ ، ٩٨) واللؤلؤ والمرجان (٣٢/١) .

(٢) سورة المدثر الآيات (١-٥) ، والحديث رواه البخارى ومسلم إلا أنه ليس فيه ما فى هذا الحديث أن له ستائة جناح وأنه أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى راجع اللؤلؤ والمرجان (٣٤/١) ومسلم (٩٨/١ ، ٩٩) . والبخارى (٦/١) .

كما توفي عمه أبو طالب الذي لم يأل جهداً يدفع عن رسول الله ﷺ ، ويحميه من كيد أعدائه له ، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن كما قيل .

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ ومطلع الحادية عشرة هـ هـجراً به ﷺ إلى المملوكات الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، وتجاوزها إلى مقام أسمى سمع عنده صريف الأقلام ، وناجاه ربه ، وناداه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس^(١) ، وفي هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج تنص على أن يحمي أولئك الرجال من يهاجروا إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم عند الله تعالى الجنة ، وسميت هذه الاتفاقية ببيعة العقبة الأولى ، وتمت عندها أخرى مثلاً فسميت ببيعة العقبة الثانية^(٢) ، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون ، وكانت قبل ذلك تسمى (يثرب) فصارت بحلول النبي فيها تسمى المدينة النبوية ، والعامية تسميها المدينة المنورة ، وفيها شرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية ، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى في تاريخ الإسلام . ومن المدينة انطلق المسلمون يذشرون راية العدل والحق في ربوع الأرض ، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان ، ومن عبادة التباد إلى عبادة رب العباد ، ومن مجور السلطان إلى عدل الإسلام كما قال ربمي ابن حراش لكسرى ملك الفرس . ولم يقبض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب ، وحتى تم التشريع الإسلامي أوفر وأقوى ما يكون ، ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة المائدة « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(٣) .

(١) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين، اللؤلؤ والمرجان (٣٥/١)

(٢) راجع أحاديث العقبة في البخاري (٦٩/٥ ، ٧٠) .

(٣) الآية (٣) .

وقُبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول بعد ما مضى عشر سنوات وشهران وبعض الليالي على هجرته إلى المدينة ، والتي كانت مبدأ التاريخ الإسلامى ، ولم يلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الاسلام عليه ، ولا شراً إلا حذرهما منه فصولات الله عليه إلى يوم أن نسعد برويته وشفاعته .

هذه نظرة سريعة ألقيناها متبركين بها على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته ، فكانت مثل ترجمة قصيرة تقدمها بين يدى بحث دلائل نبوته ، وعموم رسالته ، وتقرير أن سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه .

مؤهلاته للنبوّة :

لقد سبق أن ذكرنا أن مؤهلاته للنبوّة العامل الزمنى ، والمثالية ، وشرف النسب فلنتظر الآن فيما إذا كانت هذه العوامل الثلاثة متوفرة للنبي العربى ﷺ أم لا ؟ ولنبدأ بالعامل الزمنى فنقول :

لقد أجمع من أرخوا للدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية قبل البعثة الحمديّة ، أجمعوا على أن فساداً عاماً قد عمّ تينك الدولتين العظيمةتين فساداً فى الدين ، فساداً فى الأخلاق ، فساداً فى الحكم ، فسرى ضعف هائل فى كل أجهزة تينك الدولتين ، وخلايا تينك الأمتين الكبيرتين . هذا فى دولة الفرس والروم الحضاربتين أما فى غيرهما فإن الأحوال أسوأ ، والأمور أردأ ، والظلام فى كل جوانب الحياة أحلك ، ففى شبه جزيرة العرب أصنام تعبد ، وخمور تشرب ، وبنات تواد ، كهانات حلت محل النبوات ، وأعراف قبليّة سائدة سيادة الشرائع الإلهية ، من له يُعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه ، وليس حال غيرهم خيراً من حالهم ، فالعالم يومئذ كله يعيش فى ظلام دامس من الظلم والشر والفساد ، وهى حال تدعو بل تصرخ بنذى نبوة

إلهية ، ورسالة ربانية ، يصلح الله به وعلى يديه فساد البلاد والعباد .

وحقاً فقد تطالع الناس إلى صاحب هذه النبوة ، وحامل تلك الرسالة ،
ففى الجزيرة العربية إرهابات كثيرة ، وبين أهل الكتاب تنبؤات أكثر ،
همسات خفية فى كل واد ، وعمنية بقرب نبوة سماوية . كل الدلائل تشير إلى
أن هذه النبوة ستكون هذه المرة فى الأمة العربية ، قد يلوح سناها بين جبال
قاران (مكة) وتطالع شمس ضحاها فى يثرب ذات النخيل والظل الطليل ، إنها
مهاجر النبى الذى قد أظلم زمانه .

وسابق بعض أهل الكتاب الأحداث ، فهاجروا إلى الحجاز ، ونزلوا
يثرب نفسها ، ونأكدت التنبؤات عند بعضهم ، حتى استفتحوا على العرب
جيرانهم بأن النبى المنتظر سيبعث فينا ، ونقاتلهم معه .

وبالجملة فإن تلك الفترة وهى السبعون سنة بعد الأربعمائة من ولادة السيد
المسيح عليه السلام ، كانت فترة إرهابات كثيرة ، وتطلعات كبيرة ، وتنبؤات
لا حد لها ، وفى أنحاء شتى من العالم إلى نبوة يتغير بها مجرى التاريخ الإنسانى
وبوقف بها تيار الفساد العام بين البلاد والعباد ، ومن يأتري يكون المؤهل
لهذه النبوة ؟

إنه كان محمد بن عبدالله ، دعوة إبراهيم القائل « ربنا وابعث فيهم رسولا
منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز
الحكيم » (١) ، وبشارة عيسى القائل « يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم
مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه
أحمد » (٢) .

(١) سورة البقرة الآية (١٢٩)

(٢) سورة الصف الآية (٦)

إنه كان محمداً النبي الأمي الذي نادى قائلًا: «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» (١) فرحباً بوفادته على الدنيا ، ومرحباً بقيادته للإنسانية ، ومرحباً به وهو الرحمة الإلهية ، ومن العامل الزماني إلى المثالية ، فلنلق إذا نظرة سريعة على المثالية المحمدية التي أهله بإذن الله لقيادة البشرية ، وهيته لتلقى الوحي من السماء ، ليكون رسول الله إلى الناس كافة . فلننظر إليها في الجانب الخلقى الذاتي ، ثم في الجانب الخلقى النفساني . إن أصحاب السير . وجميع من كتب في السيرة المحمدية يجمعون على أن محمداً بن عبد الله والنبي الأمي كان أكمل الناس ذاتاً ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم قداً واعتدالاً ، ولترك الرواة الصادقين يصفون لنا الذات المحمدية كما رأوها ، وعرفوها قال البراء في رواية مسلم «كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً ، بعيد ما بين المنكبين عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ» ، وقال أنس في رواية مسلم «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى نكماً ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شمعت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم» (٢) ، ولنصغ أخيراً إلى ما قال الحسن بن علي رضي الله عنهما حيث قال : «سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال: كان رسول الله ﷺ نفماً مفضماً ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربع (بين القصر والطول) وأقصر من المشذب (البائن الطول) عظيم الهامة ، رجل الشمر (ليس بسبط ولا جمعد) إن انفردت عقيبته فرقها ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وقفه ، أزهر اللون ، واسع الجبين ،

(١) سورة الأعراف (١٥٨) .

(٢) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرجان (٣ / ١٠٧) ومسلم

(٨٣/٧) ، والبخاري (٤ / ٢٢٨) .

(٣) مسلم (٧ / ٨١) .

أزج الحواجب (١) سوابغ من غير قرن بينهما ، عرق يُدْده الغضب ، ألقى
 العربنين (٢) ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج ،
 سهل الخدين ، ضليح الفم ، أشذب (٣) ، مفلّج الأسنان ، دقيق المسربة (٤) ،
 كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا (ذو لحم) متماسكا
 سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس (رقوس العظام)
 أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى
 الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رجب
 الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، عبل الذراعين (٥) ،
 خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ، يلبو عنهما الماء ، إذا زال زال ثقلها ،
 ويخطو تكفؤا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صلب
 (علو) ارتقاءه ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض
 أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوس أصحابه ، ويبدأ
 من لقيه بالسلام . (٦)

هذا الجانب الخلقى الذاتي هو محض عطاء الله تعالى وهبته ، ولا كسب
 فيه للإنسان ، فإن النبي الأمي محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم
 قد أعطى منه ما لم يُعط غيره ، حتى كان في جماله الذاتي مثلاً عالياً لا يسامى فيه ،
 ولا يُطاول أبداً . ولننظر إلى مثاليته ﷺ في الجانب الخلقى النفساني ،

(١) الأزج : الحاجب المقوس الطويل الكثير الشعر .

(٢) القنا : ارتفاع الأنف ، واحد باب وسطه ، ودقة أرنبتة .

(٣) الشذب : رقة الأسنان ، وروثها ، وحسنها .

(٤) المسربة : الشعر الذي بين الصدر والسرة .

(٥) العبل : الغلظ .

(٦) محمد المثل الكامل (١١ / ١٠) .

متابعين عناصر الكمال فيه عنصراً بعد آخر فنقول - ولسنا بموفية ﷺ كمالهما حدثنا وكتبنا .

رجاحة عقله :

نكتفي من عشرات الأمثلة الدالة على ما كان للنبي محمد ﷺ من كمال العقل ورجاحته بأربعة أمثلة ، اثنين منها قبل نبوته واثنين بعدها فأما اللذان قبل نبوته ﷺ فهما :

١ - حضوره حلف الفضول وقوله فيه : « لقد حضرت حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان ، وما أحب أن لي بحلف حضرته في دار عبد الله ابن جدعان مُحر النعم ، ولو دَعَيْت به لأَجِيت » (١) .

فهذا الحلف تم على أساس نُصرة المظلوم ، والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق من ظلمه ، فحضور النبي ﷺ له تأييداً للحق ، واعتباطه به حتى قال : « ما أحب أن لي به مُحر النعم » ، دال على كمال عقله ورجحانه بدون شك .

٢ - حكمه بأن يوضع الحجر الأسود في ثوب ، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية ، حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه في مكانه . فقضى بذلك على خصومة من أشد الخصومات ، وحقن دماء كانت قد مُتراق لولا ذلك التصرف الحكيم ، الذي إن دل على شيء فإنه يدل على كمال العقل المحمدي ورجاحته ، بما لا مجال للشك فيه .

وأما المتلان اللذان في عهد نبوته فهما :

(١) سيرة ابن هشام (١٤٣/١) بمعناه . وذكر الحلف أحمد رحمه الله في مسنده (١٩٠/١ ، ١٩٣) وابن سعد في طبقاته الجزء (١) القسم (١) ص (٨٢) .

١ - تنازله اقريش على كتابة لفظة الرحمن الرحيم ، وعلى لفظ رسول الله في كتابة وثيقة المعاهدة التي أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية ، إذ أمر الكاتب وهو علي بن أبي طالب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال بمثل قريش وهو سهيل بن عمرو : أمسك لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم ، فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم . ولما قال للكاتب اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، قال ممثلي قريش : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ، فتنازل عن ذلك وكتب ، (١) في حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمرو وعلى قد كرهوا ذلك وأبوا أن يفعلوه ، ورأوه أنه إعطاء للدينة في دينهم (٢) ، غير أن النتائج الطيبة التي أعقبت ذلك التنازل أدلت على قصر نظر القوم . وبعد فطر الرسول محمد ﷺ ، وكال عقله ورجاحته ، الأمر الذي كان به مضرب المثل في كمال العقل ، وحسن السياسة ، والتدبير .

٢ - لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجالات قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينظرون حكم الفاتح المنتصر فيهم ، ناداهم ﷺ قائلاً : يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، (٣) .

(١) متفق عليه بذكر نحو (محمد رسول الله) دون بسم الله الرحمن الرحيم ، اللؤلؤ والمرجان (٢/٢٢٤) ورواه مسلم بقريب من هذا اللفظ المذكور في الكتاب في (١٧٥/٦) .

(٢) جاء هذا في حديث متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (٢/٢٢٤) ، والبخاري (٣/٢٢٨ ، ٢٢٩) ، ومسلم (٥/١٧٣ - ١٧٥) .
(٣) سيرة ابن هشام (٤/٤١) .

إن هذا الموقف المثالي في تاريخ العطاء يُنم قطعاً على ما أوتي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من رجحان العقل وكاله ، ما أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن .

شجاعته

إن شجاعة قلب النبي محمد ﷺ لم تكن أقل من شجاعة عقله ، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية التي لا توصف ، وناهيك في إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفضاذا الأبطال كعلى بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم ممن عرفوا بالبطولات النادرة ، والشجاعات الفذة أن يقولوا : دكنا إذا حمى الوطيس ، واشتد البأس نلوذ برسول الله ﷺ تنقي به ، (١) لقد انهزم الجيش الإسلامي يوم حُنين شر هزيمة ، وثبت رسول الله ﷺ في الميدان وحده ، حتى ثاب إليه أصحابه ، وقاتل بهم حتى اتصر نصراً ساحقاً على أعدائه ، وأمسوا في قبضته ، وتحت سلطانه ، ولهذا الموقف نظيره في أحد أيضاً ، وهذا مصداق شهادة القرآن له بالشجاعة في قوله تعالى :
فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، (٢) .

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده ، وقتال من ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض وما على الأرض يومها إلا كافر باستثناء تلك الحفنة من أصحابه المؤمنين لشخص هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت في دنيا الناس ، ذلك هو محمد رسول الله ﷺ .

سياسته

إن سياسة النبي محمد ﷺ وفي كلا مجالها المدني والعسكري ، أو السلي

(١) روى مسلم عن البراء قوله دكنا والله إذا احمر البأس تنقي به ، (١٦٨/٥)

(٢) سورة النساء الآية (٨٤)

والحربى كانت وبدون شك ، ولا مبالغة مضرب المثل ، وكانت على نحو لم يطمع فى الوصول إلى مثله أحد من الناس . ومها أوتى من السكال فى هذا الخصوص . ولتكشف فى الاستشهاد على هذه المثالية فى السياسة المحمدية الرشيدة السديدة بذكر مسائل معينة منها :

• إذنه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهم ، حيث علم أنه لا يقدر على دفع الأذى عنهم ، وأن بالحبشة ملكاً صالحاً كريماً ، سيكرم وفادة أصحابه ، ويحسن جوارهم وهو أصحابه النجاشى ، فكان هذا الإذن بالهجرة تديراً سياسياً جديراً بالتقدير والاحترام (١) .

• اتخاذ دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزاً للدعوة الإسلامية أيام اضطهاد المشركين لها ، وثقيف أصحابه فيها ، وتربيتهم ، وتعليمهم كان تديراً حكيماً دل على رشد فى السياسة ، وحسن فيها ، مع حكمة التصرف ، وكال التدبير .

• عقده اتفاقيتي العقبة - وهما يعبتان بايع فيهما رجالا من أهل المدينة لتأمين الهجرة إليها ، وحماية المهاجرين فيها ، ثم أمره أصحابه بالهجرة ، وبالتالي هجرته هو ﷺ إليها ، مما جعلها فى بضعة أعوام دار إسلام ، وعاصمة خلافة فى الأرض ، ومنطلق فتح ، وهداية لسكافة البشر ، (٢) .

معاهداته لطوائف اليهود الثلاث بالمدينة ، وما حققته تلك المعاهدات .

(١) ذكر البخارى رحمه الله الهجرة إلى الحبشة فى (٦٢/٥ - ٦٤) وراجع البداية والنهاية (٦٦/٣) وما بعدها . وسيرة ابن هشام (١/٣٣٠) وما بعدها .

(٢) بينا العقبة مذكوران فى البخارى (٦٩/٥ ، ٧٠) وابن هشام (٧/٢ - ٥٦) والبدية والنهاية (٣/١٤٧ / ١٥٨) .

من فوائد الدعوة الإسلامية ، وما وفرت له من حماية لها أيام حاجتها الملحة إلى الحماية والتأمين ، وذلك لضعفها ، ومناوأة كل الناس لها .

* مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي لحمت ما بين المهاجرين النازحين ، وأهل البلاد المواطنين فجعلتهم كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُه بالحنى والسر ، تلك المؤاخاة التي لم يتم نظيرها على وجه الأرض قط . تحققت بفضل الله تعالى ، ثم بتلك الحُكمة السياسية والرشد المنقطع النظر فيها .

* زواجه ﷺ من خديجة وهى بنت أربعين سنة ، وهو شاب لم يتخط الخامسة والعشرين من عمره ثم زواجه من عدة أرامل من النساء المسنات ، وكزواجه من أم المؤمنين عائشة بنت الصديق وسنها لم يتجاوز التاسعة من عمرها ، كل ذلك دال على بعد نظر ، وعمق سياسة ، وحسن تصرف ، وكال تدبير حيث أعطى به الدعوة ربه الإسلامية دفعا قويا إلى النصر ، والتقدم ، والانتشار ، ما لم تكن لتصل إليه وتحققه لولا تلك السياسة الحكيمة الرشيدة .

* سراياه وغزواته العديدة ، والتي تجلت في جميعها الخبرة العسكرية ، والقيادة المثالية الحكيمة هو الأمر الذى اعترف به الصديق والعدو على حد سواء ، وبكفى فى تقرير ذلك أنه فى خلال عشر سنوات من جهاده المقدس انتظم الاسلام أرض الجزيرة العربية كلها ، واستتارت بنوره كل ديارها ، وأن قتلى تلك الحروب والمعارك الهائلة التى دارت رحاها مدة عشر سنوات تقريبا ، ودانت نتيجة لها أرض شبه الجزيرة كلها بالاسلام . لم يتجاوزوا الألفين والخمسمائة ما بين شهيد وقَتيل .

وحمته :

إن الرحمة التى كان يحملها قلب محمد النبي ﷺ لرحمة مثالية ، لا تتأنى

لغيره من بنى الناس ، وإذا أردنا أن نذكر بعض مظاهرها تقريراً لها ، فإذا عسانا أن نذكر منها بعد أن قال الله تعالى فيه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .^(١)

ومع هذا فلنشر إلى بعض المظاهر للرحمة المحمدية والتي منها :

١ - « رفع إليه ولده إبراهيم بن مارية القبطية رضى الله عنهما ، وهو مريض يجود بنفسه ، فوضعه بين يديه وبكى ﷺ ، وقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .^(٢)

٢ - زار مرة قبر أمه بين مكة والمدينة ، وقف عليه وبكى طويلاً ، وانصرف وهو يقول : « استأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي » .^(٣)

٣ - ولما فتح رسول الله ﷺ القموص حصن بنى أبي حقيق (من خير) أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى ، فربهما بلال على قتلى يهود ، فلما رأتهم الجارية التي مع صفية صاحت ، وصكت وجهها ، وحشت التراب على رأسها فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟^(٤) . ولم تكن رحمته ﷺ قاصرة على بنى الناس فحسب بل تعدتهم إلى الحيوانات ، فكان

(١) سورة التوبة الآية ١١٨

(٢) متفق عليه التلوي والمزجان (١٠٣/٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٦٥/٣) .

(٤) ذكر هذا ابن كثير عن ابن إسحاق في البداية والنهاية (١٩٧/٤) .

يقول صلى الله عليه وسلم : « في كل ذات كبد رطبة أجر » (١) ويقول : « عذبت امرأة في هرة ، أو ثقتها فلم تطعمها ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من حشائش الأرض حتى ماتت » (٢) . وأخبر مقررأ الرحمة وآثارها في أهلها فقال : « بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت موقها فسقته ، فغفر لها به » (٣) .

كومه .

إن الكرم النفسى الذى كان يتحلى به محمد رسول الله ﷺ لا يأتى عليه الوصف ، وكيف يوصف كرم من لم يُسأل شيئاً طول حياته وهو فى حوزته وقال : لا ، قط . خرج يوماً وعليه حلة من أجمل اللؤلؤ فرآه أحد أصحابه ، فزعم أن يطلبها ليلبسها فتمس جلده بعد أن مست جلد الرسول ﷺ فقال : يا رسول أعطينيها ، فدخل رسول الله ﷺ بيته فخلع الحلة وأتاه بها .

جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : « يا قوم اسلموا فإن محمدأ يعطى عطاء لا يخشى الفاقة » (٤) .

وباع مرة جابر بن عبد الله فى جمل له كان قد كل فى السفر فباعه إياه بكذا مائة درهم ، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجل (٥) .

(١) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم . اللؤلؤ والمرجان (٧٤/٣) مسلم (٣٥/٨) وقوله (حتى ماتت) فى رواية أخرى لمسلم فى الصفحة المذكورة .

(٣) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) .

(٤) رواه مسلم (٧٤/٧١) .

(٥) متفق عليه بمناه اللؤلؤ والمرجان (١٨٥/٢) .

الله أكبر ماذا يُذكر عن كرم محمد ﷺ؟ إنه في هذا الباب كما في غيره
المثل الأعلى في الكرم النفسى .

عدله

إن المثالية في عدل محمد ﷺ تتجلى في مواقف عديدة ، تقتصر منها على
موقفين لم يقفهما غيره ﷺ قط ، أولها : حينما سرقت المخزومية ، وجاء
أسامة بن زيد مدفوعاً برجال قريش يشفع لها في إسقاط الحد عنها ، فقال
له الرسول ﷺ وهو في غضب شديد : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟ »
والله لو سرقت فاطمة بذت محمد لقطعت يدها ، (١) وثانيهما : أن رسول
الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم ، فرسود
ابن غذية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنفل — أى متقدم — من الصف
فطعن في بطنه بالقدح وقال « استويا سواد » فقال : يا رسول الله أوجعتنى
وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذنى !! فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه
فقال « استقذ ... » (٢) .

عفو وحلمه

إن الاستقصاء للشمال المحمدية غير محتمل أبداً وأحسن من قال :

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم السماء

ولذا فإننا نكتفى دائماً بنماذج لذلك السكال المحمدى في كل مظهر
من مظاهره . ومن شمائل الحلم والعفو عنده صلى الله عليه وسلم نذكر
الأمثلة التالية :

(١) متفق عليه بمعناه اللزوا والمرجان (٢/ ١٨٥ ، ١٨٦)

(٢) البداية والنهاية (٣ / ٢٧١) وسيرة ابن هشام (٢ / ٣١٠)

١ - صح أنه كان صلى الله عليه وسلم في غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها ، فانتشروا في واد يستريحون تحت ظلال أشجاره وأتى هو شجرة فعلق سيفه في أحد أغصانها ، ونام ، فجاء أعرابي من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول : من يمنعك اليوم مني يا محمد ؟ فرفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : د الله ، فارتاع الرجل ، وسقط السيف من يده ، فتناوله الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : د من يمنعك أنت الآن مني ؟ فقال الأعرابي د لا أحد ، فمعا عنه الرسول وانصرف (١) .

إنه عفو بعد مقدرة ، وهو من العفو الكريم الذي يستحق صاحبه كل إجلال وتقدير .

٢ - قسم صلى الله عليه وسلم مالا بين الناس فجاءه أعرابي فجذبه من طرف رداءه وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومازاد أن قال : د فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ، (٢) .

٣ - دخل أعرابي مسجده صلى الله عليه وسلم ، واضطرته الحاجة إلى البول ، فأتى ناحية من المسجد وأخذ يبول ، فأنتم به أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحوا فيه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ددعوه لا تزعموه (٣) فتركوه حتى قضى حاجته من بوله . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء فصب عليه ، فحلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنطق

١ - متفق عليه بمعناه اللؤاؤ والمرجان ١ / ١٦٢ واللفظ المذكور قريب من لفظ البخارى (٥ / ١٤٦ ، ١٤٧) .

(٢) متفق عليه بقريب من هذا اللفظ اللؤاؤ والمرجان (١ / ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٣) لا تزعموه : أى لا تقطعوا عليه بوله .

الأعرابي فقال : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : تحجرت واسعا ، (١)

كانت هذه نماذج من المثالية المحمدية وهي أحد مؤهلات ثلاثة تقدم اثنان منها ويبقى الثالث ، وهو شرف النسب ، وطيب الأصل . فلنلق نظرة على تلك الأرومة الطاهرة ، وذلك المحمد الشريف ، فنقول : إن من ينظر بإنصاف في النسب النبوي الشريف يجد بحق أشرف نسب وأطيبه ، وأطهره ، وأزكاه على الإطلاق ، إنه لم يعرف التاريخ البشرى نسباً كان أوضح وأنصع ، ولا أطيّب ، ولا أطهر من نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ قریش كانت أشرف القبائل العربية بلا منازع ولا مدافع ، وبنو هاشم كانوا أشرف قبائل قریش أيضاً بلا منازع ، والأنبياء يبعثون دائماً في أشرف أقوامهم هذه كلمة قالها هرقل ملك الروم وعظيمها . (٢)

ولنستمع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قریشاً من كنانة ، واصطفى من قریش بنی هاشم ، واصطفاني من بنی هاشم » (٣) فكان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار .

وأخيراً فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصورة لا أكبر منها ، ولا أوضح . فهل يصح في العقول نفى نبوته ، أو جحود رسالته ؟ اللهم لا ، إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب ، أو من

(١) منفق عليه بمعناه اللؤاؤ والمرجان (١ / ٦٤) وزيادة « اللهم ارحمني ومحمدا .. الخ عند أبي داود في أول الحديث مثل مسألة البول . متن (١ : ٩١) .

(٢) راجع حديث أبي سفيان في البخاري (٧ / ١) .

(٣) مسلم (٧ / ٥٨) ورواه الترمذي أتم منه (٢ / ٢٨١)

مُفرض ذى طمع فاسد ، يجاهد ويعاند ، ومع هذا فسُئِلَ طرفا من الأدلة العقلية والنقلية ما تؤكد به نبوته صلى الله عليه وسلم ، ونقرر به وجوب الإيمان به ، وبكل ما جاء من الله من الهدى والخير ، وتحتم اتباعه ، واتباع دينه توخيا للحق ، وطلبيا للنجاة من العذاب ، وفوزا بالنعيم الآخروي في الملكوت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء ، والصالحين .

وجوب الايمان بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم

وأدلة ذلك

إن تلك المؤهلات العقلية والشرعية الدينية ، وقد توفرت كاملة للنبي محمد ﷺ لكافية في إيجاب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ ، بيد أنه لا مانع من المزيد من ذكر الأدلة والبراهين تأكيداً لنبوته ﷺ ، وتقريراً لها ، حتى تجعل الإيمان بها اضطرارياً لا يمكن دفعه إلا على ضرب من التمثل والمنكارة والعناد والمجاهدة .

ومن تلك الأدلة ما يلي : —

(أ) شهادة الكتب السابقة له على نبوته ، وتبشير الأنبياء السابقين بها ، فقد جاء في إنجيل يوحنا :

١ — إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من (الأب) فيمطيكم معزياً (فارقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد ، (١) .

فالفارقليط ترجمته : محمد أو أحمد . وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه ، وسننه ، إذ هذه محفوظة بحفظ الله ، وبقاؤه ببقاء هذه الحياة وهذا معنى إلى الأبد في قوله : « يبقى معكم إلى الأبد » .

٢ — لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أطلق لأني إن لم أطلق

(١) البات الرابع عشر الفقرتان (١٥ ، ١٦) .

لم يأتكم المعزى (الفارقليط) ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم ، (١) .
فالفارقليط هو محمد ﷺ ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام برفع الله تعالى له ،
لما بعث محمد ﷺ ، إذ بعثه النبي محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل كما قال
تعالى من سورة المائدة : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة
من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير والله
على كل شيء قدير ، (٢) .

٣ - ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب ، باسمى هو يعلمكم
كل شيء ، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم ، (٣) .

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذى أرسله الله إلى الناس كافة
ومن بينهم اليهود والنصارى كما قال تعالى من سورة النساء : يا أيها الناس قد
جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فإن لله ما فى
السموات والأرض وكان الله عليهما حكيمًا ، (٤) . فجاء فى هذه الآية القرآنية
لفظ الرسول معرّفاً بالآلف واللام وهى وإن دلت على تفخيم الرسول ﷺ
وتعظيمه فى كماله فإنها دالة على العهدية فهى إشارة إلى ما فى الكتابين : التوراة
والإنجيل من البشارة بالرسول محمد ﷺ كما ذكرنا ونذكر ، وكما اعترف به
الصالحون والمنصفون من علماء الطائفتين ، اليهود والنصارى .

وجاء فى سفر التثنية من التوراة قوله : «جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من
ساعير ، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار» ، (٥) .

(١) الباب السادس عشر الفقرة (٧) .

(٢) الآية (١٩) (٣) الباب الرابع عشر الفقرة (٢٦)

(٤) الآية (١٧٠) (٥) الباب الثالث والثلاثين ؛ هذه النصوص
الأربعة من التوراة والإنجيل نقلت عن العقيدة الإسلامية وأسسها ثم صححت على
التوراة والإنجيل .

لهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد صلى الله عليه وسلم بنبوته ورسالته ، إذ معنى هذا اللفظ : أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناه ، وأرسل عيسى وأوحى إليه بشعير وهي من أرض الجبل بالقدس ، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا معلناً كلمة « لا إله إلا الله ، مستغلناً بها من نكدة الواقعة بين جنال فاران : كجبل أبي قبيس وحراء وغيرهما من جنال نكدة المخيطة بها .

ب - شهادة علماء أهل الكتابين :

جاء من سورة الشعراء قول الله تعالى : « أو لم يكن لهم آية أن يعثله علماء ، بنى إسرائيل ؟ » (١) فقد وضح الله العرب التكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، وهي معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي الله ، وما جاء به فهو من عند الله .

وجاء من سورة البقرة قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من المكمين » (٢) .

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن الذين أوتوا الكتاب . التوراة والإنجيل يعرفون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم . كما أخبر أن فريقاً كبيراً منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له ، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفتهم لها تمام المعسرة .

ونكتفى بشهادة عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن غيرها من شهادة

(١) الآية (١٩٧) .

(٢) الايتان (١٤٦ ، ١٤٧) .

كثير من علماء اليهود وأخبارهم ، روى البخارى فى صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك : « أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال : « إني أسألك عن ثلاث لا يعلمن إلا نبي ، قال

ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرني بين آنفأ جبريل ، قال : عبد الله بن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أول أشراط الساعة فنار تحترق الناس من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه فى الولد ، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها ، قال عبد الله بن سلام : أشهد أنك رسول الله . ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك . فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله البيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلينا وابن أعلينا ، وأخيرنا وابن آخرنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاده الله من ذلك . فخرج عبد الله إليهم فقال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا أشرنا وابن شرنا ووقعوا فيه [١] .

وبعد : فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تُسعد من أكبر الشهادات بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة ، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها .

أما علماء النصارى فان لهم من الشهادات برسالة محمد ونبوته ما لا يسعه المقام ، فلذا فانا نكتفى من كل ذلك بشهادة عظيمة أقرها القرآن ، وسجلها في صفحاته ، ألا وهى : شهادة الملك الصالح أصحمة النجاشى ، إذ جاء من سورة المائدة قول الله تبارك وتعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمننا فاكبتنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأنابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ، (١) .

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت في النجاشى وأصحابه المؤمنين ، فقولهم : « وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » . قولهم هذا بعد شهادة عظيمة بالإسلام ، ونيبه ، وكتابه ، وأتمته ، ولتستمع الى شهادة النجاشى رحمه الله تعالى من خلال رده على كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ورده وهو فى دار مملكه ، وحاضرة بلاده ، اذ جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحمة بن أبجر

سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته . لا اله الا الله هو الذى هدانى الى الإسلام فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت

به إلينا ، وقرّبنا ابن عمك (جعفر) وأصحابه . فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وبعثت إليك يانبي الله . بأريحان الأصحح بن أبحر ، فإني لأملكك إلا نفسي . وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، (١) .

ج - شهادة بلايين من المسلمين !

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان ، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى ، وجاهدوا دونه ، ويدينهم العلماء ، والحكماء ، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر ، ويتعذر الإحاطة بهم علماً ، لهُ من أعظم الشهادات ، وأقواها ، وأكثرها اقتناعاً للعقول ، وجلباً للطمأنينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ﷺ .

د - شهادة الحق عز وجل : ملائكته :

إن شهادة الله عز وجل ، وشهادة ملائكته للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة . قال تعالى من سورة النساء : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهِيداً ، (٢) .

ولولا كرازة النفوس ، ورعوناتها ، (٣) . وظلمات الجهل بالله تعالى التي تغشى كثيراً من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة

-
- (١) البداية والنهاية (٣/ ٨٤) وجاء في أبي داود أن النجاشي قال : أشهد أنه رسول الله ﷺ ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم (١٨٩/٢)
- (٢) الآية (١٦٦)
- (٣) الكرازة القبح والانقباض ، والرعونة : الحق

شاهداً أبداً . ولكن نظراً لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة وثقينا عليها
بشهادة الله تعالى التي لا يردّها عاقل أبداً .

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين : شهادة أخبار ، وشهادة معجزات
فشهادة الأخبار . هي أخباره تعالى في كتابه عن وحيه ، واصطفائه لرسوله
وإرساله ، ونصرته إياه ، وشهادة المعجزات هي ما أظهره الله تعالى على يد
نبيه من خوارق العادات ، إذ كل خارقة نقول بلسان حالها عن الله تعالى :
صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر عني من أني أرسلته وهو رسولي .

ومن شهادة الاخبار ما يلي :

• قوله تعالى من سورة (الفتح) : « محمد رسول الله » ، (١) :

• قوله تعالى من سورة الأعراف : « قال يا أيها الناس إني رسول الله
إليكم جميعاً » ، (٢) .

• قوله تعالى من سورة البقرة : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » ، (٣)

• وقوله تعالى من سورة النساء : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح
والنبيين من بعده » ، (٤) .

• قوله تعالى من سورة الأحزاب : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً

(١) الآية (٢٩)

(٢) الآية (١٥٨)

(٣) الآية (١١٩)

(٤) الآية (١٦٣)

ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (١) .

* قوله تعالى من سورة المائدة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ، (٢) .

* قوله تعالى من سورة النساء : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » ، (٣) .

ومن شهادة المعجزات ما يل :

١ - نزول القرآن الكريم عليه وحياً أو حاه الله تعالى إليه ، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري ، إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ ، أو مرب ومعلم قط ، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ، ومعرفة لها ، وتفوقه فيها ، فضلاً عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه ، ومن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون .

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع ، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية ، وعلى أثبت الحقائق العلمية ، كنظام الزوجية (٤) ، والقوانين السكونية (٥) ، كما تعرض لبدء الخليقة ، وذكر من قصص الماضين ، وأخبار

(١) الايتان (٤٥ ؛ ٤٦)

(٢) الآية (٦٧)

(٣) الآية (١٧٠)

(٤) يشير إلى هذا القانون قوله تعالى من سورة يس : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » ، (الآية ٣٦)

(٥) كعملية إنزال المطر المشار إليها بقول الله تعالى « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء . كيف يشاء . ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » سورة الروم الآية (٤٨) .

السابقين الشيء العجيب، وأخبر بمفنيات عديدة فكانت كما أخبر حرفياً وبلازباده أو نقصان^(١). هذا الكتاب يأتي به أمي، يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثل سورة، أو سورة واحدة^(٢) فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم، وتطأطأ رأسها، وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيتها محمد صلى الله عليه وسلم لتدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، عرف هذا فداه أبي وأمي حين قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»، وإنما كان الذي أوتيت وحياً لوجهي إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة، (٣).

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة، هي قوله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»، (٤). فقوله تعالى: «ولن تفعلوا»، أي الإتيان بسورة قرآنية من أمي مثل محمد ﷺ

(١) كالأخبار بنهاية حرب الروم مع فارس، وغلب الأولى الأخيرة بعد أن كانت قد غلبت واهزمت، وذلك في قوله تعالى من سورة الروم: «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون»، الآيات (١ - ٣).

(٢) يقول الله تعالى (قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) سورة الإسراء (٨٨). ويقول تعالى (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) سورة هود الآية (١٣). ويقول عز وجل (قل فأتوا بسورة مثله) سورة يونس الآية (٣٨).

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرجان (١ / ٣٠) ومسلم (١ / ٩٢)، والبخارى (٦ / ٢٢٤).

(٤) الآيتان (٢٣، ٢٤).

في أميته ، هذا التحدى وهو نفي الإتيان بسورة من أمى مثل محمد في أميته
مازال قائماً . وقد مضى عليه الآن قرابة الألف والأربعمائه سنة ، ولا يؤمل
أبداً أن يأتي أحد فيطلبه بأن يأتي بسورة قرآنية من رجل أمى لم يقرأ
ولم يكتب قط . هيات هيات أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن والله يقول :
« ولن تفعلوا » .

٢ - فيضان الماء من بين أصابعه بالحديدية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً
قوامه ألف وأربعمائه رجل وامرأة (١) .

٣ - تسكير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدى
صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون (٢) .

٤ - حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه وسماع مثبات الرجال الأخيار له ، وعدم
سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدده كما تهدد الأم طفلها ، فسكت (٣) .

٥ - رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب
ضربة أصابته يوم أحد فردها ﷺ ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل
إصابتها (٤) .

٦ - تسييح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون ، وهم عدد كبير
من خيار البشر (٥) .

(١) رواه البخارى (٤ / ٢٣٤ ، ٥ / ١٥٦ ، ١٥٧) .

(٢) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٠ ، ٢١) وكان هذا في غزوة الخندق .

(٣) رواه البخارى بمعناه (٢ / ١١) .

(٤) سيرة ابن هشام (٣ / ٢٣) .

(٥) رواه البخارى (٤ / ٢٣٥) .

٧ - انشقاق القمر له ﷺ حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر فكان فلقتان على جبل أبي قبيس وأهل مكة كانهم يشاهدون ويعجبون ، أثبتت هذه الحادثة في القرآن بقول الله تعالى : اقرب الساعة وانشق القمر ، (١) .

٨ - تسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس وسمع ، وعشرات المرات (٢) .

٩ - الإسراء به ﷺ ، والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وناداه ربه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس (٣) ، كل هذه المعجزات وغيرها كثير قد ثبت بما هو أشبه بالموثرات من الأخبار .

١٠ - أخباره بالمغيبات الكثيرة (٤) فكانت كما أخبر . ونذكر منها على

(١) سورة القمر الآية (١) . وحديث الانشقاق ثابت في الصحيحين ، اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٨٠) .

(٢) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ بمكة وأخباره بهذا ثابت في مسلم (٥٨ / ٧) وتسليم الاحجار والأشجار عليه ﷺ وسماع على رضى الله عنه لهذا في الترمذى في المناقب ، برقم (٣٦٣٠) من كتاب المناقب ، باب (٣ ، ٦) .

(٣) راجع تعليقات الصفحات السابقة من الكتاب تجد آيات وأحاديث الإسراء والمعراج .

(٤) من ذلك قوله في الحسن بن على رضى الله عنه فيما أخرجه البخارى (٣٢ / ٥) . إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين (من المسلمين فكان كما أخبر ، وقوله في عمار بن ياسر وهو يحمل اللبن لبناء المسجد) فتلك الفئة الباغية (فكان كما أخبر كذلك . فقد قتل عمار في حرب على ومعاوية قتلته جيش الشام . والحديث ثابت في مسلم (٨ / ١٨٦) .

سبيل المثال خبراً واحداً من أعجب الأخبار وهو قوله في رواية أحمد بسند صحيح ، سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال ، ينزلون بها على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات ، عاريات على رؤوسهن البخت البخت العجاف ، العنود فأنهن ملعونات ، (١) .

فما هذه المركوبات يا ترى التي أخبر أنها سيركبها رجال من أمته ؟ إنها كسرج الفرس ، وليست بفرس وإنها لتشبه رحل البعير ولكن ليست على البعير ، إنها قطعاً السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادي ، فل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التي تقطع مئات الأميال في بضع ساعات ، حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب : لا ، ولكن الوحي المحمدي أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر ، وتمضي الأجيال جيلاً بعد جيل إلى القرن الثالث عشر الهجري حيث ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم : وركب الناس على السروج كأشباه الرجال ، ونزلوا بها على أبواب المساجد . . ثم هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ﷺ (المني جيب) ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشي في الشوارع بين المسلمين وهي كاشفة عن فخذيها ، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها ؟ وهل عرفت النساء وكل النساء كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل في غير القرن العشرين ؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا ، وتخرج بارزة في الشوارع والطرق ؟ والجواب : لا . ولكن ما أخبر به محمد الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحقق وهو من الغيب البعيد في أعماق المجهول ، فكان ذلك آية أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم صل على محمد وآله وصحبه والمؤمنين به ، الناهجين نهجه ، المستقيمين على صراطك المستقيم إلى يوم الدين .

(١) (رواه أحمد ، والطبراني في الثلاثة ورجال أحمد رجال الصحيح) هكذا

قال الساعاتي في شرحه على الفتح الرباني (١٧ / ٣٠١ ، ٣٠٢) .

(٢٠ - هفيدة)

ختم النبوات

والسكلة الأخيرة في مبحث الإيمان بالرسول عليهم السلام نتناول فيها
أمرين هامين :

أولهما : ختم سائر النبوات

وثانيهما : النبي الخاتم .

أما عن الأمر الأول فنقول : إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر
نبوة ، وهي نبوة محمد رسول الله ﷺ ، فلم يبق من مطمع لاحد في أن
يدعى النبوة ، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبي الأمي أبدا . ومن جمل هذه
الحقيقة ، أو تجاهلها تضايلا وخداعا وادعى النبوة فقد كذب على الله ، وأعظم
الفرية عليه ، وكذبه في قوله ، وكذب على خلقه . وام يلبث طويلا حتى يفتضح
شر فضيحة ، ويعلن بين الناس ، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين ، مثل
مسيلة الكذاب في الأولين ، وأحمد مرزا غلام (١) في الآخرين عليهما لعنة
الله والملائكة والناس أجمعين . وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات
بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى من سورة الأحزاب : ما كان
محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل
شيء عليما ، (٢)

وبهذا كان الإيمان بمحمد ورسالته ، والعمل بها ضروريا للتجاة من عذاب

(١) غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني هو صاحب القاديانية الباطلة
الكافرة .

(٢) الآية (٤٠)

يوم القيامة ، وللفوز بالنعيم المقيم فيه . وأيا عبد لا يؤمن بهذه الرسالة ، ولا يعمل بمحتواها في حدود طاقته وما يستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة ، ولا ينفعه إيمان بالله ، ولا بآياتيه ، وذلك لعدم عمله برسالة محمد الختامية ، التي جعلها الله تعالى مزية للنفوس ، مطيبة للأرواح ، فلا تركب نفس امرئ . إلا على الإيمان بها ، والعمل بما جاء فيها . وزكاة النفس هي المؤهل للفرد لأن ينجو من النار ، ويفوز بالجنة دار الأبرار ، وذلك لقوله تعالى من سورة الشمس :

« قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (١) .

وعن الأمر الثاني نقول : إن خاتم الأنبياء قطعاً هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لقول الله تعالى « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً » (٢) .

وإن الواجب على كل إنسان في هذا الوجود للبشرى أن يؤمن به ، ويتبع ما جاء به من الحق والهدى ، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به واتباع ما جاء به في مثل قوله : « فآمنوا بالله ورسوله ، والنور الذي أنزلنا » (٣) ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به صلى الله عليه وسلم قال تعالى من سورة الأعراف : « ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت

(١) الآيتان (٩ ، ١٠)

(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٠)

(٣) سورة التغابن الآية (٨) .

عليهم، فالذين آمنوا به وحرّوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون،^(١) ولتعليق الله تعالى هداية الإنسان إلى الكمال البشرى، وحصوله على مؤهلات الفرد للسعادة فى الدنيا والآخرة على الإيمان به واتباعه إذ قال تعالى : من سورة الأعراف :

فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعاسكم تهتدون ، (٢) .

وأخيراً فإن من الأدلة السمعية على ختم النبوة ، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء حديث الصحيحين ، الذى فيه يقول الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم : « إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجمل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : ملا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ، (٣) .

ومثل هذا الحديث فى الدلالة على ختم النبوة ، بلبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه الخاتم للأنبياء قبله ، قوله فداء أبى وأمى فى رواية الصحيحين : « إنه سيكون فى أمى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبى بعدى ، (٤) .

وقوله : « إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله

(١) الآيتان (١٥٦، ١٥٧)

(٢) الآية (١٥٨)

(٣) التواتر والمرجان (٣/ ٩٤) .

(٤) ورواه أحمد والترمذى وأبو داود واللفظ له (٢/ ٤١٤) ، وهو متفق عليه التواتر والمرجان (٣/ ٣٠٩) ورواه البخارى بلفظ « ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » (٤/ ٢٤٣) وكذا مسلم (١٨٩/٨)

بي الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد ، (١) .

ومن أقوى الأدلة وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لسائر النبوات نبوة محمد نبيه ورسوله . أن يمضى الآن ما يقرب فى ألف أربعمئة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته صلى الله عليه وسلم . ولم تأت نبوة حق ، ولا نبى صدق ، فى كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة ، فى حين أنه كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تظهر النبوات فى عصر ومصر (٢) وقد يوجد العدد من الأنبياء فى الأمة الواحدة ، والبلد الواحد (٢) ، كما هو معلوم من التاريخ البشرى وفى جانبه الدينى بالخصوص .

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم وفى رواية لمسلم (وأنا العاقب والعاقب الذى ليس بعد نبى) (٨٩/٧) . والقرآن والمرجان (١١٠/٣) والبخارى (٢٢٥/٤) .

(٢) كما وجد داود وسليمان فى عصر واحد ومصر واحد ، وكما وجد زكريا ويحيى . وعيسى فى بلد واحد وأمة واحدة . والأمثلة كثيرة ؛ وما هنالك حاجة إليها .

الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر

تعريف

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء هذه العوالم كلها ، وانتهاء هذه الحياة بسكاملها . والثاني : إقبال الحياة الآخرة وإبتدائها ، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والآخر من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة . فالإيمان باليوم الآخر مقتضى للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال ، واختلاف أحوال ، كما هو مقتضى كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجري فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا .

أ- مكان الفناء

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، ومالم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التي لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحوادث مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل .

لأنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معا حدوث العالم ، إن التغير الجارى ،

والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها ، دال على فناءها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة - وهى نظرية علمية فى غاية الصحة - قد أثبتت حدوث العالم وبالتالي قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فناءه أيضا إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائيا ، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللابتدائى ، إذ لو كان أزليا لفقد طاقته منذ زمان بعيد وأنتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضا إمكان فناءه اللازم له ، - والذى هو فى طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافتها مستمرة ، ولا بد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام ، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويمم الفناء هذا الكون كله .

ودليل آخر : أن العالم كل له أجزاء ، ونحن نشاهد الفناء يجرى فى أجزاءه باستمرار . فالإنسان كالحیوان كالثبات كلها تفنى أمامنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ونفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع ، وهى قطعا أجزاء من هذا العالم كما أننا نرى الزلزال من الفنىة إلى الفنىة يدمر مدنا وقرى كبيرة ، ويغير معالم الأرض فى كثير من البلاد فى العالم ، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء فى أجزائه أمكن فناء كله .

وبناء على هذا فالیوم الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أنبائه ، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة ، وذلك لحراب العالم وفناءه .

امكان المعاد :

هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكنا وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبدا . وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضا عقليا فهو من قبيل الجائز الإمكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضا عقليا ؟ وإذا كان الجواب : لا ، أبدا . فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشىء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضا عقليا كتصور وقوع الفس . موجوداً غير موجود . والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضا عقليا كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علته . فهو أى المعاد إذاً ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى إمكان البعث وجواز وقوعه .

ادلة البعث (١)

لقد سلك القرآن الكريم فى اثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها :

« أن الشىء اذا لم يكن . ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه . أنفاه . فالذى بنى داراً ، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذى يصنع آلة من الآلات مخترعها لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت اذا هو كسرهما بإرادته واختياره ليحوّلها الى آلة أفضل منها قبل . ورد هذا

(١) البعث والمعاد واليوم الآخر ألقاظ مختلفة ، ومدلولها واحد ، وهو وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى .

المسلك من الاستدلال في سورة الروم إذ قال تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (١) .

كما ورد في سورة يس في قوله تعالى : قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، . في جواب من قال : « من يحيى العظام وهى رميم » (٢) .

« الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً . فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما . جاء هذا الاستدلال في قول الله تعالى من سورة الأنعام : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقَصِّى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (٣) .

« الاستدلال بالأرض الميتة بسبب الممطر ، والجذب ، والقمح ، حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً . قال تعالى من سورة فصلت : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير » (٤) . وقال تعالى من سورة الحج : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل

(١) الآية (٢٧)

(٢) الآيتان (٧٨ ، ٧٩)

(٣) الآية (٦٠)

(٤) الآية (٣٩)

زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير (١) .

* الاستدلال بالقدره الكافيه التي بها خلق آدم من تراب ، وذريته من نطفه على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعهما ، قال تعالى من سورة الحج : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفه ، ثم من علقه ، ثم من مضغه مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقرر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » (٢) .

* الاستدلال بالقدره على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم . وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن « ولخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣) ، وقال عز وجل من سورة النازعات : « أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاًها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » (٤) ، وقال تعالى من سورة يس : رداً على من قال : « من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم » (٥) .

(٢) الايتان (٥ ، ٦)

(٣) الآية (٥)

(٤) الآية (٥٧)

(١) الايات (٢٧ - ٣٣)

(٢) الايات (٧٨ - ٨١)

• الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر والصالح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران : « كل نفس ذائقة الموت » ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ،^(١) وقال تعالى من سورة يونس : « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » ،^(٢)

وقال تعالى من سورة الليل : « إن سعيكم لشتى »^(٣) ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسييسره اليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى فسييسره اليسرى ، وما يُغنى عنه ماله إذا تردى ،^(٤) ..

• الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف ، وعلى تركها وإهمالها ، إذ لم يتوفر جزاء كاف في هذه الحياة الدنيا على تلك التكاليف قال تعالى من سورة الملك : ، « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ،^(٥) وقال تعالى من سورة المؤمنون : « أخسبتم

(١) الآية (١٨٥)

(٢) الآية (٤)

(٣) شتى : متوعد مختلف ..

(٤) الآيات (١١٥)

(٥) الآية (٢٠١)

أما خلقناكم عبثاً^(١) وأنكم اليأس لا ترجعون^(٢)، وقال تعالى من سورة القيامة: «أحسب الإنسان أن يُترك سدى؟»^(٣).

أدلة أخرى

١ — شعور كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقي فيها الإنسان جزاء عمله الذي قام به في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة في نفس الأمر ، ولا صورة له في الخارج ، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام ، والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء الإنسان لجرعه ، وماء لعطشه .

٢ — ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح . ومخاطبتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية^(٤) .

٣ — روى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الانسانية ولم يخل منها

(١) عبثاً أى لا تأمركم ولا نهاكم إذ فعل الأمر . وترك المنهى هو العبادة التي خلق الإنسان من أجلها

(٢) الآية (١١٥)

(٣) سدى : أى مهملاً ، لا يؤمر . ولا ينهى ولا يبعث ليحاسب ويجزى ؟ والاية برقم (٣٦) .

(٤) أصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنهم يناجون أرواح البشر والحق أنها أرواح لبعض الجن والشياطين ، وليست أرواح من مات من البشر وذكرنا هذا لما فيه من إثبات عالم الغيب . وحياة روحية تخالف هذه الحياة المادية .

زمان ولا مكان . هذه الرؤى لأموات الناس في المنام ، والحديث معهم ، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وإخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية .

آخر الأدلة

وآخر الأدلة ، وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . إن من آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع في ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية ، وعن كل ما يجري فيها من بعث ، وحساب ، وجزاء ، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره في كل كتبه ، وعلى السنة جميع رسله . فالشك فيه ضرب من المرض العقلي ، والهبوط الشخصي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

الحكمة في المعاد :

إن الحكمة من المعاد الآخروي الذي هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم ، وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء قال تعالى وكل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون

أجوركم يوم القيامة ، فمن رُحِرح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، (١)

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً في أرزاقهم ، وآجالهم ، وأعمالهم ، وفي سعادتهم ، وشقايتهم ، فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهنوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء ، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة ، بجانباً للعدل والرحمة ، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما . فهما كاتنان لا محالة ، فقد أمر رسوله محمد ﷺ أن يقسم عليهما في قوله من سورة التغابن . زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى ، وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ، (٢) . وقال تعالى من سورة النحل : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليسين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، (٣)

(١) الآية (١٨٥) من سورة آل عمران

(٢) الآية (٧) .

(٣) الآيات (٣٨-٤٠) .

وجوب الايمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلائق وحشرهم ، وحسابهم ، ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجبا فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذا عقيده إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى : ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، (١) . ولاهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن ، ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه عني القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره في عشرات السور منه ، وفي مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، ومحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابه ، إني ظننت أني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، تطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول باليتنى لم أوت كتابي ، ولم أدر ما حسابه . باليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض

على طعام المسكين ، فليس له اليوم هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسّلين
لا يأكله إلا الخاطئون، (١) .

ومرة بتقريره ، وتأكيد مجيئه ، كقوله تعالى من سورة الحج : ذلك
بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة
آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، (٢) . وقوله تعالى من سورة
التغابن : زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ، وربي لتبعثن ، ثم
لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير، (٣) .

ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به ، كقوله تعالى : «ذلكم يوحظ
به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر»، (٤) ، وقوله : «لقد كان لكم في رسول
الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»، (٥) .

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به ، وذلك كقوله تعالى :
«وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون»، (٦) ،
في موضعين من كتاب الله تعالى (٧) .

وعما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالعصام لحياة الاستقامة والطهر ،
والخير هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله تعالى من سورة

(١) سورة الحاقة الآيات (١٣ - ٣٧) .

(٢) الايتان (٦ ، ٧) (٣) الآية (٧) .

(٤) سورة الطلاق الآية (٢) وفي سورة البقرة الآية (٢٢٢) ذلك يوحظ به

من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر .

(٥) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

(٦) سورة البقرة الايتان (٤ ، ٥) .

(٧) الموضع الثاني في سورة لقمان الايتان (٤ ، ٥) أيضا وهم بالآخرة هم

يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

البقرة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(١) ، وكقوله تعالى : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر »^(٢) ، وقوله تعالى « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »^(٣) وقوله : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »^(٤) في عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً ، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير . وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه ، وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه ، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لـلنفسه ، ولا لغيره ، وهو شر كله ، لا يؤمن جانبه ، ولا يُطمأن إليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال البشرى .

(١) الآية (٦٢) (٢) سورة الطلاق الآية (٢) .

(٣) سورة النساء الآية (٢٨)

(٤) سورة النور الآية (٢) وسورة النساء الآية (٥٩) .

ظواهر الانقلاب الكوني

أو أشراط الساعة

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان ، أو نام كالأشجار والنباتات علامات تظهر له عند دنو أجله . وقرب ساعة هلاكه .

فالإنسان يشيب ويهرم ، ويمرض ويضعف ، ويكون ذلك علامة دنو أجله ، وقرب ساعة موته ، والحيوان في غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف ، ويبتابه المرض فتخور قواه ، وتفحل بليته ويهلك . والنبات كالزروع مثلاً يصفر ويبيس ، ثم يذوى ، ويسقط ويبيد .

هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك ، والكون وهو كلُّ له (حتماً) علامات تدل على قرب فناءه ، ووقت دماره وخرابه ، وقد جاء الوحي الإلهي بذكر تلك العلامات وبيانها ، ونهت الرسل عليها . ولفقت النظر إليها تحذيراً وتعلية . ففي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة (محمد) صلى الله عليه وسلم : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ، فأنت لهم إذا جاءتهم ذكراهم ١ ، ٢ » (١) .

ومن أشراطها التي جاء الوحي بذكرها : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام . أما بعثته صلى الله عليه وسلم فقد كانت شرطاً من أشراط الساعة لأن نبوته ختم الله تعالى بها سائر النبوات ، فلا نبى بعده ، وهذا إيدان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها ، لم تتطلب تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين :

« بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ إِلَى أَصْبَعِيهِ السَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى وَقَرْنَ بَيْنَهُمَا » (١).

وأما انشقاق القمر فقد كان شرطاً من أشراف الساعة ؛ لأن الله تعالى ذكره مقروننا بالإخبار باقتراب الساعة فقال تعالى من سورة القمر : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر » (٢).

وقد انشق القمر فعلا على عهد النبي ﷺ ، حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله ، فانشق القمر فلقين على جبل أبي قبيس ، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه ، (٣).

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول : إن الله تعالى ما زال يبعث بالأنبياء ، ويرسل بالرسل لهداية الناس ، وإصلاحهم ، وإعدادهم للسكال الذي مخلقوا له في الدنيا والآخرة . حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ ، وأتم الشرائع بشريعته ، وجعله خاتم الأنبياء ، وأخبر أنه لا نبي بعده ، فدل ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير ، وأن الرسالة الأخيرة تتممها إصلاحاً وهداية ، فلا يحتاج معها البشر إلى وحي جديد ، وإلى رسالة ناسخة أو مبددة للشرائع والأحكام ، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية ، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة ، وانتهاء هذه الحياة الدنيا.

(١) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٣/٣١٤) ، والبخارى (٦/٢٠٦) ومسلم (٨/٢٠٨ ، ٢٠٩).

(٢) الآيات ١ - ٣ .

(٣) جاء هذا في حديث متفق عليه كما تقدم . اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٠٨) ، والبخارى (٤/٢٥١) ومسلم (٨/١٣٢ ، ١٣٣).

ومن الظواهر الكونية الحارقة للعادة التي ستظهر وتكون علامات الساعة، وأشراطها ما جاء في الوحي الإلهي (القرآن الكريم) من نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حكماً عادلاً، فقد جاء من سورة الزخرف قوله تعالى «وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها»، وذلك بعد الحديث عنه في قوله تعالى «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون»، وقالوا آلأهتنا خير أم هو؟ ما ضربه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجدلناه مثلاً لبنى إسرائيل، ولو نشاء لجملنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون، وإنه لعلم للساعة.. الآية»^(١). ومن تلك الظواهر أيضاً ظهور دابة عجيبة الخلق، تخرج إلى الناس، فتكلمهم، فيفتنون بها أيما افتنان، فقد جاء من سورة النمل قوله تعالى: «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون»^(٢). ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج، وخروج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعبت في الأرض فساداً، وترزع الناس أيما ترزع إذ جاء من سورة الأنبياء قوله تعالى: «حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق. فإذا هي شاخته أبصار الذين كفروا...»^(٣)

هذا في الكتاب، وأما في السنة وهي من وحي الله فقد أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات. فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة

(١) الآيات (٥٧، ٦١).

(٢) الآية (٨٢).

(٣) الايتان (٩٦، ٩٧).

خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب. وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، (١).

وهذه من علامات الساعة الكبرى، وستسبقها علامات صغرى وهى كثيرة جداً، وقد ظهر منها من يوم الإخبار بها إلى الآن عدد كبير. وقبل ذكر بعضها ننبه إلى أن العلامات الكبرى إذا ظهرت آية منها تابعت حتى لكأنها خرزات فى خيط متى سقطت واحدة، تتابع باقى الخرزات حتى تسقط عن آخرها فى زمن وجيز محدود، وبرهة من الزمن قصيرة. كما أن العلامات الكبرى أولها ظهوراً طلوع الشمس من مغربها لحديث مسلم فى «أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الذابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً»، (٢).

هذا ولنعلم هنا أن هذه العلامات الكبرى إذا ظهرت منها علامة أغلق باب التوبة على الناس، فلم يقبل إيمان عبد بعدها لم يكن قد آمن من قبل، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية الآية وظهورها، وذلك لقول الله تعالى من سورة الأنعام: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك، أو يأتي بعض آيات ربك. يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت فى إيمانها خيراً»، (٣).

(١) مسلم (٨: ١٧٩).

(٢) مسلم (٨/ ٢٠٢).

(٣) الآية (٥٨) وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»، (١/ ٩٥، ٩٦) وروى البخارى «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرأها الناس أجمنون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً»، (٧/ ١٣٢)، والأزرق والمرجان (١/ ٣١).

وهذا جدول بالآيات الصغرى مآظهر منها حتى الآن ومالم يظهر منها بعد،
نقدمه كما ورد عن رسول الله ﷺ :

١ - قوله ﷺ في رواية الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان
عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، ودعواهما واحدة ، » (١) هذه العلامة
قد ظهرت كما أخبر بها رسول الله ﷺ :

إذ المراد من الفئتين على " ومن معه " ، ومعاوية ومن معه رضى الله عنهم
أجمعين ، والمقتلة العظيمة كانت بصفين .

٢ - قوله ﷺ في رواية مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكتر الهرج ،
قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل ، » (٢) . وقد ظهرت هذه
العلامة فعلا فإن الحروب التي تقع في هذه الظروف قتلاها لا يعدون بالعشرات
ولا بالمئات ، ولا حتى بالآلوف بل بعشرات الآلوف ومئاتها . في حين أن
قتل حروب الإسلام الأولى التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والتي دامت
زهاء عشر سنوات ، لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب إحصائية وثيقة
ذكرها غير واحد ، (٣)

٣ - قوله ﷺ في رواية الصحيحين عن أبي هريرة « لا تقوم الساعة
حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتل الناس عليه ، » (٤) هذه العلامة
لم تظهر بعد .

(١) اللفظ لمسلم (١٧٠/٨) واللؤلؤ والمرجان (٣٠٣/٣) والبخارى (٢٤٣/٤)

(٢) مسلم (١٧١، ١٧٠/٨)

(٣) لقد سمعت هذا واستقيته من أخينا الشيخ أبو الحسن الندوى ، وأكده لى
مسنداً له يستدل به بطرق إليه الشك .

(٤) اللفظ لمسلم (١٧٤/٨) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٥/٣) ، والبخارى (٧٣/٩)

وللحديث تمة .

٤ - قوله ﷺ في صحيح مسلم : « منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إربها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأت . . الحديث ، (١) » .

وهذه العلامة قد ظهرت كاملة ، فقد ذهبت العلاقة الإسلامية منذ زمن واستغل أهل العراق بعراقهم ، وأهل الشام بشامهم ، وأهل مصر بمصرهم ، وانقطع ما كان يأتى أهل الحجاز من تلك البلاد من خراج وغيره ، وعاد الأمر في الحجاز كما كان قبل فتح تلك البلاد ، وفي هذا الحديث آية من أعظم الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ ، وثبوت رسالته ، إذ أخبر بهذا الغيب والإسلام لم يتجاوز أرض الجزيرة العربية ، فأخبر بأن العراق والشام ومصر ستفتح وتكون دار إسلام ، ويأتى منها الخير الكثير لأهل الحجاز ثم بعد ذلك يطرأ عليها ما يجعلها تمنع ما كانت تعطيه لأهل الحجاز . فتم كل ذلك حرفياً ، ولم يتخلف منه شيء قط ، فصلى الله وسلم على محمد نبي الله ورسوله صدقاً وحقاً . وبالخفية من كفر به ؛ ولم يتابعه فيما جاء به .

٥ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » ، (٢) . وقد ظهرت هذه العلامة كما أخبر ﷺ ؛ فقد احترقت الحرّة الشرقية من المدينة النبوية ، واستمرت النار ملتهبة فيها مدة طويلة ، ولهبها يرى من بصرى الشام . وما زالت حجارتها سوداء محترقة كالفحم إلى الآن ، وكان ظهور هذه النارية الأربعة ثالث جمادى الآخرة من عام (٦٥٤) هـ .

٦ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تضرب أليّات

(١) مسلم (١٧٥/٨) .

(٢) القواف والمرجان (٣٠٥/٣) ، والبخارى (٧٣/٩) ومسلم (١٨٠/٨) .

نساء دونس حول ذى الحليمة ، وكانت صنماً تعبد ما دونس في الجاهلية بتبالة^(١) . وقد ظهرت هذه العلامة وفق أخباره عليه السلام ، فقد عادت الجاهلية إلى أرض الجزيرة قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فعبدت الأشجار والأحجار ، وانتشر ذلك في شتى بلاد العالم الإسلامي فذبحتم الذبائح ، وأوقدت الشموع ، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور بصورة عجيبة ، وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وفي هذا الخبر النبوى الشريف والذي تم طبق ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم رد على الذين يزعمون أن هذه الأمة لا يقع بينها الشرك ، ولا يوجد بينها من يعمل به مستدلين بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب »^(٢) .

وقاتهم أن يفهموا أن يأس الشيطان ليس حجة في عدم وجود الشرك في الأمة الإسلامية . إن الشيطان يئس من أن يُعبد في الجزيرة العربية لما رأى أعلام التوحيد مذمورة على ربوعها ، وأهل كلمة التقوى الذين هم أحق بها وأهلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأون كل أجوائها

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٨٢ / ٨) والثلوث والمرجان (٣ / ٣٠٦) ، والبخارى (٧٣ / ٩) .

(٢) رواه مسلم (١٣٨ / ٨) وله تمة ورواه الترمذى بلفظ : « ألا إن الشيطان قد آيس أن يعبد في بلادكم هذه أبدا ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرى بها » كتاب البر ، باب ٢٥ . وأحمد (٣٦٨ / ٢) ، ٣١٣ / ٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ ، ٧٣ / ٥) والترمذى في الفتن أيضاً باب (٢) .

وأرجائها تهلبلاً وتسكيراً ، وتحميداً وتسبيحاً فينس اللعين ، ولكن ما إن ذهب ذلك الجيل الذي رباه القائد الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وما تلاه من أجيال ، وجاءت أجيال أخرى لم تذوق طعم تلك التربية النبوية ، ولم تعرف بحق هدى الله الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فخالط أعمالها الشرك ، ودخل بعض معتقداتها الزيف والضلال حتى ذهب عن الشيطان بأسه الأول ، وعاد إليه الأمل المفقود ، وما زال يحسن لكثير من أفراد أمة الإسلام الشرك ، والعمل به حتى أصبح الشرك أكثر فشواً في الأمة من التوحيد ، وكفى بالواقع شاهداً على ما نقول ودليلاً ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١) .

٧ - قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بمصاه » (٢) . وهذه العلامة لم تظهر بعد ...

٨ - قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله : إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (٣) .

وقد بدت بوادر هذه العلامة تلوح في الأفق ، فقد قاتل العرب المسلمون

(١) سورة يوسف الآية (١٠٦) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٧/٣) ومسلم (١٨٢/٨) . والبخارى (٧٣/٩) .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٨٨/٨) والبخارى (٥١/٤) واللؤلؤ والمرجان

(٣٠٨/٣) .

اليهود في عدة معارك في أرض فلسطين ، وسوف يستمر قتالهم لهم حتى يكتب الله النصر للمسلمين ، ويستأصلون اليهود من أرض القدس نهائياً .

٩ - قوله ﷺ : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا ، (١) » وقد أخذت هذه العلامة في الظهور ، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمله هذا الخبر النبوي الصادق .

آيات قريبة جداً

من قيام الساعة

هذه بعض آيات أخرى تدل على قرب الساعة ، ولكنها قريبة جداً من قيام الساعة ، ولذا لم يظهر منها شيء بعد ومضى :

١ - في قوله صلى الله عليه وسلم : . لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، قال : فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة ،^(١) .

٢ - في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة^(٢) » فما يصل الإناث إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط^(٣) حوضه فما يصدر حتى تقوم ،^(٤) .

٣ - في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتركن

(١) (٩٥/١) وروى البخاري . كيف أتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، (٢٠٤/٤ ، ٢٠٥) والثور والرجان (٣١/١) ، ومسلم (٩٤/١) .
(٢) اللقحة : الناقة ذات اللبن .

(٣) لا ط الحوض يلوطه إذا مدره بالطين لئلا ينشف الماء : وهذا اللفظ يروى بألفاظ أخرى : - يلبط ، ويليط .

(٤) اللفظ لمسلم (٣١٠/٨) وللبخاري معناه (٧٤/٩)

القلاص^(١) ، فلا يُسعى عليها ، ولتذهبن الشحنا والتباغض والتحاسد ،
وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ، (٢) .

٤ - في قوله ﷺ في صحيح مسلم : « إن الله يبعث رجلاً من اليمن ، ألين
من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه - قال أبو علقمة : مثقال حبة من إيمان
إلا قبضته ، (٣) .

٥ - في قوله ﷺ في صحيح مسلم أيضاً : « لا تقوم الساعة إلا على شرار
الناس ، (٤) .

(١) القلاص : واحدها القلوص وهي الشابة من الإبل ، الطويلة القوائم .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٩٤/١) والثلوث والمرجان (٣١/١) ،
والبخارى (١٠١/٣ ، ١٠٢) بمعناه .

(٣) (٧٦/١) :

(٤) (٢٠٨/٨) ؛ ورواه البخارى بلفظ « من شرار الناس من تدركهم الساعة
وهم أحياء » ، (٦١/٩) ، والثلوث والمرجان (٣١٤/٣) .

(براية الانقلاب الحقيقي)

إذا أذن الله جل جلاله ، وعظم سلطانه بانقراض الكون ، وانتهاء هذه الحياة الأولى أمر ملوكا يدعى إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة واحدة للفناء فيمنح نفخة فيصاب الكون كله بخلعة عنيفة فتسحل بها كل الروابط التي كانت تربط بين أجزاء الكون ، فترتج الأرض رجاً عنيفاً ، وتزلزل زلزالا مروعا (١) ، وتندك مع جبالها دكا ، فتصير هباءاً منبثاً .

وُنصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن ، فتتناثر الكواكب ، وتتكدر الشمس ، ويذهب ضوء الكل ، ويفقد الجميع كيانه ، فتتصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هي كالنحاس المذاب تماماً ، (٢) . وإذا العالم كله سديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له .

فتنبه :

ولنذهب هنا إلى أن كل هذا الذي ذكرناه من ظواهر الانقلاب الكوني

(١) أما الإنسان الذي يزعم أنه سيد هذا الكون ، ولم يبرح يتناول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأحوال بعينه . ويسمع دويهاً باذنيه يفقد كل رشده ، وتخف أحلامه ، ويطير ليه ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراس في حقه . وقلة تعقله . هائجاً مائجاً سكران من شدة الفزع والهول وما هو بسكران ، مراضعه عما ترضع ذاهله ، وحوامله لما في بطنها واضعة .

(٢) مصداقه في قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » سورة المعارج الآية (٨) : وقوله « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » سورة الرحمن الآية (٢٧)

لقيام الساعة لم يكن مستق من مجرد النظريات الكونية، ولا مستق من تقولات الناس وتنبؤاتهم، ولا من تكهنات المعنيين بمثل هذه الأحداث الكونية، وإنما هو الحق اليقين الثابت بالوحى الإلهى، الواصل بواسطة جبريل الروح الأمين المنزل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ.

وهاهى ذى آيات الله رب الكون وخالفه تنطق بكل ما سيجرى فيه، وعليه، قال تعالى فى فاتحة سورة الحج: «يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم، يوم ترونها تُذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سُكَّارى وما هم بسكَّارى، ولكن عذاب الله شديد» (١). وقال تعالى فى فاتحة القارعة: «القارعة، ما القارعة؟ وما أدراك ما القارعة؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش» (٢). وقال تعالى من سورة المعارج: «يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبل كالعهن، ولا يسأل حميم حميماً، يفتترونها يوم المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعاً ثم يُنْجيه كلاً إنها لظى» (٣).

وقال تعالى من أول سورة الزلزلة: «إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان ما لها؟» (٤).

(١) الآيتان ٢، ١

(٢) الآيات (١-٥)

(٣) الآيات (٨-١٥)

(٤) الآيات (١-٣)

هـ - وقال تعالى : إذا السماء انقطرت ، وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت ، (١) .

وقال تعالى : وإذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيرت ، وإذا العرشا عطلت وإذا الوحوش حُشرت ، وإذا البحار سُجرت ، (٢) . وقال تعالى : وإذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رُجحت الأرض رجاء ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، (٣) .

(١) الايات . (١ - ٣) من سورة الانفطار .

(٢) الايات (١ - ٦) من مودة التكوير .

(٣) الايات (١ - ٦) من سور قالواقعة .

نشوء الحياة الثانية

بعد انتهاء الأولى

إنه لا مجال للعقل البشرى فى معرفة الحياة الثانية وإدراكها ، ولا فى بدء نشأتها ، وكيفية وجودها ، وكل ما فى الأمر أن العقل البشرى يحجز ولا يحيل وجود حياة كهذه الحياة ، أو أرقى منها بالقياس إلى هذه الحياة ، إذ القدرة الفاعلة المختارة التى كان بها هذا الكون ، ووجدت بها هذه الحياة ، فى إمكانها عقلا أن تحدث كوناً وحياة أرقى وأفضل من الكون السابق ، والحياة المتقدمة . وبناء على هذا فإن نشأة الحياة الثانية مرد معرقها إلى أخبار الله تعالى فى كتبه ، وأخبار رسله عليهم الصلاة والسلام . وأن يجعل ما عرفناه عن نشوء الحياة الثانية هو : أنه بعد فناء العالم بنفخة إسماعيل نفخة الفناء ، كما تقدم آنفاً (١) - وبعد مضى أربعين سنة لا ندرى هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسى الذى كانت به أيامنا وأعوامنا هذه ؟ بعد مضى هذا الزمن ينزل من السماء ماء ، فتنبث الأجسام تحت الأرض كما ينبث البقل ، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التى هى عبارة عن عظيم صغير يوجد فى آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد فى هذه الحياة الدنيا ، يسمى عجب الذنب . فإذا تم الخلق ، واكتمل النمو ، وأصبحت الأجسام هياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن تحملها الأرواح ، فتدب فيها الحياة وتحرك ، وتقوم ، أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التى قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان فى هذه الحياة ، وأودعت فى مستودعات بعضها فى العالم العلوى وهى الأرواح الطاهرة الطيبة نتيجة إيمان صاحبها ، وعمله الصالح ، وتركه الشرك والمعاصى . وبعضها فى العالم السفلى وهى الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها ، وإرتكابها الجرائم والآثام . فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التى

(١) فى ص (٢٣٤) فصل : بداية الانقلاب الحقيقى .

مُهِتْ لَهَا فَتَحِيَا : ثُمَّ يَنَادِي مُتَادُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنْ قَوْمُوا لِرَبِّكُمْ ،
فَنَسْمَعُ وَتَجِيبُ ، وَتَشْهَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ بِسُرْعَةٍ وَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءُ
لِلْحَشْرِ بَعْدَ أَنْ تَمَّ النُّشْرُ .

وهذه المعلومات اليقينية التي سقناها ، وكشفنا بها عن كيفية المعاد وبدء
الحياة الثانية ، وطريقة نشوتها ، جاءت بها آيات قرآنية ، وصحت بها سنن
نبوية لا مجال أبداً لإنكارها ، أو الشك فيها . وها نحن نوردنا مجملين لها
فيما يلي : -

قال تعالى من سورة الحاقة : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَصَحَّتْ
الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ
فَ فِي يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ، وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ حَرَشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَمَانِيَةٌ ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » (١) . وقال تعالى من سورة ق :
« وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادَى الْمُنَادَى مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ،
ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ، إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سَرَاعًا ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ » (٢) . وقال تعالى من سورة القمر :
« يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا ، نُخَشِّسُهُمْ أَبْصَارَهُمْ ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ، مَهْطَمِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَرُ » (٣) .
وقال تعالى من سورة المعارج : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَاعًا كَأَنَّهُمْ
إِلَى نَصَبٍ يَوْفُضُونَ ، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْدَقُهُمْ ذَلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا
يُوعَدُونَ » (٤) . وقال تعالى من سورة الإسراء : « قَسِيقُولُونَ : مَنْ يَمِيدُنَا ؟ قُلْ
الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ : مَنْ هُوَ ؟ قُلْ
عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا » (٥) .

(١) الْآيَات (١٣-١٨) (٢) الْآيَات (٤١-٤٤) (٣) الْآيَات (٦-٨)

(٤) الْآيَات (٤٣-٤٤) (٥) الْآيَات (٥١-٥٢)

وقال رسول الله ﷺ في حديث البخارى ومسلم واللفظ له : « ما بين
النفختين أربعون قالوا : يا أبا هريره أربعون يوما ؟ قال : أبيت ، قالوا :
أربعون شهرا ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل من
السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا
عضداً واحداً وهو كعب بن الأشرف ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة ، (١) .

(١) لم يحزم أبو هريرة راوى الحديث بتفسير لفظ الأربعين هل هو أربعون
يوماً ، أو شهراً ، أو عاماً غير أنه وزد في رواية أخرى مفسراً باللفظ (سنة) قاله
النووى في شرحه على مسلم (٨١٣/٥) طبعة الشعب تحقيق وإشراف عبد الله أحمد
أبو زينة . والحديث في اللؤلؤ والمرجان (٣١٥/٢) ، والبخارى (١٥٨/٦) ، (٢٠٥)
ومسلم (٢١٠/٨) .

الحشر

والموقف الصعب في عرصات القيامة

ما هو الحشر

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة ، وذلك لفصل القضاء ، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم . فالتناس إذا بُعثوا من قبورهم أحياء ، حفاة ، عراة ، مُغرلا ، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولا يبعده ثانيا ، قال تعالى من سورة الانبياء : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » (١) . وقال الرسول ﷺ في الصحيحين : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد » (٢) وقال في الصحيحين أيضاً : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة مُغرلا » (٣) . قلت يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » (٤) . ويحشر الكافرون على وجوههم ، لقوله تعالى من سورة الإسراء : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غمياً وبكماً وصماً ما واهم جهم كلاً خبت زدناهم سعيراً ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ، وقالوا : أتذا كنا عظاماً ورفاتا إنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ » (٥) .

وقيل للرسول ﷺ : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال

(١) الآية (١٠٤)

(٢) اللفظ لمسلم (١٢٧/٨) والبخارى (١٣٤/٨) واللقاؤ والمرجان (٢٧٥/٣) ومعنى عفراء بيضاء تميل إلى الحمرة قليلا وقرصة النقي الخبز الأبيض السالم من الفس والنقي من النخالة (٣) الغرل جمع أغرل وهو من لم يخشن .

(٤) اللفظ لمسلم (١٥٦/٨) واللقاؤ والمرجان ٢٩٤/٣ والبخارى (١٣٦/٨)

(٥) الايتان ٩٨، ٩٧

أليس الذى أمشاه على رجله فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ (١) :

وتدنى الشمس فى ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جداً ، فتشتد الحرارة فى الموقف ، ويعرق الناس اذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً ، فقد جاء بهذا الحديث الصحيح ففى مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقيقته (٢) ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً قال : وأشار رسول الله ﷺ يده إلى فيه ، (٣) »

(١) متفق عليه والألفظ لمسلم (١٣٥/٨) والبخارى (١٣٧-٩) واللقاؤ
والمرجان (٢٨٢/٢) .
(٢) الحق بفتح الحاء والجمع حقاء كبناء هو الخصر . أو الإزار لأنه يشد على الحق .
(٣) مسلم (١٥٨/٨) :

فصل القضاء

والشفاعة فيه

ما هو فصل القضاء :

إن المراد من فصل القضاء هو أن الناس لما يحشرون إلى ربهم ، ويبلغ العناء منهم مبدأ عظيماً ، وذلك من شدة الهول ، وصعوبة الموقف ، يرغبون في أن يحكم الله تعالى فيهم أو بينهم بما هو أهله . وبما هم متبئين له بحسب طهارة أرواحهم ، أو خبثها . فيريحهم من شدة الموقف وأتعابه ومصداق هذا في قوله تعالى : « وإذا الرسل أقتت ، لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين » (١) ، كما في قوله عز وجل : « هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيّدون ، ويل يومئذ للمكذبين » (٢) . ولما يطول موقفهم ويعظم كربهم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون ما أُنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ فيأتون آدم ليشفع لهم عند الله تعالى فيعتذر لهم ويقول : « إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى !! اذهبوا إلى غيرى ، فيأتون المرسلين واحداً واحداً نوحاً ، وإبراهيم ، فوسى ، فعيسى فيعتذر الكل ، ويقول نفسى نفسى !! حتى يفتنوا إلى خاتم الأنبياء ، وإمام المرسلين محمد ﷺ فيقول : أنا لها ، فيأتى ربه فيخر ساجداً تحت العرش ، ويلهمه ربه تعالى محامداً يحمده بها ، فلا يزال كذلك حتى يقول له الرب تبارك

(١) سورة المرسلات الآيات (١١ - ١٥) .

(٢) سورة المرسلات الآيات (٣٥ - ٤٠) .

وتمالى : « ارفع رأسك ، وسل تعطى ، واشفع ' تشفع ، فيرفع رأسه ويقول :
يا رب أمتى فيقال له : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من
الباب الايمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من
الابواب (١) ، ويجرى بعد ذلك القضاء مجراه فتعطى الكتب ، وتوضع
الموازين ، ومحاسب الناس .

(١) كل هذا الذى ذكرنا من بيان الموقف ، والشفاعة ثابت فى الصحيحين ؛
وقد تقدم فى مبحث الشفاعة من هذه العقيدة فليرجع إليه

الحساب

والميزان

إن الحساب يدور على محتويات الكتب التي يُعطّاها كل فرد من أفراد الناس في ساحة فصل القضاء ، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف ، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب ، وتلقيهم لها ، إذ منهم من يُعطى كتابه يمينه ومن أمامه ، ومنهم من يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره ، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بمصيره ، ويعلم على الفور عن فوزه ، وفرحه ، وسروره ، أو عن خيبته ، وخزونه ، وخسرانه. قال تعالى في بيان هذا وتقريره من سورة الأنشاق :

«فأما من أوتى كتابه يمينه ، فسوف يُحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً . وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدهو ثبوراً ، ويصلى سعيراً» (١) وقال من سورة الحاقة : «فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول : هاؤم اقرؤا كتابيه ، إني ظننت أني مُلاق حسابه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فأسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين . غلبيس له اليوم هناه جيم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون» (٢).

وبينما هم كذلك إذ توضع الموازين القسط ، ويتقدم الناس واحداً واحداً

(١) الايات (٧-١٢)

(٢) الايات (١٩-٣٧)

الحساب ، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض الذى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، من حوسب يوم القيامة عذب ، فقالت : أليس الله عز وجل يقول : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » (١) ، فقال لها : ليس ذلك الحساب إنما قال العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب ، (٢).

ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً ، يُستنطق الفرد ، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، فإن أجاب بالصدق والحق فيها ونعمت ، وإن حاول الكذب أو السكتان فإنه يختتم على فمه ، وتستنطق جوارحه ، فتنطق بالذى عمل فى دنياه ، ولا تخفى شيئاً ، فيلومها على نطقها وشهادتها عليه ، فيكون ردها عليه بقولها الذى حكاه القرآن الكريم من سورة فصلت : « أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ » (٣) . وقال تعالى فى بيان هذه الحقيقة من سورة النور : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٤) . وقال تعالى فى ذلك من سورة يس : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٥) .

ويجرى هذا الاستنطاق والاستنطاق فى جور هيب للغاية ، إذ تقوم فيه الأَشْهاد ، ولا يؤذن للمرء فى الاعتذار فيعتذر ، ولا تقبل من ظالم مغدرة ، وتعرض الأعمال عرضاً حياً ناطقاً ، فيرى المرء عمله وهو يباشره ويألفه لفضيحة !!! قال تعالى من سورة الزلزلة : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً لمبرؤاً أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

(١) سورة الانشقاق الآية (٨)

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٦٤/٨) اللؤلؤ والمرجان (٢٩٩/٣) ، والبخارى

(٣٩/١) .

(٤) الآية (٢٤) .

(٣) الآية (٢١) .

(٥) الآية (٦٥)

شراً يره (١) ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية ، وتخصص الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق ، فتوضع في موازين العدل ، وتوزن ، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة ، أو يكون الشقاء . قال تعالى في بيان هذه الحقيقة من سورة الأنبياء : « ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢) وقال تعالى من سورة المؤمنين : « فمن أثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . ترفع وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » (٣) .

(١) الآيات (٦ - ٨)

(٢) الآية (٤٧) .

(٣) الآيات (١٠٢ - ١٠٥) .

الصراط

والخبر الصراط :

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها ، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة ، يضطر الناس إلى المرور على الصراط ، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة كأداء فى طريق الداهيين إلى دار السلام ، ويمر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون ، وهو : يدعو : « رب سلم سلم » (١) . ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا ، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى لسكانه البرق الخاطف . ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبا على يديه وركبتيه ، ويهلك من يهلك بسقوطه فى جهنم دار الشقاء ، والهوان ، والبوار ، والخسران .

وقد وصف رسول الله ﷺ الصراط فى معرض حديثه عن الشفاعة العظمى وال مقام المحمود الذى وعده به ربه تبارك وتعالى فى قوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » (٢) ، فقال ﷺ : فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبى الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق قال : قلت : أبى وأبى أى شىء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفه عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد

(١) رواه مسلم (١٢٩/١ ١٣٠) وفى البخارى الحديث عن القيامة والصراط وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، (١٩٣/١ ، ١٩٤) والذواق والمرجان (٤٢ - ٤٤) ومسلم بلفظ « ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » (١١٢/١) ، (١١٤) .

(٢) سورة الإسراء الآية (٧٩)

الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم ، سلم .
حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يحمي الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال :
وفي حاقق الصراط كلاليب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت به ، فخذوش
ناج ، ومكدوس في النار ، (١) .

القنطرة بين الجنة والنار

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

نعم : إنه بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من الوقوع في
النار يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، لتهديبهم وتطهيرهم من كل ما كان
بينهم من عداوات أو شحناء ، أو حقوقهم لبعضهم على بعض ، ثم بعد ذلك
يؤذن لهم بدخول الجنة فيدخلون . وقد روى حديث القنطرة هذه الإمام
أبو عبد الله البخاري في صحيحه ، وهذا نصه :

يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصر
لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم
في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه
بمنزله كان في الدنيا ، (٢) .

(١) أخرجه مسلم (١/١٢٩ ، ١٣٠) .

(٢) البخاري (٨/١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ٣/١٥٨ ، ١٥٩) .

—

دار السلام

إن من إتمام بحث عقيدة البعث والجزاء ، وتوفية هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن حقه في الدرس والبحث أن يخص كل من دار السلام . ودار البوار^(١) بمرض خاص يحل حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام ، ويتعد عن الثانية باجتباب الشرك ، وترك معصية الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

ولما كان الحديث عن دار السلام شيقاً ومحبباً إلى النفوس المؤمنة ، فإن الإطناب فيه أولى من الإيجاز ، والاسباب أولى من الاختصار . ومن هنا فسيكون محتناً لهذا الجزء من ركن عقيدة المؤمن في البحث والجزاء ضافياً ، يتناول الحديث عن سعة دار السلام ، وأبوابها ، وأنهارها ، وخدمها ، ومطاعمها ، ومشاربها ، وسائر ألوان النعيم فيها . كما سيكون مصدر استقائنا لكل المعلومات في حديثنا عن دار السلام هو الكتاب والسنة ، إذ الأول كتاب من أوجدها ، وأوجد نعيمها ، وخلق أهلها ، وهداهم ، فأعدهم لها ، وعرفهم بها ، وأما السنة فإنها أخبار من دخلها ، ووطئت أقدامه أرضها ، وبلغ سدرة المنتهى فيها كما قال تعالى : « أقمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ... » ،^(٢) .

(١) دار البوار جهنم لقوله تعالى : « وأحلوا قومهم دار البوار يصلونها »

سورة إبراهيم الايتان (٢٨ ، ٢٩)

(٢) سورة النجم الايات (١٢ - ١٥) .

سبعة دار السلام

وطيب ريحها

ما أوسع دار المتقين . وما أطيب ريحها !!

إن عرضها كعرض السموات والأرض ، وإن ريحها ليوحد من مسيرة مائة عام ، إذ قال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنته عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » (١) . وقال رسول الله ﷺ : « إن ريحها ليوحد من مسيرة مائة عام » (٢) .

(أبوابها)

إن للجنة دار النعيم ثمانية أبواب (٣) . أحدها يسمى الريان ، وهو خاص بالصائمين (٤) . ومنها باب خاص بالذين لا يحاسبون من أمة محمد ﷺ (٥) .

وأبواب الجنة في غاية الوسع ، والكبر حتى إن ما بين مصراع الباب مسيرة أربعين سنة ، ومع هذا الوسع فسوف تسكظ بأنواع الداخين معها ،

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٣)

(٢) النسائي بلفظ (وإن ريحها ليوحد من مسيرة سبعين سنة) (٢٢/٨)
والترمذي ، ديات (١١) وابن ماجه (ديات / ٢٢) وأحمد (١٨٦٠ ، ١٧١/٢) ،
٥١٠٥٠ ، ٢٧/٥) والموطأ بلفظ : (وريحها يوحد من مسيرة خمسمائة عام) (١٠٣/٣)
(٣) لحديث مسلم في فضل التشهد بعد الوضوء . (١٤٤/١ ، ١٤٥) والبخاري
(١٤٥/٤) .

(٤) ورد هذا في المتفق عليه اللواتي والمرجان (٢٠ ، ١٩/٢) .

(٥) تقدم في حديث الشفاعة من فصل القضاء . وهو ومخرج في الصحيحين اللواتي
المرجان (٤٩/١ - ٥١) .

وتزودهم ، وقد علم أن حاق تلك الأبواب مكونة من ياقوت أحمر ، قائمة على صفائح من ذهب ، فقد روى مسلم في صحيحه عن الصادق المصدوق عليه السلام قوله : « إن ما بين مصراعي من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها يوم وهي كطليط من الزحام » (١).

وقال عليه السلام وهو يحدث عن أهل الجنة : « وابتتهون إلى باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب » (٢).

عند باب الجنة

ماذا عند باب الجنة :

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان ، قد خصصت إحداها للشراب الداخلين ؛ وثانيتها لتطهيرهم . فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم فلا يبأسون أبداً - وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعت أشعارهم أبداً ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا قال تعالى : من سورة الإنسان : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » (٣) ، وفي الحديث يقول الرسول عليه السلام : « وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعت أشعارهم أبداً » (٤).

(١) مسلم في كتاب الزهد (٢١٥/٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في حديث طويل في وصف الجنة . وصحح المنذرى وقفه على علي رضي الله عنه في الترغيب والترهيب (٤٩٤/٤) . ولكنه في حكم المرفوع لأن مثله مما لا يقال بالرأى .

(٣) الآية (٢١)

(٤) قال الحافظ المنذرى « رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهما عن عامر ابن حمزة عن علي موقفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر الترغيب والترهيب (٤٩٤/٤)

استقبال أهل الجنة

إن دخول الجنة سيكون قطعاً في فترات متتالية ، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى ، إذ صرح أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل ذوى الحظوظ بخسمائة عام^(١) ، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلاً في ساحة فصل القضاء ، وموقف الحساب بخلاف أهل الحظ والغنى . وفي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة الزمر : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين »^(٢) .

وفي الصحيحين من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم : « أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب دزى في السماء إضاءة لا يبولرن ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجاثرهم الأثوة »^(٣) ، أزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خاق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء^(٤) ، إن هذا التفاوت بين أهل الجنة في دخولهم ، وحسن هيتهم وجمال وجوههم عائد إلى تفاوت أعمالهم في الدنيا ، في كلياتها وكيفياتها ، وهو أمر من الواضح بحيث لا يخفى على ذى لب ، ففى الدنيا تكتسب النفس البشرية حسناتها وجمالها من إيمان صاحبها ، وأعماله الصالحة ، وفي الآخرة يكتسب جمال الذات ، وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحية التى كانت لها نتيجة إيمانها ، وصالح أعمالها في الحياة الدنيا .

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام ، وأول

(١) أبو داود (٢٩٠/٢)

(٢) الآية (٧٣)

(٣) العود يتبخر به

(٤) اللفظ لمسلم (١٤٦/٨) واللفظ والمرجان (٢٨٩/٣) ، والبخارى

المستقبلين هو رضوان خازن الجنان ، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله . وفي القرآن الكريم : « وتلقاهم الملائكة : هذا يومكم الذى كنتم توعدون » ، (١) . وفيه أيضاً : « وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ، (٢) . وفيه أيضاً : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » ، (٣) .

قصور دار السلام

وتفاضلها

نسكتفى بوصف قصور دار السلام ، وبيان تفاضلها بما جاء فى رسالتى « الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها » إذ قلت : « من الذى يقوى على وصف قصورهم ، أو يحسن التعبير عن نعيمهم وسرورهم ، والله مكرمهم ، والمنعم عليهم بقول : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملسكا كبيراً ، عالمهم ثياب من سندس خضر واستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » ، (٤) .

وقلت أيضاً : « إن الذى يمكن أن يحدثنا بعض الحديث عن قصور الجنة ، وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط ذلكم هو النبى الأسمى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو الذى تشرفت دار السلام بقدمه عليها ، ورؤيته لها فى هذه الحياة الدنيا بقظة مرة ، وغنائماً مرات أخرى ، ورؤية الأنبياء وحى ، فلمستمع إليه صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عنها ويقول محدثاً عن آخر رجل يدخل الجنة « فيقول (يارب) ألحقنى بالناس ..

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٣) .

(٢) سورة الزمر الآية (٧٣) .

(٣) سورة الرعد الايتان (٢٣ - ٢٤) .

(٤) سورة الإنسان الايات (٢٠ - ٢٢) [

فينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قعر ، من درة ، فيخر ساجداً ، فيقال له : ارفع رأسك . مالك ؟ فيقول : رأيت ربى فيقال له : ارفع رأسك إنما هو منزل من منازلك . ثم يلقى رجلاً فينبأ للسجود له ، فيقال له : منه فيقول : رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول له : إنما أنا خازن من خزائنك ، وعبد من عبيدك .. فيطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، وهو درة مجوفة سقافها ، وأبوابها ، وأغلقها ، ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء ، مبطنة ، كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى ، في كل جوهرة سرر ، وأزواج ، ووصائف أدنان حوراء عينا عليها سبعون حلة ، يرى منخ ساقها من وراء حللها ، كبدها مرآته ، وكبده مرآتها ، إذا عرض عنها إعراضة ازدادت في عيديه سبعين ضعفاً ، فيقال له : أشرف ، فيشرف ، فيقال له : ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك ، (١) .

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام ، وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم ، وكثرة صالح أعمالهم . فلنورد له الحديث الصحيح التالى : إذ فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا ، يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، (٢) .

(١) قال الحافظ المنذرى : « رواه ابن أبى الدنيا ، والطبرانى ، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعاً .. وأخذ طرق الطبرانى صحيح واللفظ له وقال الحاكم صحيح الإسنادوه فى مسلم نحوه باختصار عنه الترغيب والترهيب (٤/٥٠٣-٥٠٦) (٢) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٨٨) والبخارى (٤/١٤٥) . ومسلم (٨/١٤٥) .

وفي القرآن الكريم مصداق هذا في قوله تعالى من سورة الحديد ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، (١) .

نظرة على أرض الجنة

وتحت هذا العنوان قلت في رسالتي المشار إليها آنفاً :
 « ما نظن أخى القارىء فى أرض الجنة ؟
 هل هى من تراب أبيض أو أحمر ؟
 وهل حصاؤها من حجارة ملونة جميلة ؟
 وهل جدران مبانيها من لبن فى غاية الحسن والجمال ؟
 وهل الطين الذى يوضع بين اللبنة لرصها وإحكامها من مزيج الرمل الأبيض و (الأسمنت) (٢) الأزرق الناعم ؟
 اعلم أخى القارىء أنه لا يستطيع أحد أن يجيبك عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها ، وعاش ساعة فيها كرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وهما هو ذا يسأله أحد أصحابه عنها فيقول له : « إنها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها (٣) المسيك الأذفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يئأس ، ويخلد لا يموت ، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم ، (٤) .

(١) الآية (٢١) .

(٢) الأسمنت كلمة معربة امل عربها الجبر أو الجص أو نوع منها يخالفهما فى القوة والشكل لا فى الماهية والذات . (٣) الملاط : الطين .

(٤) روام الزمضى (جنة / ٢) والدارمى (رقاق / ١٠٠) ، وأحمد (٣٠٥ / ٢) ، (٤٤٥) ، وقال عبد القادر الأرناؤوط فى تعليقه على جامع الأصول (١٠ / ٤٩٧) وابن حبان فى صحيحه ، والطبرانى فى الأوسط .

جنة عدن

بين الجنان

لجنة عدن بين سائر الجنات ميزة خاصة لم تكن لغيرها ، ألا وهي أن إيجادها تم بخلق الله تعالى المباشر لها ، إذ ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى قد خلق جنة عدن بيده فقد أخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عنه صلى الله عليه وسلم قوله : خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، وملاطها المسك ، وحشيشها الزعفران ، حصباؤها اللؤلؤ ، تراها العنبر ، ثم قال لها انطقي ، قالت : قد أفلح المؤمنون ... (١) .

تفنييه !

نحن نعلم أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وليس في الكون كله علويه وسفاهيه إلا خالق واحد هو الله رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين ، وليس ثم غيره أبدا .

فعندما نذكر أنه تعالى خلق كذا بيده ، لإخباره تعالى بذلك كما في قوله : وما ننزعك أن تسجد لما خلقت بيدي (٢) أو لإخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الحديث السابق الدال على خلق الله تعالى لجنة عدن بيده سبحانه وتعالى فإنتانحنى أن هذا الخلق قد تم على خلاف سنة الله تعالى في خلق الكائنات ، وأن ما أخبر تعالى عنه بأنه خلقه بيده يكون له مزيد شرف ورفعة بذلك الخلق الخاص وهو الخلق المباشر .

ومن باب تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نقول : إنه عندما يأمر

(١) الترغيب والترهيب (٤ / ٥١٣ ، ٥١٤)

(٢) سورة ص (٧٥) .

الملك أو ذو السلطان ببناء قصر مثلاً فيني ، فإنه يقال بنى الملك القصر ، وإن لم يباشر البناء بيده ، وذلك لأن البناء قد تم بأمره ، وبسبب الامكانيات التي وضعها تحت تصرف بانيه ، كما أنه إذا تناول الملك حجراً ووضع بيده في زاوية من زوايا جدار القصر يقال وضع الملك حجر الأساس بيده ومعنى ذلك أنه باشر وضعه بيده حقاً وصدقاً وليس من باب المجاز المرسل الذي علاقه السببية في شيء .

ومن هنا قلنا : إن خلق الله تعالى لادم بيديه هو خلق مباشر ، وحقيقة لا ينبغي إنكارها .

ومثل خلق آدم خلق جنة عدن ، وكل ما ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى خلقه بيديه هو من باب الحقيقة ، ولا معنى لذكر المجاز في ذلك ولا فائدة منه .

الخيام والأسواق

في دار السلام

بما أن الجنة فيها - بإخبار الله تعالى - ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون ، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين ، أو تسمع به أذن ، أو يخطر لبشر على قلب ، كما جاء ذلك في الصحيحين في قول الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) وفي قوله تعالى من كتابه العزيز : « يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يُعطى عليهم بصحاف من ذهب ، وأكواب ، وفيها ما تشتهيه

(١) واه مسلم (٨ / ١٤٣) والبخارى (٤ / ١٤٣) واللائق (٣ / ٢٨٦)

الأنفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون ، تلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ،^(١) وفي قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة : ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم ،^(٢) .

أقول بما أن الجنة حاوية لكل أوجه النعيم الروحاني والجسماني ، مشتملة على كل ضروب السعادة ، وصنوف النعيم لا يستنكر أن يكون فيها خيام ، ولا يستبعد أن يكون فيها أسواق إذ في الخيام متع ، وفي الأسواق سرور وجور وسنكتني بعرض هذه الحقيقة . وتأكيدها بذكر كلمات قليلة جاءت في رسالتي « الجنة دار الأبرار ، تحت عنوان جانبي صغير :

في الخيام - حيث قلت : في الجنة خيام قطعاً ، وكيف لا ؟ وخالقها عز وجل يقول : « حور مقصورات في الخيام ،^(٣) . والسؤال هو ما شكل تلك الخيام ؟ ما نوعها ؟ ما هي مادة تكوينها ؟ وما مدى حسناتها وجمالها ؟

والإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات لا تتلقى إلا من فهم النبوة الطاهر برهاناً ساطعاً ، وحققاً قاطعاً ، إذ يقول فداء أبي وأمي : « للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها (في السماء) ستون ميلاً (وعرضها ستون ميلاً) للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً ،^(٤) . وقلت ومن الخيام إلى السرق :

(١) سورة الزخرف الايات (٦٨ - ٧٢) .

(٢) سورة فصلت الايات (٣٠ - ٣١)

(٣) سورة الرحمن الاية (٧٢)

(٤) رواه مسلم (٨ / ١٤٨ ، ١٤٩) وأما ما بين القوسين من الزيادات فهي في مسلم أيضاً في نفس الموضع ولكنها من أحاديث أخرى ورواه البخاري أيضاً في بدء الخلق باب صفة الجنة (٤ / ١٤٣) ، راجع التلويح والمرجان (٣ / ٢٨٩) .

سبحان الله ١٤ وهل في الجنة أسواق ؟ وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لعباده من أهل الإيمان والاستقامة : « ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، (١) إنه ليس من المستغرب أبداً أن تتوق نفس المؤمن في الجنة إلى دخول سوق من الأسواق وخاصة المؤمنين الذين تعودوا الضرب في الأسواق ، والأرباح الطائلة ، كعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وأمثاله ممن كانوا يتعاطون التجارة في صدق وأمانة ، ويربحون أعظم الأرباح - فقد تتوق نفس أحدهم إلى ذلك وهو في دار السلام فيطلبه ويدعيه فيخلق الله تعالى لهم أسواقاً يدخلونها إتماماً للأنعام في دار السلام .

وهذا مسلم يخرج لنا حديث السوق في الجنة فيقول : « إن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة قهقريه ريح الشمال فتحنو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، (٢) .

أنهار الجنة وأشجارها

تحت هذا العنوان من رسالة الجنة دار الأبرار ، قلت : يا أخى القارىء هات يدك تتجول قليلا بين أنهار الجنة وتحت أشجارها ، ونمتع النفس ساعة قبل يوم الساعة !

هيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم ، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التى هى لمصل كل أنهار الجنة ، إنها نهر الماء ، ونهر اللبن ، ونهر الخمر . ونهر العسل كما جاء ذلك فى قول الله عز وجل من سورة محمد ﷺ .

مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصفى ولهم فيها من كل الثمرات ، (١) .

إن من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر ، وما أدراك ما الكوثر ؟ !

إن الله سبحانه وتعالى خبر به نبينا محمداً ﷺ وأُمَّته ، وهو أعظم أنهار الجنة ، وأحسنها ، جاء الوعد به فى كتاب تعالى القرآن الكريم حيث قال : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر » (٢) .

ولنستمع إلى صاحبه صلى الله عليه وسلم يصفه لنا فنمتع سمعنا بذلك ، روى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم مرفوعاً قوله : « بينما أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قسب الدر الجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو

الكوثر الذى أعطاك ربك . قال فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر، (١)
كما روى الترمذى بسند صحيح عنه صلى الله عليه وسلم قوله «الكوثر نهر فى
الجنة ، حافته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك
وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» ، (٢) قلت : ومن الأنهار الى
الأشجار .

فلنصنع الى البخارى يروى لنا طرفاً من أخبار الأشجار ، فإنه أصبح رواية ،
وأدق عبارة فى هذا الشأن . قال قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام
لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم : « وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة
لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، (٣) .

ويحدث ابن عباس عن هذا الظل فيقول « الظل الممدود ، شجرة فى الجنة
على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها ، فيخرج
أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون فى ظلها فيشتمى بعضهم ويذكر
لهو الدنيا ، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان
فى الدنيا ، (٤) . ويقول : « نخل الجنة جذعها من زمرد خضر ، وكرها ذهب
أحمر ، وسعفها كسوة لاهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال

(١) البخارى ١٤٩/٨ .

(٢) ذكر هذين الحديثين المنذرى فى الترميز (٥١٧/٤) راجع الترمذى

(٨٤/٦)

(٣) رواه البخارى فى (١٨٣/٦) ومسلم فى (١٤٤/٨) واللقطوى والمرجان (٢٨٧/٣)

والآيات من سورة الواقعة الآيات (٣ - ٢٤) وراجع الترمذى (٢٠٩/٧)

(٤) رواه الترمذى وحسنه ، الترغيب والترهيب (٥٢٠/٤)

القلال والدلاء أشد يابضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس فيها عجم ،^(١) .

المطاعم والمشارب في الجنة

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت ، لا شيء فيه من النعم للجسم بالمرّة ، وهذا المعتقد خطأ محض ، وباطل لا شك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام .

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوى الخطير فنقول :

أولاً : إن الأرواح التى يراد لها النعيم لا يتم لها النعم الحقيقي إلا إذا كانت حالة فى أجسام ثلاثية ، وتستقر فيها ، وتقوم بها ، ولذا فإنه لما أريد لإنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجساماً خاصة ثلاثية فتحل فيها ، فتم لها النعم بما أعد لها من نعيم طيلة حياتها فى البرزخ ، فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة ، وتأوى إلى فناديل معلقة تحت العرش ،^(٢) ومصدق هذا فى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ،^(٣) .

(١) رواه الحاكم وصححه وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٥٢٣/٤) ، والحاكم (٧٦/٢) إلا أن فى الحاكم لفظ « كرايفها » بدل « كربها » ، وكلاهما بمعنى : أصل السحفة الغليظة العريضة .

(٢) معنى الحديث مخرج فى الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢٩٧/٢) .

(٢٩٨) ، وقد رواه مسلم بقريب من هذا اللفظ (٣٨/٦١ ، ٣٩) .

(٣) سورة آل عمران الآيتان (١٦٩ ، ١٧٠) .

وثانياً : أن القدرة الكافية التي خلقت الإنسان اليوم ورزقه ، وخلقت له ضروباً من النعيم الدنيوى كأطيب المطاعم ، وألذ المشارب ، وأجمل الملابس ، وأحسن المساكن وأفره المراكب ، قادرة على إيجاد ذلك فى الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجل وأكرم .

وثالثاً : تفضيل الحياة الدنيا التي وجدت على أساس الفناء على الآخرة التي وجدت على أساس البقاء ، وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلاً ، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم فى الحياة الدنيا جثانياً روحياً بنال الجسم والروح معاً مع أن الدار دار كدر ، وتغنيص ، وفناء ، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت ، والأجل المحدود ، ويكون النعيم فى الآخرة وهى الحياة الباقية الخالدة روحياً بحثاً لا وجود للأجسام ، ولا علاقة للأرواح بها : فى حين أن الحياة فى البرزخ وهو الفترة ما بين موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد ، وإن قفى وكان تراباً ، إذ سبق للروح تعلق بالقبر كامل ، فيكون القبر لها أشبه بمحطة اللاسلكى متى أرادت الاتصال به اتصلت ، ولهذا ورد أن الميت إذا سلم عليه زامره فى قبره عرفه ورد عليه السلام (١) .

هذا وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة المقوية على أن النعيم يكون فى الآخرة جثانياً روحياً معاً ليس بشئ إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هى أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا أعلم بالخالق من الخالق : ولا من الرأى بما رأى وشاهد . فانه تعالى يقول مخبراً عما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون :

(٣) ورد هذا فى الحديث الذى صححه ابن عبد البر عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر الرجل الذى كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، عن أضواء البيان (٤٢٦/٦) .

يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا
وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطفأ عليهم
بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وأنتم
فيها خالدون ، تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة
كثيرة منها تأكلون ، (١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يحدث عن نعيم أهل الجنة ، ويصفه كما رآه
وعرفه فيقول : « أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ، ولا يبولون ،
ولا يتغوطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ،
يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » ، (٢) . ويقول : « إن أسفل
أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم
صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة ، في كل واحدة لون ليس
في الأخرى مثله ، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها يجد آخرها من
الطيب واللذة مثل ما يجد لأولها ، ثم يكون ذلك ربيع المسك الأذفر ،
لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون » ، (٣) .

وما ذكرناه لم يعد أن يكون شاهداً فقط ، وإلا فإن هناك عشرات
الآيات ، والأحاديث الصحاح تصرح بنعيم أهل الجنة ، وأنه روحاني جثائي ،
وأنه ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلال ، والتحلل
بالحلى ، والجلوس على الأرائك ، والتمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ،
والزيارات التكريمة ، والقضاءات الحبيبة .

(١) سورة الزخرف الآيات (٦٨-٧٣) .

(٢) رواه مسلم (١٤٧/٨) وفي البخاري معناه (١٤٣/٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني : قال المنذرى رواه ثقات الترغيب
والترهيب (٥٠٨/٤) .

وهذه أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم تتحدث بذلك
فلستمع إليها وهي تقول : عن الحل والحلل .

« إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها
الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير . وهُدوا
إلى الطيب من القول ، (١) .

وعن الأرائك والأسرة :

تقول : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون في جنات النعيم ،
أولئك من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضوعة متكئين عليها
مقابلين ، (٢) .

وتقول : « وجزاهم بما صبروا جنة ، وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك
لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلًا ، (٣) .

وعن النساء :

تقول : « وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهنبيض مكنون (٤) » وتقول :
« ولو اطّلت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض للأت ما بينها
ريحاً ، ولأضأت ما بينها ، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، (٥) .
وتقول :

(١) سورة الحج الايتان (٢٣ ، ٢٤)

(٢) سورة الواقعة الآيات (١٠ - ١٦) .

(٣) سورة الإنسان الآيات (١٢ - ١٤) .

(٤) سورة الصافات الايتان (٤٨ ، ٤٩) .

(٥) البخارى بقريب من هذا اللفظ (٤ / ٢٠ ، ٢١)

« لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لمئات الأرض ربح مسك ،
ولذهب ضوء الشمس والقمر ، » (١) .

وعن الطرب

تقول : « إن في الجنة لمجتمعا للحوار العين يرفعن بأصوات لم تسمع
الخلائق بمثلها يقلن :

نحن الخالدات ، فلا نبيد .

ونحن الناعمات ، فلا نبأس .

ونحن الراضيات ، فلا نسخط .

طوبى لمن كان لنا وكننا له ، » (٢) .

وتقول : « إن في الجنة نهراً طول الجنة ، حافته العذارى قيام متقابلات
يخنين بأحسن أصوات يسمعا الخلاق ، حتى ما يرون في الجنة مثلها ، قيل
لأبي هريرة (راوى هذا الخبر) : ما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله : التسبيح ،
والنحميد ، والتفديس ، والثناء على الرب عز وجل ، » (٣) .

وعن الخيل وركوبها :

تقول : « قال عبد الرحمن بن ساعدة رضى الله عنه كنت رجلاً أحب
الخيول فقلت : يا رسول الله ، هل في الجنة خيل ؟ فقال : إن أدخلك الله الجنة
يا عبد الرحمن كان لك فيها فرس من الباقوت له جناحان يطير بك حيث
شئت ، » (٤) . وتقول :

(١) رواه الطبراني والبخاري وإسناده حسن . الترغيب والترهيب (٤ / ٥٢٣)

(٢) رواه البيهقي والترمذي ووسمه بالغرابة الترغيب والترهيب (٤ / ٥٣٧) .

(٣) رواه البيهقي موقوفاً . الترغيب والترهيب (٤ / ٥٣٨ ، ٥٣٩)

(٤) رواه الطبراني ورواته ثقات . الترغيب والترهيب (٤ / ٥٤٥)

، إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول ، لها أجنحة خطوها مد البصر ، فيركبها أهل الجنة ، فتطير بهم حيث شاءوا ، (١) .

وعن تراودهم :

تقول : إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض ، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، ويسير سرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعوا جميعاً ، فيتسكروا هذا ويتسكروا هذا فيقول أحدهم لصاحبه : أتعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كذا ، في الوضع كذا ، فدعونا الله تعالى فغفر لنا ، (٢) .

وعن اعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام :

تقول : إذا سكن أهل الجنة الجنة أناهم ملك فيقول لهم : إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه ، فيجتمعون ، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل ، ثم توضع مائدة الخلد ، قيل يا رسول الله : وما مائدة الخلد ؟ قال : زاوية من زواياها أوسع عما بين المشرق والمغرب ، فيقطعون ، ثم يكسبون . فيقولون : لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل فيتجلى لهم فيخرون سجداً ، فيقال : لستم في دار عمل إنما أنتم في دار جزاء ، (٣) وتقول : « بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور » فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب جل جلاله . قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم

(١) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذرى والريث (٥٤٤ / ٥)

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبخاري وسكت عنه المنذرى ، والريث والريث .

(٥٤٣ / ٤)

(٣) رواه أبو نعيم وسكت عنه المنذرى وسكت عنه المنذرى معناه موافقة منه

على سلامة الرواية والريث والريث (٥٤٦ / ٤) .

يا أهل الجنة فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ماداموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم ، وتبقى فيهم بركته ونوره ، (١) .

ونقول إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون : —

ليك ربنا وسعديك ، والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً ، (٢) .

(١) رواه ابن ماجه وغيره وسبكت عنه المنبرى (٤ / ٥٥٣) .

(٢) البخارى ومسلم واللفظ له (٨ / ١٤٤) ، والمؤلف والمرجان (٣ / ٢٨٧) .

والبخارى (٨ / ١٤٢) .

دار البوار

إن دار البوار هي نار جهنم مأوى الكافرين (١) ، كما أن دار السلام هي الجنة دار المؤمنين المتقين (٢) ، وقد تقدم لنا أنه من إتمام البحث لعقيدة المؤمن في اليوم الآخر ، أو البعث والجزاء أن يخص كل من دار السلام ، ودار البوار بعرض خاص يحل حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام ، وعلى الرهبة من دار البوار ، فتطلب دار السلام بالإيمان والتقوى ، وتطلب النجاة من دار البوار باجتنب الشرك ، وترك المعاصي ، وقد استعرضنا الجنة دار السلام استعراضاً كافياً — والحمد لله — حتى لسكان القاريء عندما ينهى آخر خبر عنها قد رآها بأمر عينه ، وعاش فيها بنفسه وبدنه ، وهانحن نستعرض دار البوار — أعاذنا الله منها ، وزحزحنا عنها لننجو من عذابها ، ونفوز بالجنة ونعيمها فنقول : إن الحديث عن دار البوار ليس كالحديث عن دار الأبرار ، فإذا حسن الاطناب في الحديث هناك فإنه يحسن الاقتضاب في الحديث هنا ، إذ النفس تنبسط عند سماع النعيم ، وترتاح له ، وتلذذ ، وتنقبض عند سماع الشقاء ، وترتاح له ، وترهبه . ولذا فسلسرع في العرض لدار البوار ، ونوجز فيه ما أمكن الإيجاز على خلاف استعراضنا لدار السلام ، وما فيها من نعيم مقيم ، وهذا هو العرض :

-
- (١) يقول الله تعالى : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ، سورة إبراهيم الآيتان (٢٨ ، ٢٩) .
 (٢) قال عز وجل : والله يدعوا إلى دار السلام . . . سورة يونس الآية (٢٥) وقال عز من قائل : — ولهم دار السلام عند ربهم . . . سورة الانعام الآية (١٢٧)

محنة جهنم للناس في الموقف

وما هي ذى جهنم قد جرى بها وبرزت للناس في عرصات القيامة قال تعالى :
« وجرى يومئذ بحمهم »^(١) وقال : « وبرزت للجحيم للغاوين »^(٢) إن الانقلاب
الكوني الذي يتم ، وتبدل فيه الأرض غير الأرض ، والسموات غير
السموات ، وبرز للناس فيه الله الواحد القهار . كما قال تعالى من سورة إبراهيم
عليه السلام : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد
القهار »^(٣) يفاجأ فيه الناس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهي بروز جهنم لهم ،
ورؤيتهم لها ، حيث يحاط بها المنجر بالآزمة كما تنجر القاطرة ، ولها تغيظ وزفير كما قال
الله تعالى « وجرى يومئذ بحمهم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » ، يقول
يا ليتني قدمت لحياي ،^(٤) وكقوله تعالى : « ويزت الجحيم للغاوين » ، وقيل
لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فكذبوا
فيها هم والغاوين ، وجنود إبليس أجمعون ،^(٥) . وقوله صلى الله عليه وسلم في
الصحيح : يؤتى بحمهم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام ، سبعون
ألف ملك يحبرونها ،^(٦) .

(١) سورة الفجر الآية (٢٣)

(٢) سورة الشعراء الآية (٩١) .

(٣) الآية (٤٨)

(٤) سورة الفجر الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٥) سورة الشعراء الآيتان (٩١ - ٩٥) .

(٦) رواه مسلم (٨ / ١٤٩) ورواه الترمذي كتاب ضفة جهنم (١) .

أبواب جهنم

إن دار البوار وهى عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات ، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها ، وهى سبع تتفاوت فى شدة عذابها ، أخفها عذاباً أعلاها ، وأشدّها أسفلها ، ولكل دركة أسمها الخاص بها ، وبابها الخاص كما قال تعالى « وإن جهنم لموعدهم أجمعين » لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، (١) وكما قال تعالى « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » (٢) . وقد وردت أسماء دركات دار البوار فى القرآن الكريم ، غير أنها وردت مفردة فى عدة سور ، ومذكورة فى عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها ، وقد يكون ترتيبها كالتالى : نار جهنم ، لظى ، الحطمة . السعير ، سقر ، الجحيم ، والهاوية . هذه هى السبع الدركات ، اللهم أجرنا منها ، واصبرف عنا عذابها . وإن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ، (٣) .

كيف يدخلونها ؟

إنه يؤتى بأهل النار يساقون إليها أفواجاً متتابعة فوجاً بعد آخر وزمراً متداركة زمرة بعد أخرى ، وقد برزت لهم كما قال تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » (٤) وما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظها وزفيرها ، كما قال تعالى : « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » (٥) . ثم يخرج منها عنق فيلتهم من شاء الله أن يلتهمهم من أهل الموقف من

(١) سورة الحجر الايتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٢) سورة النساء الاية (١٤٥) .

(٣) سورة الفرقان الايتان (٦٥ ، ٦٦) .

(٤) سورة الزمر الاية (٧١) .

(٥) سورة الفرقان الاية (١٢) .

الجهنم والمشركون ، فقد جاء هذا واضحاً في رواية الترمذى إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران ، وأذانان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين ، وتساق تلك الزمر إلى جهنم حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة ، ففتتح لهم ، ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً ، كما قال تعالى « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسخر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنا نجزون ما كنتم تعملون » (١) ثم يلقون منها في أماكن ضيقة وهم مقيدون في الأصفاة ، مكبلون بالسلاسل والأغلال كما قال تعالى : « وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثوراً » (٢) . وكما قال تعالى « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاة ، سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » (٣) .

هذا طرف من بعض أحوال أهل النار عند دخولهم لها ، ذكرناه بياناً لجانب من جوانب الحديث عن دار البوار ، وسنواصل العرض والحديث في اقتضاب وإيجاز وفاء بما وعدنا والله المستعان .

غذاهم فيها وتلاومهم

وما أن تستقر تلك الجماعات الهالكة ، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين ، حقيرين ، ذليلين حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم ، مهين ، ذلك هو عذاب التوبيخ ، والتفريع ، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة

(١) - سورة الطور الايات (١٣ - ١٦)

(٢) - سورة الفرقان الآية (١٣)

(٣) - سورة ابراهيم الايتان (٤٩ ، ٥٠) .

العذاب الموكنين بهم مثل قولهم : ألم يأتكم نذير ، (١) ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، (٢) وهذه النار التي كنتم بها تكذبون ، (٣) دأصلوها ، فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ، (٤) . د فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ، (٥) كل هذا التوبيخ والتفريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل ، وما ذكرناه قليل من كثير .

وأما تلاومهم لحدوث ولا حرج ، ويكفيها أن نصغى إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق فلتسمع خاشعين إلى قول الله تعالى وهو يخبر عنهم فيقول : كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا أدراكوا فيها جميعاً ، قالت أخراهم لأولاهم ، ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ، (٦) ويقول : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا الذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ؟ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون ، (٧) .

-
- (١) سورة الملك الآية (٨) (٢) سورة الزمر الآية (٧١)
 (٣) سورة الطور الآية (١٤) . (٤) سورة الطور الآية (١٦) .
 (٥) سورة النبأ الآية (٣٠) . (٦) سورة الاعراف الايتان (٣٨، ٣٩)
 (٧) سورة نبا الايات (٣١ - ٣٣) .

ويقول : « وأقبل بعضهم على بعض يتسالمون قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناهم أنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ، ^(١) ويقول : هذا ، وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد : هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . هذا فوج مقتحم معكم ، لا مرجأ بهم أنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرجأ بكم ، أتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ، وقالوا : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ، اتخذناهم سخراً أم زأغت عنهم الأبصار ؟ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ، ^(٢) »

خطبة إبليس في أهل النار

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب ، وأنصحها ، وأشدّها أثراً ، ووقفاً في نفوس سامعيها أقامهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب . فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه ، فيزيدهم في كربهم ، وطول عجزهم ، وشدة إبلاسه ، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة ، والحسرة القائلة ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبلسية فللستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عليه السلام « وقال الشيطان لما نضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ، ولوموا أنفسكم . ما أنا

(١) سورة الصافات الايات (٢٧-٣٣) .

(٢) سورة ص (٥٥/٦٤) .

بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما اشركتموني من قبل ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، (١) .

درجة الحرارة في جهنم

إن حر نار جهنم لشدة قد يصهر كل ما يلقى فيه ، وإن الاستعار والتأجيج في جهنم يزداد باستمرار ، لقوله تعالى : « ما وأهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ، ذلك جزاؤهم بما كفروا » ، وقالوا : أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ، أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم . وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ، (٢) ، ولهذا فلن نستطيع أن نقدر حر نار جهنم بأية نسبة من النسب التي يعرفها الناس اليوم عندما يقيسون حرارة أى جسم حرارى ، سواء كان مغلياً ، أو ناراً ملتهبة . بيد أننا إذا أخذنا في اعتبارنا حديث الصحيحين والذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » . قالوا : إن كانت لكافية يا رسول الله : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها ، (٣) . وإذا عرفنا درجة حرارة النار اليوم وضربناها في النسب المذكورة في الحديث أمكننا حينئذ أن نعرف درجة حرارة نار جهنم على وجه التقريب والمقايضة فقط .

(١) الآية (٢٢) .

(٢) سورة الإسراء الآيات (٩٧ - ٩٩) .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم (١٤٩/٨ : ١٥٠) واللفظ والمرجوح (٢٩٠/٢)

والبخارى (١٤٧/٤) ، والموطأ (١٥٠/٣ : ١٥٦)

لون نار جهنم

إننا نعرف أن : النار جسم حرارى ملتهب مضي ، كما نشاهده عندما نوقد أى نار ، ونضرمها لحاجتنا إليها ، ولكن نار جهنم ليست معلومة عندنا ، ولا يمكننا أن نعرف أى شئ عنها ، إلا من طريق الوحي فقط ، فلو سئلنا عن لونها ؛ لما أمكننا أن نجيب بشئ مقنع ما لم يكن لدينا وحي فنجيب به . غير أن مالكا رحمه الله تعالى قد روى لما فى موطنه حديثاً شريفاً ، صحيحاً أمكننا به أن نعرف لون نار جهنم ، وأنه أسود ، أشد سواداً من القار لقوله صلى الله عليه وسلم : فى رواية مالك المشار إليها آنفاً : « أترونها - نار جهنم - حمراء كبناركم هذه ؟ لهى أسود من القار » ^(١) . وپروى لنا الترمذى فى جامعه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة » ^(٢) فمن خلال هذا الوحي عرفنا لون نار جهنم . وبلغنى وأنا أكتب هذا البحث أن علماء الكون اليوم قد أقرؤا هذه الحقيقة للون النار حسب مشاهداتهم للشموس الهائلة فى هذا الفضاء الكبير والذي هو دون السماء الدنيا .

(١) القار : المرفق المعروف . راجع الموطأ (١٥٦/٣) .

(٢) الترمذى (صفة جهنم / الباب الثامن) وابن ماجه (الزهد / الباب الثامن والثلاثين) وقال الترمذى فيه : « حديث أبى هريرة فى هذا موقف أصح ، وذكره عنه المنذرى فى الترهيب والترغيب (٤٦٤/١) » قلت : ولكن هذا الكلام بما لا مجال للرأى فيه فهو فى حكم المرفوع .

عمق جهنم وبعد غورها

إن جهنم وهى إحدى دركات دار البوار ليس من الممكن بغير الوعى الإلهى أن نعرف مدى عمقها ، ولا بعد غورها بحال من الأحوال ، لأنها لا تقاس بفرن من أفران الدنيا اليوم مهما كان عظيماً ، وحتى فى عصر أفران الذرة والهيدروجين ، وذلك لاختلاف ما بين الدنيا والآخرة ، وبعد ما بين طبيعتهما ، وللفرق الهائل الكبير بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق الضعيف .

ولكى نعرف على وجه التقريب عمق جهنم ، وبعد غورها نورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الصخرة لتلقى من سفير جهنم فتتهوى سبعين عاماً وما تفضى إلى فراها ، ^(١) . وقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة : قال : د كنامع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة ^(٢) . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها ، ^(٣) . ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول فى خطبه : د أكثروا ذكر النار ، فإن حرها شديد ، وإن قعرها بعيد ، وإن مقامها حديد ^(٤) .

(٢) رواه الترمذى (جهنم / ٢) وأحمد (١٧٤ / ٤) .

(٣) صوت سقوط الحجر .

(٢) مسلم (١٥٠ / ٨)

(٤) رواه الترمذى فى صفة جهنم ، الباب الثانى ،

أودية جهنم

إن دار البوار لعالم كبير ، لا يعرف له مدى ولا منتهى ، غير أننا لو أردنا أن نستشف منه وسعه وكبره ، لأمكننا ذلك من خلال ما صح عن النبي ﷺ « من أن ناب الكافر في جهنم يكون كجبل أحد الذي يزيد طوله عن خمسة أميال ، وارتفاعه عن ميل كامل » (١) .

إن عالم الشقاء : دار البوار لا شك أنه مكون من أودية ، وجبال لورود الوحي بذلك ، ففي التنزيل الكريم وردت ألفاظ مقرونة بها يدل على أنها ألوان من العذاب ، وفسرها في الجملة كثير من السلف بأنها أودية في جهنم ، ومن ذلك : الغي في قوله تعالى « نخلت من بعدهم خلل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا » (٢) والآنم في قوله تعالى : « ومن يفعل ذلك يلق أناماً » (٣) . والويل في قوله تعالى : « ويل للمطففين » (٤) « وويل للكافرين » (٥) كما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم « تفسير الويل بواد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره » (٦) .

(١) رواه مسلم بلفظ « ضرب من الكافر أو ناب الكافر مثل أحد ، وغلط جلده مسيرة ثلاث » (١٥٣/١ ، ١٥٤) .

(٢) سورة مريم الآية (٥٩) .

(٣) سورة الفرقان الآية (٦٨) .

(٤) سورة المطففين الآية (١) .

(٥) سورة إبراهيم الآية (٢) .

(٦) رواه الترمذى (تفسير سورة) الأنبياء . وأحمد (٤٧٥/٣) والحاكم

وصححه (٥٩٦/٤) .

سلاسل جهنم

وأغلالها

إن من لوازم العذاب الشديد عادة السلاسل والأغلال ، والكبول والآنكال^(١) حتى إنه قد لا يتصور عذاب أليم لا يُغل فيه صاحبه ولا يسكرل ، أو لا يوضع في سلسلة .

ومن هنا كان في جهنم السلاسل والأغلال ، والكبول والآنكال ، وقد جاء ذلك وبيانه في كتاب الله عز وجل مفرقاً في عدة سور منه كقوله تعالى : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً »^(٢) وقوله : « إن لدينا أنكالا وجحيماً ؛ وطعاماً ذا غصة ، وعذاباً أليماً »^(٣) . وقوله : « فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم ، ثم في النار يسجرون »^(٤) . وقوله : « خذوه ، فقلوهم ثم الجحيم صلوة ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين »^(٥) . وقد روى باسانيد جيد عن كثير من السلف أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر ، وتخرج من دبره ، فينظم فيها كما تنظم السمسم في الخيط ، والحرزة في السلك .

الحيات والعقارب في جهنم

إذا كانت جهنم - أجارنا الله تعالى منها - هي دار العذاب ، وعالم الشقاء ،

(١) الكبول جمع كبل القيد الشديد ، وكذا النكل الذي جمعه أنكال .

(٢) سورة الإنسان الآية (٤) .

(٣) سورة البرمّل الآيتان (١٢ ، ١٣) .

(٤) سورة غافر الآيات (٧٠-٧٢) .

(٥) سورة الحاقة الآيات (٣٠-٣٤) راجع ابن جرير الطبري في تفسيره

وكان العذاب أنواعاً متنوعة ، وصنوفاً مصنفة حتى في عالمنا الأرضي ، إذا ، وحياتنا الدنيا هذه ، فما بالناس بالشقاء ، ودار البوار ، إن فيها من صنوف العذاب ، وضروب الشقاء ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ومن هنا فلا يستغرب أبداً وجود حيات ناهشة ، ولا عقارب لادغة مميتة في جهنم ، يعذب بنهشها ولسعها أهل دار العذاب ، وكيف ، وقد فسر الخليل بن عباس رضي الله عنهما ، وقوله تعالى : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » ، (١) فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم العقرب كالبلغلة الموكفة (٢) .

ولا يبعد أن يكون هذا التفسير من ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لاسيما وقد روى الحاكم وصححه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله « إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت » ، (٣) تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً ، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حر موتها (٤) أربعين سنة ، ()

(١) سورة النحل الآية (٨٨) .

(٢) الموكفة : الضخمة انغزيرة اللبن ، راجع ابن جرير في تفسير سورة

النحل (١٦٠/٦) .

(٣) البخت : الإبل الخراسانية .

(٤) الحوة : سورة وشدة الألم .

(٥) الحاكم وقال فيه صحيح الاسناد ولم يخرجاه ورافقه الذهبي (٥٩٣/٤) .

طعام أهل النار

هل لأهل النار من طعام؟ وهل حياتهم تمكنهم من يأكلوا أو يشربوا؟

نعم ، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ، إذا الطعم والشراب من لوازم الحياة ، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون : إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب ، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى : « كلما قضيت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليدوقوا العذاب » (١) وقد يسألون الموت بالفعل ، ويطلبونه ولكن لا يُستجاب لهم . جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تعالى : « ونادوا يا مالِك ليقض عاينار بك ! قال إنكم ما كثرون » (٢) وقد أخبر تعالى عن عدم موتهم بقوله : « لا يُقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها » (٣) كما أخبر تعالى أن من يصل النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا جاء ذلك في قوله من سورة الأعلى : « ويتجنسها الأَشقى الذي يصل النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا » (٤).

بعض أنواع طعامهم :

١ - الزقوم : هو ثمر يخرج من شجرة تلبث في أصل الجحيم ، مذاقه مر شديد المرارة ، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم ، ومن خواصه أنه يقل في البطن غليان الماء فهو شديد بالجير ، الذي إن صب عليه الماء فار وغلا ، قال تعالى في بيانه : « ذلك خيرٌ نزلنا ، أم شجرة الزقوم ؟ إنا جعلناها

(١) سورة النمل الآية (٥٦) .

(٢) سورة الزخرف الآية (٧٧) .

(٣) سورة فاطر الآية (٣٦) .

(٤) الآيات (١١ - ١٣) .

فتنة للظالمين ، لأنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رموس الشياطين فإنهم لا يكون منها فالزبون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ، (١) . وقال : « إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كاللهمل يغلى في البطون ، كغلي الحميم ، (٢) .

وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، وقال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامهم ؟ » (٣) .

٢ - الغسلين :

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح ، وصديد ، وعرق ، وما يخرج من فروج الزناة ، وما يسيل من لعاب شاربي الخمر ، والمفتائين ، والكذابين ، وقائل الباطل ، وشاهدي الزور .

ورد ذكر الغسلين في سورة الحاقة في قوله تعالى : « فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » (٤) . والمراد من الخاطئين الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك . قال تعالى من سورة البقرة : « بلى من كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٥) .

(١) سورة الصافات الآيات (٦٢ - ٦٧) .

(٢) سورة الدخان الآيات (٤٣ - ٤٦) : والميل : الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا أذيت .

(٣) رواه الترمذي وصححه (حقه جهنم / ٤) وابن عساحه (زهد / ٢٨) وأحد (١ / ٣٠١ ، ٣٣٨) .

(٤) الآيات (٣٥ - ٣٧) . (٥) الآية (٨١) .

٢ - الضريع :

وهو شوك مر متناه في المرارة ، يلسب في الحلق ، يسيغه الإكل بالحميم ، فيسبب له إسهالاً فظيماً ، فلذا هو لا يسمن آكله ، ولا يغنيه من جوع ، كما قال تعالى من سورة الغاشية : « ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » (١) .

بعض انواع مشاربهم :

الشراب لازم لكل ذى كبد رطبة ، وأهل النار ذوو أكباد ، فلا بد لهم من ماء يشربون ، كما لا بد لهم من طعام يأكلون ، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة ، واستمرار نملئها ، وقد قدر لاهل النار البقاء فيها ، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش ولكن ليزيد في محنتهم وطول عذابهم ، وقد سبق بيان بعض ما كاهم ، وهذا بيان بعض مشاربهم .

١ - الحميم :

وهو ماء حار يجري من عين آنية (٢) ، ومن خواصه أنه يصهر به ما في بطونهم ، ويقطع أمعاءهم قال الله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية » (٣) وقال تعالى : « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » (٤) . وقال تعالى : « يُصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق » (٥) .

(١) الآيتان (٦ ، ٧)

(٢) آنية : أى درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً .

(٣) سورة الغاشية الآيات (٢ - ٥) .

(٤) سورة محمد الآية (١٥) (٥) سورة الحج (١٩ - ٢٢) .

(٢٥ - عقيدة)

٢ — ماء الصديد :

وهو ماء كدر ، يحوى كميات من الصديد ، يُغص به شارب به حتى لا يكاد يسيغه ، يعانى شارب به منه آلاما لا يعلم مداها إلا الله تعالى : قال تعالى من سورة إبراهيم : « وخاب كل جبار عنيد ، من وراءه جهنم ، ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتية الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن وراءه عذاب غليظ » (١) .

٣ — ماء المهل :

وهو ماء تخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب بحيث إذا أدناه أحدهم من فيه ليشربه ، شوت حرارته جادة وجهه ، قال تعالى فيه : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرقفقا » (٢) .

٤ — ماء فخر الغوطة :

وهو ماء متجمع ما يسيل من فروج الزواني من النساء فقد روى أحمد بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال : « نهر يجري من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم » (٣) ، هذا ونهى الكلام على مطاعم أهل النار وشاربهم بحديث تفصيلي رواه الترمذى موقوفاً عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، حيث قد استعرضت فيه أحوال أهل النار بصورة وأفية عجيبة يقول : « يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من

(١) الآيات (١٥ — ١٧) .

(٢) سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٣) أول هذا الحديث : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ومصديق بالسحر . ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر ... الخ ، أحمد (٣٩٩ / ٤) .

العذاب ، فيستغيثوا فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ،
فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيندكرون أنهم يحيزون الغصص في الدنيا
بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلايب من الحديد ، فإذا
دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم
فيقولون : ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون : ألم تك تأتيكم رسلكم بالبيئات ؟
قالوا : بلى قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ، قال : فيقولون :
ادعوا مالكا ، فيقولون : يا مالكا ليقض علينا ربك ، قال : إنكم
ما تكون ، ، قال : الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالكا إياهم
ألف عام قال فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون :
« ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا
ظالمون ، ، قال فيجيئهم : « اخسؤا فيها ولا تكلمون ، ، قال : فعند ذلك
يتسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون في الزفير ، والحسرة ، والويل ، (١) .

فحش أجسام أهل النار

وقبح منظرهم

ماذا عسى أن نقول في فحش أجسام أهل النار ، وقبح منظرهم ، وهل في الإيمان تصور ذلك في الذهن ، أو تصويره للناس ليدركوه ، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحي الإلهي الذي نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رسم لنا صورة واضحة مُستشف من خلالها مدى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم ؟ ولنستمع إلى كل من الشيخين يروى لنا حديثاً في هذا الشأن يقول البخاري ومسلم في صحيحه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع »^(١) ويقول مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث »^(٢) ويقول أحمد بن حنبل في مسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء »^(٣) ومقعدة من النار كما بين قديد ومكة ، وكثافة جسده اثنتان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار...^(٤) ويروى لنا أحمد وغيره بسند لا بأس به : « أن الكافر ليجر لسانه يوم القيامة وراه قدر فرسخين يتوطؤه الناس »^(٥).

(١) متفق عليه الثوري والمرجاني (٢٩٣ / ٣) ، والبخاري (١٤٢ / ٨) ،
ومسلم (١٥٤ / ٨) .

(٢) مسلم (١٥٣ / ٨) ، (١٥٤) .

(٣) البيضاء : جبل .

(٤) الجبار : ملك من ملوك اليمن له ذراع معروف المقدار . والحديث في أحمد
(١ / ٢٣٤ ، ٥٢٧) .

(٥) أحمد (٩٢ / ٢) ورواه الترمذي (صفة جهنم / ٣) . بلفظ « إن الكافر
ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس » .

وما أحسب أن هناك منظرًا أقبح من هذا المنظر ، لولا ما أخبر به الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون عن كلوح أهل النار كقوله : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ^(١) . حيث فسر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « تنقلص شفة الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة ، روى هذا التفسير للكلوح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أحمد والترمذي والحاكم رحمهم الله تعالى أجمعين^(٢) .

تفاوت عذاب أهل النار

إن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابت مقطوع به ، صرح بذلك الأحاديث النبوية للصحيح ، وهو تابع لتفاوت أعمالهم ، وما كسبوا من خير وشر في هذه الحياة الدنيا ، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضى بأن تُجزى كل نفس بما عملت ، لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شروها هي ذى الأحاديث المصرحة بتفاوت أهل النار في العذاب بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى في الحياة الدنيا ، روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو متعل بنماين يغلى منهما دماغه^(٣) وخف عذاب أبى طالب إلى هذه الدرجة من أجل ما قدمه من خدمات الإسلام في شخص نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أهون أهل النار عذاباً رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى الرجل بالقمقم^(٤) » كما روى

(١) سورة المؤمنون الآية (١٠٤) .

(٢) الترمذى (جهنم / ٥) أحمد (٣ / ٨٨) .

(٣) مسلم (١٣٥ / ١) .

(٤) متفق عليه واللفظ للبخارى (١٤٤ / ٨) ، والواقظ والمرجان (٥٣ / ١) ومسلم

مسلم أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم «منهم» - من أهل النار - من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته ، (١) وفي هذا أظهر دليل وأوضحه على تفاوت العذاب بين أهل النار .

بكاء أهل النار وعويلهم

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام ، ومقاساة الشدائد والأحوال ، ودار البوار وسكانها لا يرحون يتجرعون الغصص ، ويتذوقون مر العذاب ، حزنهم دائم ، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف ، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل ، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح ، فهم يتضاعون فيها ، ويصطرخون ، يدعون بالويل ، والحسرة ، والنبور .

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون ، قال الله تعالى : « وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مُقرنين دعوا هنالك ثبورا ، (٢) وقال تعالى : « وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، (٣) وقال تعالى : « لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ، (٤) . وقال تعالى : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتاكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ، أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب

(١) رواه مسلم (١٥٠/٨) إلا أن أوله « ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ليس فى هذه الرواية وإنما هو فى رواية أخرى لمسلم أيضاً فى نفس الجزء والصحة .

(٢) سورة الفرقان الآية (١٣) .

(٣) سورة فاطر الآية (٣٧) .

(٤) سورة الانبياء الآية (١٠٠) .

الله وإن كنت لمن الساخرين،^(١) وقال تعالى: «وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا»^(٢).

وأخيراً فقد روى الحاكم بسند صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «إن أهل النار سيكون حتى لو أُجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم بمعنى مكان الدمع»^(٣) فاللهم قنا عذابك، يوم تبعث عبادك، وأجرنا من النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

(١) سورة الزمر الايتان (٥٥، ٥٦).

(٢) سورة الفرقان الايات (٢٧ - ٢٩).

(٣) الترغيب والترهيب (٤ / ٤٩٣). والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم

ينخرجه ووافقه الذهبي (٤ / ٥٩٣).

البرزخ

تعريف :

البرزخ في عرف اللغة : ماحجز بين شيئين ، أو مافصل بين ماهيتين ، كالإابس من الأرض يكون بين بحرين ، أو نهرين فاصلا بينهما ، وقد يكون فاصلا بين ماهيتين كالحلد الفاصل بين ماهية الإنسان ، والحيوان وهو النطق أو الكلام مثلا ، وقد يكون حتى بين الشك واليقين .

وفي عرف الدين: البرزخ هو : الحياة المجردة عن النعيم أو الشقاء الجثمانى التى تستقل فيها الروح عن الجسد ، إذ الحيوانات ثلاث :

الأولى : الحياة الدنيا ، والثى تسعد أو تشقى فيها الأرواح مع الأجساد القائمة بها ، والحالة فيها .

الثانية : حياة البرزخ وهى الحياة التى تنفصل فيها الأرواح عن أجسادها التى كانت تعمرها ، ويستقل فيها الروح عن الجسد بالنعيم أو العذاب ، وسواء وجد لها فى العالم العلوى هيا كل تناسبها فتحل فيها مؤقتاً ، أو لا يوجد لها ذلك (١) .

والثالثة : الحياة الآخرة وهى التى تعود فيها الأرواح إلى أجسادها التى

(١) فى هذه العبارة إشارة إلى ما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن حياة الشهداء التى أثبتتها لهم القرآن فقال : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة فى العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ... » مسلم (٢٨/٦ ، ٣٩) .

كانت لها في الحياة الأولى ، وانفصلت عنها بالموت ، فالحياة الثانية بين الأولى والثالثة هي حياة البرزخ ، إذ هي حد فاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وهي عبارة عن عملية تربص وانتظار ، والغرض منها : اجتماع الأرواح ، وتكاملها استعداداً للدخول في الحياة الآخرة ، وذلك أن الحياة الأولى قامت على أساس الإيجاد المتلاحق ، فيخلق الله تعالى الجسد والروح على طريقة معينة في الخلق ، فيعيش ذلك المخلوق عاملاً بما أُخلق له زمناً معيناً ، ثم تجرى له عملية انفصال الروح عن الجسد وهي ما يسمى بالموت فيموت ، ويحفظ له عمله في ديوان خاص ليجزى به في الحياة الآخرة إن كان قد مُكِّن من العمل ببلوغه من حياته زمن التكليف وهو سن الرشد ببلوغه عاقلاً ، وسميماً ، بصيراً ، ولما كان الخلق في الحياة الدنيا يأتي متلاحقاً جيلاً بعد جيل ، هذا يوجد وذلك يعدم إلى أن ينتهي الخلق الذي قدر الله خلقه وإيجاده في الحياة الدنيا ، وبومها يحدث الانقلاب الكوني العظيم الذي تنتهي فيه حياة ، وتبتدىء فيه أخرى .

أقول : إنه لما كان الخلق يجرى على ما ذكر . كان لابد من وجود حياة وسط بين الحياتين ، تجتمع فيها الأرواح بعد انتهاء مهماتها التي خلقت لها في الحياة الدنيا ، وعندما يتكامل جمعها يعيد الله تعالى لها أجسادها التي كانت لها ، ويبعثها فيها لتلقى جزاءها في الحياة الآخرة من نعيم أو جحيم . فالحياة الدنيا إذاً هي حياة عمل ، والحياة الآخرة هي حياة جزاء ، والحياة الوسط بين الحياتين هي حياة البرزخ ، وهي حياة تربص وانتظار . قال الله تعالى من سورة آل عمران تقريراً لمبدء أن الحياة الأولى حياة عمل لا جزاء ، وأن الحياة الآخرة حياة جزاء لا حياة عمل : « كل نفس ذائقة

الموت ، وإنما توفتون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، (١) .

والسؤال الآن هو هل في حياة البرزخ - وهن حياة علمنا أنها تستقل فيها الأرواح عن الأبدان - من نعيم يجرى على الروح فتسعد به فترة تتربص بها ، أو عذاب تشقى به مدة حبسها وانتظارها . ؟؟

والجواب : نعم ، وهذا بيانه مفصلا .

مراحل جريان النعيم أو العذاب

على الروح في البرزخ

المرحلة الأولى عند الموت ونزع الروح

إن نعيماً أو عذاباً يتم للروح عند نزعها بواسطة ملائكة رحمة أو عذاب كما جاءت الأخبار الصادقة الصحيحة بذلك ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى من سورة الأنفال : «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد» (١) ويقول عز وجل من سورة الأنعام : «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء. لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون» (٢) فقولته : « باسطوا أيديهم ، دال على أن الملائكة تعذب المحتضر الكافر أو الفاجر بضربه على وجهه وظهره ، كما هو صريح قوله تعالى في آية الأنفال المتقدمة : والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، هذا العذاب عند الموت ، وحال النزع هو بالنسبة إلى ذى الروح الحثيث من أهل الكفر والإجرام ، وأما بالنسبة إلى ذى الروح الطيب الطاهر من المؤمنين المتقين فقد قال الرسول ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة نزل

(١) الايتان (٥٠ ، ٥١) .

(٢) الايتان (٩٣ ، ٩٤) .

إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكمان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ويحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها الروح الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، الحديث .

وأما ذو الروح الخبيثة من الكافرين والمنافقين فقال قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يحيى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضبه ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول .. الحديث (١) .

المرحلة الثانية

النعيم في القبر أو العذاب :

القبر أول منازل الحياة الثانية وهو العتبة للدار الآخرة ، ويجرى فيه النعيم والعذاب على الروح والجسد معا ، في الساعات الأولى منه ، ثم تستقل

(١) رواه أحمد ، قال المنذرى رواه محتج بهم في الصحيح . الترغيب والترهيب (٣٦٦/٤ ، ٣٦٧) ، وأحمد (٢٨٨٤ ، ٢٩٦ ، ١٣٦/٥) والفتح الرباني (٧٨ ، ٧٤/٧) ورواه النسائي بلفظ قريب من هذا (٨ ، ٧/٤) . ومعنى حنوط : طيب ، وفي السقاء : قم القربة ، والمسوح : ثياب خشنة غليظة ، والسفود : الحديد التي يشوى بها اللحم ، والمراد من سيل الروح كسيل القطرة من في السقاء : كناية عن سهولة خروجها من جسد المؤمن . والمقصود بنزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول : كناية عن شدة وصعوبة خروجها من جسد الكافر والفاجر ، والمراد من تفرق روح الكافر في جسده . كناية عن شدة الخوف والفرع وكأنها تريد الهرب عند سماعها ذلك الكلام . والله أعلم .

الروح بهما دون الجسد . إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين العقلي القياسي ، والنقلي الشرعي الديني ، فالدليل العقلي هو عدم استحالة ، وما لم يكن مستحيلاً فهو جائز ، إذ ثبوت النعيم أو العذاب للميت في القبر لا يوجب تصوره تناقضاً عقلياً . وثانياً : ما علمه كل إنسان ، وعرفه من نفسه المرات العديدة من رؤى منامية يرى فيها نفسه في نعيم كامل لا يؤسفه إلا أن ينقطع عنه بالاستيقاظ . أو عذاب شديد لا ينهيه عنه إلا استيقاظه ، بل يبقى أثر الرؤيا في نفس المرء فترة من الزمن خيراً كان أو شراً .

وأما الدليل النقل الديني فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد المؤمن لم تدعها الملائكة في يد ملك الموت طرفة عين حتى يأخذوها ، ويضعوها في ذلك الكفن ، وذلك الخنوط (تقدم الحديث عنها) ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، ثم قال : « فيصعدون بها فلا يمر على ملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا حتى يتنوها بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل . اكتبوا عبدي في علمين (في أعلى درجة في الجنة) ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : ما ديتك ؟ فيقول ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما يدريك ؟ فيقول قرأت كتاب الله ، وآمنت به ، وصدقته ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً في الجنة ، قال فيأتيه من روحها ورائحتها ، وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره . قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا برمك الذي كنت توعده . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه

الحسن يحىء بالخير . فيقول : أنا عمك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ، (١) .

وفيه أيضاً أنه قال : إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد الكافر لم تدعها الملائكة فى يده طرفه عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح (٢) ، وتخرج منها كائنات جيفة وجدت على وجه الأرض ، ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأفبح أسمائه التى كان يُسمى بها فى الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له . وقرأ رسول الله ﷺ : لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجبل فى سم الخياط (٣) ، فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرْحاً ، ثم قرأ ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به فى الريح فى مكان سحيق (٤) . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتى ملكاً فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه (٥) لا أدرى ، قال فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه ، هاه لا أدرى ، قال فيقولان له : ما هذا الرجل الذى يبعث فيكم ؟ فيقول . هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب قافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتى من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويأتى رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منن الريح ،

(١) هذا اللفظ الذى سبق كلاهما حديث واحد وقد تقدم أنه أخرجه أبو داود وأحمد وأن رواة أحمد كلهم محتج بهم فى الصحيح كما قال الحافظ المنذرى . راجع ص (٣٩٧)

(٢) المسوح جمع مسح بكسر فسكون ثوب من شعر غليظ .

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٠)

(٤) سورة الحج الآية (٣١)

(٥) كلمة هاه ، هاه هى صوت الضاحك وهى هنا التوجع ، والخيرة لعدم علمه بما يقول .

فيقول له . أبشر (١) بالذى يسوك ، هذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول .
من أنت فوجهك الوجه القبيح يحىء بالشر ؟ فيقول . أنا عمالك الحديث .
فيقول رب لا تقم الساعة ، ثم يقبض له أعمى ، أصم ، أبكم فى يده مرزبة
لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله كما
كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصبح صيحة يسمعه كل شئ إلا الثقلين
قال البراء ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد له من فرش النار . وصح
عنه صلى الله عليه وسلم . أن اسم أحد المالكين يقال له منكر ، وأن اسم
الثانى يقال له . نكير ، وأنهما يثيران الأرض بأنبياهما ، يابجفان (٢) الأرض
بشفاههما ، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف ، فيجلسانه ..
الحديث ، (٣) .

(١) كلمة « أبشر » هنا المراد بها التهمك والتوبيخ والتقريع والتهديد .

(٢) يلبجفان : يضربان الأرض بشفاههما ، ويحفراها بهما .

(٣) رواه أحمد وقال الحافظ المنذرى إسناده حسن . الترغيب والترهيب (٤/٣٦٩)

نعيم الروح أو عذابه وهو في برزخ

بعيد عن القبر ، متصل به

إنه بعد انتهاء فترة القبر التي تتم فيها فتنة الإنسان ، وبها ينكشف أمره ، وتظهر حاله ، فيسعد أو يشقى نتيجة لما يجيب به عن سؤال الملكين ، حيث يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، ويضل الله الظالمين .

بعد انتهاء الفترة هذه تودع الروح البشرية في مستودع للرحمة أو العذاب في عليين ، أو في سجين ، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة في ذلك المستودع إلى يوم يبعثون ، حيث يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها .

يبد أن للأرواح . وسواء كانت في عليين مستودع الأخيار ، أو في سجين مستودع الأشرار اتصالاً مباشراً بالقبر الذي ضم رفاة صاحبها ، وأودعت جثته فيه ، وهو اتصال مباشر شبيه بالاتصال بالسلكي الذي يتم اليوم بين محطة الإرسال والاستقبال . وبذلك يتم معرفة الزائر للقبر ، والمسلم على صاحبه^(١) ، بل ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم ، أو ألم الجحيم في القبر ، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء ، فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد في حواصل طير خضر ترعى في الجنة ، وتأوى إلى قتاديل معلقة بالعرش قال تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين

(١) روى ابن عبد البر صححه عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام . » وقد مر في المطامير والمشارب في الجنة فليرجع إليه .

بما أتاكم الله من فضله ، (١) وقال رسوله صلى الله عليه وسلم : أرواحهم — الشهداء — في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شئ نشتهى ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأى أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن نرد أرواحنا في أجسامنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا (٢) .

(٢) سورة آل عمران الايتان (١٦٩ ، ١٧٠)

(٢) مسلم (٣٩ ، ٣٨ / ٦) .

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم، وهزتها العنيفة لأركانها المتداعية، وخلخلتها للكيان البشرى المهزوز. منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذى أطلح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد، ما تزال العقيدة الإسلامية، تستهدف للطن الشديد، وتعرض للنقد القاسى المرير من خصومها الألداء، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء، علما منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذى وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ، وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية، فلماذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها، ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين، ويوما فقط تنسى لهم (١)، أن يوقفوا تيارها، ويقطعوا أسلاك أنوارها، فتعود الظلمة إلى العالم الإنسانى، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوى الردى، وأسقطتها في جحيم لا يطاق.

ولنذكر في هذا وعلى سبيل المثال فقط: أن عقيدة القضاء والقدر وهى أحد أجزاء العقيدة الإسلامية، وليست كلها أبداً قد تعرضت لطن عنيف، وتشكيك سخيف، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب. إنه لم تنكد تذهب آثار شمس النور المحمدى المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفى القدر، والقول بالجبر، ومذهب

(١) تنسى: تها وتيسر.

الاعتزال ، والتشيع ، ونجم (١) الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وترضت
أمة الإسلام بعقائدهما ، وبلادهما ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التي
زلزلت كيانها ، تنهاوى تحت ضربات الحائقين ، وطعنات الناقين .

ولما هوى ذلك النجم الذي أضاء المعمورة ، وغمر الحياة بالهدى والخير
قال الذين كفروا — تشفياً من الإسلام ، وإمعاناً في الإجمام — إن ما أصاب
المسلمين من الانهيار والسقوط ، بعد التفكك والضعف الكبير ، كان نتيجة
بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان
ذلك منهم إفكاً (٢) مفترى ، وكذباً مقلوباً ، مشوهاً للحقيقة ، إذ الواقع
هو أن الذي أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون لم يكن
نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب ، وإنما كان نتيجة
إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب ، وذلك بما دس
فيها الأعداء ، وما شوهوها به من تأويل باطل ، وتحريف سخيف قضى عليها ،
وأماها في نفوسهم أو كاد .

وهذا من أشد ما يعلل النفس أسى وحرناً ، إن أعداء المسلمين ما زالوا
يفسدون عليهم عقائدهم ، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها ، فضعفوا لذلك ،
وهانوا ، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء
عقائدهم التي يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستحيين لها .

ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يعرفوا داهمهم ،
ولا ما كادهم به أعداؤهم ، إذ أننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة
القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه ، وتهربه من مسئولياته ، ومرة
يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدير أمره ، وميسره إلى ما خلقه

(١) نجم : ظهر .

(٢) الإفك : الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب .

ﷻ . فينسب إليه تعالى الظلم ، ويعترض عليه في قضائه ، ويجارى أقداره ،
وعادل أحكامه .

ومن هنا رأيت العناية ببحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة ، لما عسى
أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه من هم في بلبلة فكر ، واضطراب نفس
من عقيدة القضاء والقدر ، فينقطع لبلال أفكارهم ، ويحول اضطراب نفوسهم ،
فيؤمنون ويرضون ، ويعملون بطاعة الله ورسوله فينجون ويسعدون .

وبين يدي بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم
ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد ، وتسهل الوصول إلى
إدراك حقيقته .

الاولى :

الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعنى هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالارض والسماء وما فيهما ، وما بينهما . وهو كون هائل عظيم يحوى عوالم كثيرة لا تحصى عدداً ولا يحاط بها حداً ، كل عالم منها يقف العقل البشرى أمامه حائراً مشدوهاً ، فى سماننا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم ، تختلف فى أحجامها ، وأبعادها ، وقوانين سيرها ، كما تختلف فى أجرامها ، ومحتوياتها ، وخصائصها .

وفى أرضنا هذه التى نعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية . ففى عالم الإنسان ، كعالم الحيوان ، كعالم النبات عجائب كثيرة فى الخلق ، وعجائب فى العدد والكثرة ، وعجائب فى الخصائص والطباع .

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة ، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم يلمسه إلا بها بعد ، وإذا ما وصلها يكون قد استنفد طاقته وانتهى . قال الله تعالى من سورة الأنعام : « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » .

هذا الكون المدهش المثير تجرى فيه حوادث هائلة عظيمة ، كل حادثة

منها لها عواملها ، وأسبابها ، ومقتضياتها الخاصة بها ، فدورة الأفلاك وسير الكواكب ، وهبوب الرياح ، واختلافها ، وتراكم السحب ، وسقوط الأمطار ، ونبات الزروع ، وتوالد الإنسان والحيوان ، وما يتجدد من موت وحياة كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية ، وأغراض صالحة سامية ، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية في التكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة .

ومن أجل هذا التنظيم السارى في كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين اتوا العلم في أن رب هذا الكون جل جلاله ، وعظم سلطانه قيد عليه قبل خلقه كلا وتفصيلا ، ووضع هذا النظام الذى يحكمه قبل وجوده ، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه ، لا يتخلف عنه ، ولا يخرج ، وهذا النظام هو سر اطراد الحياة الدنيا ، وبقياتها إلى أجلها الذى تنتهى إليه - وهو بالتالى نظام القضاء والقدر الذى دعت رسل الله جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيره وشره على حد سواء .

الثانية :

كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره ، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده ، وإنما المسألة التى شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هى مسألة قدم العالم وحدوثه ، أى هل الوجود قديم أزلى أو حدث سبقه عدم ، وطراً عليه وجود .

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ، وذلك لعلّة التغير ، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلى قطعاً ، هكذا كان

استدلال العلماء على حدوث العالم . واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذي أثبت بمالا مجال للشك فيه ، كما يقول علماء الكون ^٢ يوم أن العالم لم يكن أزليا أبدا وإنما هو حادث — مخلوق ، كما لم يكن أدياً أبداً ، بل لابد له من نهاية حتما ، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائما من جسم حرارى إلى آخر على خلافه ، ولا يمكن أن يكون العكس ، فهذه الطاقة المتاحة لابد وأن يكون هناك من أتاحها أولا ، اذ العدم السابق لا ينتج شيئا فتعين أن يكون خالقه أزليا ، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزليا كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدين ولزم أن يكون حادثاً . له بداية ، وما كان له بداية كان له نهاية حتما .

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب : وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية ، فأثبتت تلقائياً وجود الإله لأن كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته . ولابد أن يحتاج الى المبدى . الاول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى ، وفى القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى : « سنبهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، ^(١) »

بحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الاجسام الحرارية إلى غيرها ، وهى عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد فى يوم من الأيام وعندها تنتهى هذه الحياة ، هكذا يقول علماء الكون ، وهى نظرية سليمة ، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها ، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية ، ولكن باختلال الأفلاك ، كما قال تعالى فى

كتابه العزيز : « إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رُجبت الأرض رجاً ، وُبست الجبال بساً ، فكانت هباءً منبثاً » (١) ، و « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت » (٢) ، و « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت » (٣) .

يبد أن أوائك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم العلمية الخاصة حدوث العالم ، وعدم أبديته ، وأنه لا بد من فناءه ، ونهاية هذه الحياة الدنيا .

وبعد هذا فإن السؤال الملح هو كيف كان بدء الوجود . أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت ألسنة الماديين من كوينين ومن غيرهم . فلم يحاروا جواباً ، وأنى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس ، والتخمين ، والحدس ، أو الظن ، والكذب ، والحرص ، ومن تلك الظنون والتخرصات ، قول بعضهم : إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة ، ثم بردت بعد ملايين السنين ، وتجمدت ، وأصبحت ذات قشرة ترابية ، فنبأت بذلك للخلق ، والحياة عليها .

وأما الحياة فإنهم يقولون : إنها بدأت خلية بسيطة ، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن ، ثم لو سئلوا وقيل لهم : إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس ، والشمس وسائر الكواكب والنجوم وهي ملايين بتقدير انكم أنفسكم عما كان انفصالها ؟

وخلية الحياة ، وهم يقولون : إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل

(١) سورة الواقعة الايات (١-٦)

(٢) سورة التكوين الايات (١-٣)

(٣) سورة الانفطار (١-٢٠)

جرثومة من بعض الكواكب الأخرى لم لا تكون خلية أخرى إذا قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً ، ونمت فيه كما نمت على الأرض ، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا ؟ مع أنهم يقولون إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على سطحه كما يزعمون ؟؟ والحمد لله القائل : « ما أشهدتهم خالق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » (١) . فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس ، والوساوس ، والظن والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلق الكون ، وكفى بمن خلق مخبراً ؛ وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير ؟ إذ يقول تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي . أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميدَ بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر كل في فلك يسبحون » (٢) .

وقال : « قل أنتم كنتم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتعملون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم » (٣) .

هذا خبره تعالى عن خلق الكون ، وأما عن خلق الإنسان ، والجان ،

(١) سورة الكهف الآية (٥١)

(٢) سورة الأنبياء الآيات (٣٠ - ٣٣)

(٣) سورة فصلت الآيات (٩ - ١٢)

والحيوان ، والنبات فيقول تعالى : «خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من نار» (١) ويقول : «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجن خلقناه من قبل من نار السموم» (٢) ويقول : «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» (٣) . ويقول : «فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا فآبتنا فيها حبا ، وغنبا وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولانعامكم» (٤) .

أين هذا الإيمان الوافي ، والقول الشافي ، والنبأ اليقين في خلق الإنسان والكون ، من ذلك الهراء الخواء ، والحرص والتخمين ، بل الكذب والإفك المبين ؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم ، والسمع والبصم !!

وأي هؤلاء من أولئك !!؟

هؤلاء مهدوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه ، وقبلوه ، وسكنت له نفوسهم ، وآثروه ، وأولئك ضلوا بكفرهم ، فأثروا العمى على الهدى ، فعارضوا العلم الحق بالشبهات ، وردوا اليقين بالشك والمبين (٥) .

(١) سورة الرحمن الايتان (١٤ ، ١٥)

(٢) سورة الحجر الايتان (٢٦ ، ٢٧)

(٣) سورة النور الآية (٤٥)

(٤) سورة عبس الايات (٢٤ - ٣٢)

(٥) المين بفتح الميم ، وسكون الياء الكذب ومنه قوله : أكثر الغفون

المؤمنون أضواء لهم نور الوحي المبين ، فأروا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتهوكون^(١) وفي ربهم يترددون . والكافرون لاح لهم في بيداء الهوى سراب ، فجروا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب ، ولما انتهوا إليه بعد كلال ، وجدوه خيبة آمال وسوء مال . قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بئر لحى يغشاها موج من فوقه موج ، من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور »^(٢)

الثالثة :

لقد أصبح معلوما بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة . فمن أكبر حجم فيه ككوب الشمس مثلا إلى أصغر شيء كنواة الذرة الكل مشدود بقوانين هجيبة ، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله : « قلن تجمد لسنة الله تبديلا ، ولن تجمد لسنة الله تحويلا »^(٣)

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التي تربط الكون قد اختلت لحرب العالم أجمع .

ففي العالم العلوى مثلا لو أن خلا طرأ على النظام الشمسى بخروج بعض الكواكب عن مسارها ، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتما . ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هي عليه الآن بعض الزيادة ، أو نقصت على ما هي عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على

(١) اللمة والتهوك كلاهما بمعنى التغير والتردد .

(٢) سورة النور الآيتان (٢٩ ، ٤٠) .

(٣) سورة فاطر الآية (٤٣) .

الأرض للاحتراق الذي يصيبها في الحالة الأولى ، أو النجم الذي يصيبها في الحالة الثانية .

هذا في العالم العلوى ، وفي العالم السفلى لو أن نسبة الأكسجين وهى واحد وعشرون فى المائة (٢١٪) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شئ قابل للاحتراق .

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر ، وهلك الناس ، هذا مجرد مثال سقناه للأظمة العامة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون وربط بها الحياة ، وجعلها متوقفة عليها . وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن فى الحياة فهو نظام مدهش جداً . إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به فى وجوده ونشأته ، وتطور حياته ، وفى طرق معاشه ، واكتساب رزقه ، وسنن تناسله ، وحفظ نوعه ، وكيفية موته وفنائه . سوا أكثر هذه السنن الخاصة بالآحياء معلومة من تأملها ، وفكر فيها . ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح فى الإنسان ، والحيوان ، والنبات فأقول :-

إن الميل الفطرى الذى يجرده الرجل إلى امرأته ، والمرأة إلى زوجها ، وذلك الغشيان الخاص للنسل ، وحفظ النوع عميل يتم وفق سنة موضوعة للإنسان لحفظ نوعه .

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد ، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية ، وهى أن الرجل يبقى فى حاجة إلى غشيان المرأة حتى فى حال حملها ، بخلاف الحيوان فإنه إذا حملت أنثاه عافها وتركها بما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط ، وإنما للنسل ، والذى بواسطته يتوفر للإنسان غذاؤه من اللحم ، واللبن ومشتقاته ، والصوف ، والوبر ، والشعر لفراشه ولباسه ، فى حين أن الحيوان ينصرف هن أنثاه فى حال حملها ، وتقطع المودة بينها ، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينها على تربية الولد ، وحفظه كما هى الحال فى الإنسان فى تربية أولاده ،

وحفظهم . ولعل هذه الظاهرة قد توجد في الحيوان الذى يفترق إليه ولده في تربيته وحفظه إلى أمد معين - فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى ، هذا في الإنسان والحيوان ، وإنه ليبدو معقولا ، مقبولا . أما في النبات فإنه لم يأخذني العجب من شيء في ظواهر هذا الكون كما أخذني من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين . وحقا إنها لظاهرة 'جد عجيبة ، تأخذ بلب المتأمل فيها ، وبكل مشاعر الناظر إليها .

إنه يرجد في نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين . وفى أوساط الربيع وبعد ما يورق كل من ذكره وأنثاه يخرج كل منهما حبا صغيرا هو ثمرة المعتاد ، غير أن الملاحظ في ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد يقع ، فيأخذ الفلاح ثمرة الذكر اللبنة فيملقها بأغصان الشجرة الأنثى ، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير في غاية الصغر ، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل في مكان 'على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان ، فيدخل ذلك الذباب حاملا معه مادة بيضاء قد علققت بحمسه الصغير ، ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح ، ليدخل في حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلحق عددا كثيرا من حبات التين الصغيرة المهيأة للتلقيح ، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التي خلقه الله تعالى لها . هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التي هي من أقوى البراهين على وجود الله تعالى ، وقدرته ، وعلمه ، وتدبيره ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والآن ونحن في غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية في لقاح شجر التين لا يسعنا إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة ، فيثقلنا بها وهي أن ظاهرة كهذه في لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة ، أو الصدفة ، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة

والطبيعيون ، وإنما اتم بخلق وتقدير ، وتدبير خلاق عليم ، مديبر حكيم ، هو الله رب العالمين ، رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب كل شيء ومليكه الذى أشهد شهادة علم ويقين ، أنه الله الذى لا إله إلا هو القائم بالقسط ، العزيز الحكيم . اللهم إنا نستودعك هذه الشهادة فى لنا عندك وديعة تردّها علينا يوم القيامة . وأخيراً فهذا النظام فى الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه فكان كل شيء فى هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلى للتقديم الذى هو القضاء والقدر ، والذى لا يتم إيمان عبد إلا به ، والله الموفق والمهادى إلى سواء السبيل .

القضاء والقدر

ولكى يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التي قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر ، وما أوردنا فيها من كلام في خلق الكون والنظام الذى رُبط به ، والسنن التى تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كله : في الإنسان ، والحيوان ، في النبات ، والجمادات . لقد رأينا أن النظام الشمسى في غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم وهى بلايين مساره الذى يسير فيه ، ومداره الذى يدور عليه ، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة ، ولم يقع أن يخرج كوكب عن مداره الذى يدور عليه ، ولا نجم عن مساره الذى يسير فيه إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود .

كما رأينا سنن الله تعالى في حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات نشوئاً ، وتطوراً ، ونماءً ، وبقاءً ، وفناءً . وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل ، وبذلك انتظمت الحياة فهى تشير إلى غاياتها المحدودة لها . وعرفنا أن هذا هو سر القدر ، وتفسيره .

ومن هنا أصبح لنا أن نعرف القدر والقضاء بأنهما : علم الله تعالى الأزلى بكل ما أراد إيجاده من العوالم ، والخلائق ، والأحداث ، والأشياء ، وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذكر الذى هو اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضى بوجوده في كونه ، وكيفيته ، وصفته ، وزمانه ، ومكانه ، وأسبابه ، ومقدماته ونتائج بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانته (١) ، ولا يتقدم عما حدد له

(١) الإبان : بتشديد الباء الموحدة التحتية: الوقت والزمن الذى يوجد فيه الشيء .
(٢٧ — قضية)

من زمان ، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان ، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال ، وذلك : -

أولاً : لسعة علم الله تعالى الذي علم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعظيم قدرته عز وجل التي لا يحدها شيء ، ولا يعجزها آخر ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وثانياً : لربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء . هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكار مجاهد ، أو جاهل معاند ، إذ هما يتجليان في شكل قوانين ثابتة كل كائن في هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك ، ومن الإنسان إلى الحيوان ومن النباتات إلى الجمادات .

ولستمع بأذان صاغية إلى الخلاق العليم ، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه (١) ، ومشيتته له ، وقضائه به : وما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢) . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معاش ، ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم (٣) ، وإنا نكل شيء خلقناه بقدر (٤) ، ثم جنت على قدر ياموسى (٥) ، وخلق كل شيء .

(١) الضمير في « فيه » عائد إلى القدر

(٢) سورة الحديد الآية (٢٢)

(٣) سورة الحجر الايات (٢١/١٩)

(٤) سورة القمر الآية (٤٩)

(٥) سورة طه الآية (٤٠)

فقدّره . تقديرآ، (١)، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، (٢)، سبح اسم ربك
الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدر فهدى، (٣).

هذا ولم ينكر القدر؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التى لا
لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عاينه إذا أراد أن يبنى
منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة ، ثم يأخذ فى بنائه ، فيخرجه
إن كان ذا قدرة وعلم كافيين ، صورة طبق الأصل . فلا يختلف شئ مما قدره
فيه ، ولا يختلف فيه شئ مما رسمه له .

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك ، بل يُحمد
عليه ، ويشئ عليه به . فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق ، العليم ،
ذى القوّة المتين ؟ !!

وإذا فكيف وجد من ينكر القدر ، ويجادل فيه ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نذكر هنا أن القدر قد ران :
قدر سلّمه ، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى ، ولم ينكره أحد ؛ أو يمار فيه
آخر ، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم ، وما فيه من سنن ،
وما يجرى فيه من أحداث كالحياة والموت ، والقحط والجذب ، وما ينزل
بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ،
وذلك كما كونه يولد جميلاً أو دميماً ، طويلاً أو قصيراً ، وفى زمن كذا دون
غيره من الأزمنة ، وفى بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً .

(١) سورة الفرقان الآية (٢) .

(٢) سورة الاحزاب الآية (٣٨) .

(٣) سورة الأعلى الايات (٣/١)

وككون القضاء مضى بسعادة المرء أو شقائه ، كما مضى بتحديد رزقه وأجله ، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (١) . وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، واجفت الصحف ، (٢) . وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به ، يجب الرضى به ، والتسليم لله تعالى فيه فإنه على وفق رضى الله تعالى ، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تديره لمسلكه وخلقه ، وإنه ما من حادثة تحدث في الكون إلا والله تعالى فيها حكمة ، عالية ، مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى ، ومطلق التسليم .

(١) سورة الحديد الآية (٤٢) .

(٢) رواه الترمذى (قیامة / ٥٩) وأحمد (٢٩٣ / ١) وابن أبي عاصم في كتاب السنة .

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة، وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة . أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، إذ من أطمأن نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد، واتممت من حياته القلق والاضطراب، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف، ولا هيبة . ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض . ولا يهتم لحاضر، ولا يؤمله للمستقبل وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً، وأصلحهم بالاً، وأهدأهم خاطراً، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً، وأكرمهم قولاً ونفساً، إذ من عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود فلا الجبن يزيد في عمره، ولا الشح يزيد في رزقه، نافس في البطولات وسابق في المسكرات .

وبما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة في هذه الأمة، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم، قوية في قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً، وصبراً وحليماً، ومعرفة وعلماً الأمر الذي تمسكوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

والآن يحسن بنا أن نحيط عن السؤال الذي أرجأنا الإجابة عنه وهو :- كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فنقول : لقد علمنا من الكلمة التي استطردها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذي وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون

كله وما يجري فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها إذ هي جارية على نظم السنن التي يقول الله تعالى فيها : « ولن نجد لسنة الله تحويلاً » (١) : وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد ، حسنها وسئفها ، صالحها وفاسدها ، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد ، وذلك في حدود المائة الأولى من الهجرة ، قال به ، وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقي حتى قتله هشام بن عبد الملك ، وهذا لا ينافي ما روى من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم ؛ إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه ، وأخذوا نار فقتلته إلى حين .

ونفى أولئك النفر للقدر معناه أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم نقض أزلاً ، ولم تكتب في كتاب المقادير (٢) ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها ، ويتبدرو أن الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها ، وذهب باطلها وانتكح نهائياً من الوجود لأن نصوص الكتاب والسنة في إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يعد منكرها كافراً لا مقام له بين المسلمين ، وما نحن نورد تلك النصوص تسجيلاً لها في هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رأت عليه آثار الشبه التي لا تبرح تمر بالقلب ، وتوجد حوله للإغواء والفتنة ، ومن تلك النصوص قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » (٣) وقوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » (٤) . وقوله :

(١) سورة فاطر الآية (٤٣) .

(٢) المراد من كتاب المقادير اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء .

(٣) سورة القمر الآية (٢٢) .

(٤) سورة الفرقان الآية (٢) .

سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، (١) .
 وقوله : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من
 قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » ، (٢) . وقول الرسول ﷺ فى رواية
 لمسلم : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين
 ألف سنة قال وعرشه على الماء ، (٣) وقوله ﷺ فى رواية للبخارى : « كان
 الله ولم يكن شئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ،
 وكتب فى الذكر كل شئ » ، (٤) . وقوله ﷺ فى رواية أبى داود : أول ما خلق
 الله القلم فقال اكتب فقال : رب ماذا اكتب ؟ . قال : اكتب مقادير
 كل شئ . حتى تقوم الساعة ، (٥) وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا
 أنساً فى بعض تقصيره فى إحضار شئ طلبوه منه : « دعوه فلو قضى
 شئ لكان » ، (٦) وقول ابن عمر رضى الله عنهما فى صحيح مسلم وقد
 أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف (٧) . قوله

(١) سورة الأعلى الايات (١-٣) .

(٢) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٣) مسلم (٥١/٨) .

(٤) البخارى (١٥٢/٩) والمراد بالذكر اللوح المحفوظ .

(٥) أبى داود (٥٢٧/٢ ؛ ٥٢٨) وكذا رواه الترمذى (قدر / ١٧) وأحمد

(٣١٧/٥) .

(٦) هذه الرواية ذكرها ابن القيم فى كتاب القدر وهو ضعيفة سنداً والحديث
 رواه أحمد (٢٣١/٣) عن أنس رضى الله عنه بلفظ « خدمت الذى ﷺ عشرين
 سنين فما أمرنى بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامنى فان لامنى أحد من أهله إلا
 قال : دعوه فلو قدر أوقال قضى أن يكون كان » .

(٧) الأنف : المستجد الذى لم يسبق به علم الله ولا قدره .

لمن أخبره بذلك : « إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني ربي منهم وأنهم براء مني ،
والذي يخلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفق في
سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » (١) ، وقد تقدم حديث ابن
تعباس عند الترمذی وفيه قوله ﷺ « رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .
غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفي القدر عن أفعال العباد ، فزعم أن
العبد يخلق أفعاله بنفسه ، وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ، ولا عمل ، وأن
أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها . وقالوا : كيف يفعل
الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه ، وهذا هو أساس شبهتهم التي بنوا عليها
مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم ،
ولأنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله . وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى
وهي قولهم : كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؟ وأصبحوا بهذا
يعترفون بالقدرية ، أي نفاة القدر ، ولزمهم أن العبد مادام يستقل بخلق أفعاله
فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، وبطل بذلك التوحيد
الذي هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة ، لتعدد
الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه
لا بمقتضى قدرة الله وعلمه

(١) مسلم (٢٨/١) .

(٢) في ص ٤٢٠

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة ، وأول من ظهر منهم الجهم بن درهم ، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام ، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفاة المعطلين

وبما تجدد الإشارة إليه أن مذهب القدر كذهب الجبر كليهما من صنع اليهود ، لإفساد عقيدة المسلمين ، إذ سبق أن إذكرنا أن أول من قال بنفى القدر غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تنقاه من يهود الشام أيضاً .

وحقيقة الجبر : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ، فهى نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار إذ هى أفعال الله تعالى ، أجراما على يد العبد بدون إرادة من العبد ؛ ولا اختيار ؛ ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله ، وأنه لا يعاب منه فعل ، ولا يلام عليه ، ولو كان فى غاية القبح والفساد ، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشدّ شراً من سابقه الذى هو مذهب القدرية والذى ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفى القدر فقد ظلت ظاهرة فى المسلمين ، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها ، ولا رغبة فيها ، ولعل السبب يعود فى ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقى التهمة عن العبد فيما يرتكب من المعاصى ، وفيما يقارف من الفتنوب ، وتجهل منه فوراً أمام نفسه ، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحت منفعلاً لما يختار منى ففعلى كله طاعة

وكم قد هذا المعتقد الخاطىء الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل بالجاهد النافع فضعفوا ، وهانوا ، وأصيبوا بكل قاصمة للظهور ، حتى أصبحوا للكل

في المعجز والكسل ، والتخلف في ميادين العمل والإنتاج . ووَجَد بسبيهم -
العدو الكافر بجالا للطعن في عقيدة الإسلام والاحتجاج على المسلمين فيما
أصابهم ، ونزل بهم بسلوك هؤلاء الذين قتلهم مذهب الجبر ، وأفسد عليهم
دينهم ودنيائهم ، فأصبحوا يرون أحياءهم أمواتا ويبررون موتهم وقعودهم
عن كل خير يكسبه غيرهم ، ويسعد به في حياته يبررونه ؛ مثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان^(١) التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزاقك ويُرزق في غيابه^(٢) الجنين

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل ، لا يقود أهله
إلا إلى خسران الدنيا والآخرة . أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب
ماذا كان يحدث للحياة ؟ كانت تنتهي وكفى !!

فسبحان الله ! ماذا يفعل التضليل بالناس ! وهذا شأن كل المذاهب
الهدامة التي هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع
المذاهب الهدامة ، المدمرة في العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية ،
الناقين عليها ، ومن هنا فإني لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر ،
كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف السكل طبع في مطابخ اليهود ، وقدم
طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به ، ويهلكوا عليه . ولا حول ولا قوة
إلا بالله .

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً
وتحديداً من ذي قبل وتحت عنوان :

(١) سيان: بمعنى مستو.

(٢) غيابه: ظلمة الرحم .

لأجبر، ولا نفى للأفعل

الإنسان فاعل مختار

والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله ، مريداً لها ، مختاراً فيها ، مهياً للأواب عليها إن كانت خيراً ، وللعقاب عليها إن كانت شراً ، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيراً وشرها ، مع اعتقاد عدل الله ، وتنزيهه عن الظلم .

ومن هنا انفسوا فرقاً فقالت فرقة منهم : إن للعبد هو خالق أفعاله بنفسه ، وليس الله تعالى فيها دخل الية ، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقيح فينزه الله تعالى عنه ، ولا تجوز نسبتة إليه ، فالزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفي القدر عن أفعال العباد ، أي لم يعلمها الله تعالى أولاً ، ولم يقدرها ، ولم يكتب في الذكر (كتاب المقادير) ؛ ولزمهم في معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد ، وهو رد صريح لقول الله تعالى ، ألا له الخلق والأمر ،^(١) وقوله : والله خلقكم وما تعملون ،^(٢) وقوله ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ،^(٣) فكانوا بهذا مجوساً لإبائهم خالقين مع الله تعالى في الكون ، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الاعراف الآية (٥٤) .

(٢) سورة الصافات الآية (٩٦) .

(٣) سورة الانعام الآية (١٠٢) .

قال : القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم^(١) .

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى ، فسكانوا على النقيض معهم :
إذ قالوا : —

إن العبد لا إزادة له في أفعاله ولا اختيار ، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً ، وإنما الفاعل هو الله عز وجل . وما ورد في القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى : «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» (٢) وقوله : —
« إن الله يعلم ما تفعلون » (٣) إلى غير ذلك من الآيات التي تستند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً ، إنما هي نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقته أبداً . إن هي إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد ، والعبد مجبور عليها ، غير مرید لها ، ولا اختيار له في فعلها أو تركها . ولزمهم بذلك أن لا يكون في فعل العبد حسن ولا قبح ، ولا خير ولا شر ، وبالتالي فلا حساب عليها ولا عقاب . وبناء على مذهبهم هذا فإنه لم يبق من معنى لبعثة الرسل ، وإزالة الكتب . ووضع الشرائع ، ومن هنا كان هذا المذهب مذهب الجبر والتعطيل أسوأ ، وأفسد ، وأقبح من القدرية «نفاة القدر» .

وقال فريق ثالث : إنه ما دام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله : «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها» (٤) وحرمه

(١) أبو داود (٢٤/٢ ، ٢٥) وأحمد (٢/٨٦ ، ١٢٥) والفتح الرباني (١٤٠/١ ، ١٤١) وابن ماجه (مقدمة / ١٠) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٧) .

(٣) سورة النحل الآية (٩١) .

(٤) الفساء الآية (٤٠) .

على نفسه وعلى عباده في قوله في حديث مسلم القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا » (١) .

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أن لا أعماله يقوم بها حتماً ، ثم يؤاخذ عليها ؟ ابل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا : ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد ، وقرره ، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام اللوح (المحفوظ) ، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى ، أحب أم كره ، فكيف يؤمر العبد إذاً وينهى ، ويُطالب بفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، والأمر قد ثبت فيه ، وفرغ منه ، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له نهاية ، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به وينهى عنه ، وعدمها .

(الإبليسية)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث ، وإنه يبدو أن أصحابه متردودن بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه ، ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على الله تعالى ، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وأخيراً ينبغي أن تسمى هذه الفرقة الخيرى المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذى اختلفت فيه تلك الفرق فضلت عنه وجانبته . وعاشت بعيدة عنه ، وهى ما بين مجوسية نافية لإقدار الله تعالى ، مثبتة باطلا خالفين متعددين فى العالم ، فى حين أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى .

وبين جبرية معطلة للشرع ، منكرة للعقل ، وبين إبليسية معترضة على الله تعالى فى قدره ، نافية لمشيئته وحكمته ، شاكة فى عدله ، ورحمة قضائه .

هداهم - أهل الإيمان والتقوى - إلى الحق بإذنه فأمنوا بقضاء الله وقدره ، وعدله ورحمته ، وإرادته ومشيئته ، وحكمته ، وحسن تدبيره ، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى .

ذلك القدر الذى هو سر نظام الحياة ، وهو علم الله الأزل ، وتقديره لكل شيء ، وكتابه فى اللوح المحفوظ ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى « وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين » (١) فلا يزيد شيء عما كتب

ولا ينقص ، الأحداث الضغار التي تجري في هذا الكون كالأحداث الكبار ، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات ، كل شيء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون ، قد جرى به العلم ، ومضى فيه التقدير ، وكتب في الذكر حتى عجز الخاملين : وكيس الناهين . روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قوله : « كل شيء يقدر حتى العجز والكيس » (١) وأخرج الشيخان عن علي أن النبي ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة . قالوا يا رسول الله : أفلا نتكل على كتابنا ، وندع العمل ؟ قال : « واعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : فأما من أعطى ، واتقى ، وصديق بالحسن ، الآيات (٢) كما روى البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة « جف القلم بما أنت إلاق فاخص على ذلك أو ذر » (٣) .

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء ، والقدر والعدل ، والإرادة ، والمشيئة ، والحكمة ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كونهم عبد وقد قدره الله تعالى ، وكتبه عليه ، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء وبين كون العبد فاعلاً لفعله . مريداً له ، مختاراً في فعله وفي تركه ، يحاسب به ، ويجزى عليه . ولا يبين كون العبد فاعلاً لفعله وبين كون الله خالقاً للعبد وخالقاً لفعله . ولا يبين كون الله يقضى للعبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ، ويجزيه حسب عمله الذي قدر له ، وكتبه له أو عليه ، فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، وسعادة أو شقاء قد قدره

(١) مسلم (٥٢٠، ٥١/٨) .

(٢) متفق عليه بمعناه اللغوي والمرجان (٢٠٩/٣) ، والآيات من سورة الليل

(٦٠٠) .

(٣) البخاري (٥/٧)

مربوطاً بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ، ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به ، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه ومقدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مشكركه عايباً . ولا يجوز على فعلها ، والحجة في ذلك قول الرسول ﷺ : « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار » (١) . ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد ألا السعادة ، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقى لستم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً إذ الإنسان جزء من الكون كله . والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذا الإنسان كذلك مبدؤه ، وسعيه ، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال ، وتلك هي نظام القضاء والقدر إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور في سعيه إلى إحدى غايتين : السعادة أو الشقاء فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة فلذا اختلف سعيه عن سعي غيره من سائر الخلق ، ومن أجل هذا أعطى قدرأ زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار في سعيه ، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذي قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور في سعيه إلى إحدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً ،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٣/٩٢، ٩٣) . وأبو داود في سننه (٢/٥٢٩) والترمذي في تفسيره سورة الأعراف (٢) وأحمد (١/٤٥١) .

وكان بعكسه الإنسان الذى أعطى الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأباهما قال تعالى فى سورة الأحزاب : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، (١) .

زيادة ايضاح :

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول إن الإنسان مخلوق لله تعالى ، مربوب له كسائر الخلق كالشمس والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها ، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطى إرادة واختياراً لعله التكليف ، والجزاء عليه بخلاف غيره (٢) . فإنه لا جزاء له على عمله الذى يقوم به لعدم منحه إرادة حرة ، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أراد من عمله ، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله ، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب لعله فقدته الإرادة الحرة ، والاختيار التام .

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلاً على العبد فهو فاعله لا محالة ، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يُثاب على حسنه ويعاقب على سيئه .

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به ، والله خالقه ، وخالق فعله نقول : إن الكون كله مخلوق لله تعالى ، وليس ثم من خالق غيره سبحانه

(١) الآية (٧٢) ،

(٢) ومن هنا كان المجنون والصبي والنائم والمسكر والناسى لا مؤاخذه عليهم فى أفعالهم ، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم .

وتعالى ، ذللكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ (١) .
والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق فهو إذاً مخلوق ، والله خالقه وخالق
الكون كله ، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم : لا .

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير ، والشجر ينمو ، والحيوان يعمل
عمله فيأكل ، ويشرب ، ويتوالد ، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها
خالقة لأفعالها ؟ أم الله هو الذى خلقها وخلق أفعالها ؟ وإذا كان الجواب
واحداً وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها وخلق أفعالها فبأى منطق تخرج
أفعال العباد من هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط
بنفس السنين التى تربط الكون ! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله ،
مختاراً لها ؟ فإن ذلك مُنحه دون سائر الخلق لعله أن يثاب على فعله ، أو يعاقب
فقط ، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عبداً لله مريباً له . الله خالقه ، وخالق
أفعاله بالقوة التى أودعها فيه ، وأقدره على الفعل بها ، كما خلق غيره وخلق أفعاله ،
وكما خلق سائر المخلوقات فى الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التى
أودعها الكون ، وربطه بها ، فسبحانه من إله خلاق عليم ١١ .

بهذا قد تقرر هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهى أن الإنسان فاعل لأفعاله
ليس خالقاً لها . والله جل جلاله خالق للإنسان ، وخالق لأفعاله .

ونزيد الأمر توضيحاً ، والحقيقة تقريراً فنقول : أليس الإنسان ينطق ،
ويسمع ، ويبصر ويعقل ، والله هو الذى جعله كذلك ؟

أليس الإنسان يذهب ويحى ، ويأخذ ويعطى والله هو الذى أقدره على
ذلك ؟ أليس الإنسان يحب ويكره ، ويريد ويشاء ويختار ، والله هو الذى هياه

لذلك ؟ إذا فإدام الله تعالى هو الذى جعله وأقدره ، وهىأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه ، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع . وكل ما فى الأمر أن الإنسان مرید لأفعاله الإرادية ، مختار لها ، والله هو الذى جعله كذلك لعله الابتلاء والجزاء .

وهنا يقال للذى لا تنتهى وساوسه فى هذا الباب : يا عبد الله اخسأ ، لا تعدق قدرك ! ولا تعترض على ربك ، إنك تسأل ولا يسأل ، خلقتك ولم تخلقه ، كنت به ولم يكن بك ، وكان ولم تكن .

وقال أولئك الموفقون فى كون الله تعالى قدر للعبد أزلا ما شاء من قدر ، وقضى به عليه ، ثم هو بأمره ، وينهاه ، ويجزیه بحسب استجابته لأمره ونهيه ، وعدمها - قالوا :

أولاً : - إن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، له الملك ، وله الحمد ، ولا يسأل عما يفعل ، وذلك لكأل عليه ، وعدله ، وحكمته وزحمته .

وثانياً : - أن فعل الله تعالى ، وتقديره ، وحكمه كله عدل وخير ، فليس فى أفعال الله تعالى ، ولا تقديراته ، ولا أحكامه ظلم أو شر قط . قضى بهذا العقل ، وصح به النقل ، فهو سبحانه وتعالى يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » (١) ويقول : « وما ربك بظلام للعبيد » (٢) . ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التى قدمنا : « والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك » (٣) .

إن الظلم والشر ، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين ، وسنمات

(١) سورة النساء الآية (٤٠) .

(٢) سورة فصلت الآية (٤٦) .

(٣) رواه مسلم (١٨٥/٢) .

المخلوقين . أما ذو العرش المجيد ، الفعال لما يريد ، الغنى عن العبيد فقد تنزه
عن الظلم وفعل الشر . وكيف وهو الأمر بالعدل في قوله : « إن الله يأمر بالعدل
والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (١) .
وهو الداهى عن الظلم ، المحرم له في قوله : « يا عبادى إني حرمت الظلم على
نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٢) . والمرغب في فعل الخير بقوله :
« وما تفعلوا من خير يعلمه » (٣) وقوله « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » (٤) .

وثالثاً : — ماهو الظلم ، وماهو الشر ؟ أليس في مفهوم كل العقلاء هو
وضع الشيء في غير موضعه ، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع ، أو زاد
ضرره عن نفعه ؟ بلى ، وإذا ، فهل تعذيب عاص متمرّد على ربه ، فاسق
باختياره وإرادته عن أمر مولاه ، عازم على مواصلة العسق ، مصمم على المعصية
ولو عاش دهر الدهارير ، وآباد الأبدین ، ولم يحدث نفسه بالتوبة ، ولم
يردّها ، وهو قادر هايتها بما وهبه الله من قدرة ، وما منحه من إرادة .

فهل يامعشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلماً وشرّاً ؟ اللهم : لا .

رابعاً : — إنه بحكم ملسكية الله تعالى لعباده بخلقهم لإياهم ، ورزقه لهم ،
وتدبيره لأموارهم كان له الحق المطلق في أن يتصرف فيهم بما يشاء فلو عندهم
أجمعين لما كان ظلماً لهم ، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم .
وبهذا صح الخبر ، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن
زيد بن ثابت رضی الله عنه عن النبی ﷺ قوله : « لو أن الله عز وجل عذب

(١) سورة النحل الاية (٩٠)

(٢) رواه مسلم (١٧/٨) .

(٣) سورة البقرة الاية (١٩٧)

(٤) سورة الحج الاية (٧٧)

أهل السموات والأرض عنهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبلته منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار ، (١)

خامساً : — إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق ، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه — إلا أن يشاء الله — كما هي الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن ، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغر كخلية النواة .

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، (٢) » والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب ، فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب ، ولدخول النار أسباب ، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعاده أو شقائه فإنه لا بد في النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه في كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره ، وهو في نفس الوقت مريد مختار لم يكره على فعل ما فعل ، ولم يجبر على ترك ما ترك .

إن هذه الحقيقة المدهشة حرة بالوقوف عندها ، والتفكير فيها . انتهى

(١) أبو داود (٥٢٧/٢) وابن ماجه (مقدمة / ٢٠) وأحمد (١٨٢/٥) ،

(١٨٩ ، ١٨٥)

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٤٤/٨) ، والثلوث والمرجان (٢٠٧/٣) ،

والبخارى (١٣٥/٤) .

لا أشك في أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله تعالى، ولا يختر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى .

وبيان هذه الحقيقة : أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة (١) علم أنه سيخلق في يوم كذا ، وتاريخ كذا ، في مكان كذا عبد اسمه كذا ، ووصفه كذا وكذا ، وعلمه الذي سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر ، من سعادة أو شقاء . وكتب ذلك كله في كتاب عنده . وفي نفس الوقت المعين ، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد ، ويريه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح ، سليم الحواس ، صحيح العقل ، ثم تعرض له — العبد — أمور متعددة ، وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه ، أو إجبار . فيفعل الذي اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره ؛ ثم يجد نفسه بالتالي قد وافق ما كتب الله له في ذلك الكتاب الأزلي القديم ؛ ولم يخالفه في شيء ، ولم يخطئه في قليل أو كثير . فسبحان ذي العز والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ؛ سبحان الحي الذي لا يموت .

(١) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء » ، (٤١/٨) .

إرادة الله تعالى ومشيتته

إن ماله صلة وثيقة بموضوع القضاء، والقدر مسألة الإرادة والمشيتة .

فلنسمع كلمة في هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه ، وتهدينا لائق هي أقوم وأحسن في هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن .

والكلمة في هذا الموضوع تدور حول شيئين : —

الأول : إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته بالبرهانين النقلى والعقلى .

الثانى : هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى هو الذى أوقعهم فى ضلال مبين ، وخطأ وشر عظيمين .

أما إثبات إدارة الله تعالى ومشيتته فإنه يكفى فى ذلك سرد الأدلة السمعية وهى أخباره تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . ومنها قوله تعالى من سورة البقرة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (١) .

وقوله فى سورة النحل « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٢) هذا فى إرادته تعالى ، وأما مشيتته فيقول تعالى من سورة الأنعام ، « ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » (٣) . ويقول من سورة التكوين

(١) الآية (٨٥) .

(٢) الآية (٤٠) .

(٣) الآية (١١٢) .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (١) . ويقول رسول الله ﷺ
في إثبات إرادة الله تعالى « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » (٢) .

ويقول في إثباتات إرادة مشيئته تعالى : « احرص على ما ينفعك ،
واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا
وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » (٣)

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى ، وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من
كثيرة لدليلا كافياً في إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى .
ولشفع هذا الدليل السمعى بالدليل العقلي فنقول : إن الله تعالى بكونه خالق
كل شيء ، وربّه ، ومالكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ، إذ لو لم يكن مريداً
لكان مكرهاً ، ولو كان مكرهاً لما تأتى له إيجاد العوالم ، والتصرف فيها ،
والتدبير لها بمقتضى المصلحة والحكمة ، كما أن كون الإنسان مريداً شائياً
بمقتضى لإرادة الله تعالى ومشيئته ، إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق
مريداً شائياً ، ويكون خالقه لا إرادة له ولا مشيئة ، بل إن العقل يقضى
بإثبات إرادة للخالق ، ومشيئة أعظم من إرادة الإنسان ومشيئته المخلوقين
منه . فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا شاء إلا وقد أَرَادَهُ الخالق وشاء ذلك
وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق ، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال
عقلاً وشرهاً قال تعالى : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » (٤) . وقال تعالى :

(١) الآية (٢٩)

(٢) رواه البخارى (١٠٣/٤ ، ١٢٥/٩) ومسلم (٩٥/٣ ، ٥٣/٦ ، ٥٤)
واللقوق والمرجان (٢١٨/١ ، ٢١٩)

(٣) رواه مسلم (٥٦/٨) ، وقوله في آخر الحديث ، ولكن قل : قدر الله
روى بلفظ قدر بالدال المهملة المفتوحة بدون شدة ، وروى بتشديد الدال

(٤) سورة النحل الآية (١٧)

« وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (١) .

هذا في إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته . وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لها ، وما ترتب على ذلك من ضلال ، وشر ، وفساد ، فإننا نقول :

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا : إنه ليس هنا في المؤمنين من ينفي إرادة الله تعالى ومشيتته ، وإنما هناك سوء فهم لها ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر ، ونفاة القدر .

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط ، فهي نظير مسألة القضاء والقدر ، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ الله بيده خماء من زيف القلوب !

فالوسط نجا هنا كما نجا هناك ، والطرفان ضلا هنا كما ضلا هناك ، والله المستعان .

وهذا بيان ضلال القوم : إن الطرفين منهما مفرط ، ومنهما مفرط ، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها ، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيتته ، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده ، فإشياء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكرهه على قوله ، أو فعله ، بقوة سلطان قاهر له ، الجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد ، أو فعله ، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشيتته فقط . وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى ، ولا بسلطانه على خلقه ، وحكمه فيهم .

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين : إحداهما تقول : إن الله تعالى منزه عن أن يريد ضلال ضال . أو كفر كافر ، أو يشاء فعل الفواحش ، أو ارتكاب القبائح . فنفوا بهذا إرادة الله تعالى ، ومشيتته في أكثر حوادث العالم الجارية فيه ، ولازم هذا المعتقد أن الله تعالى قديم في ملكه ما لا يريد ، وأن هناك مشاركاً له في خلق الحوادث ، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى . وهذا قطعاً ضلال ، وشرك يتبرأ منهما ، ويستعاذ من مثلهما .

وقالت الأخرى وهي بمن لا رأى لهم في هذا الموضوع ولا علم ، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلداتهم ، وأكثرهم من مشقة المستغربين ، قالوا : إنه لا دخل لمشيتة الله تعالى في أفعالنا ، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة ، ومشيتتنا ، فاشتنا فعله فعلناه ، وما لم نشأ فعله لم نفعله . ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن شاء الله تعالى ، ويردون عليه في غضب وزجرة : لا تقل إن شاء الله قل سأفعل فقط . لا تقل لنا إن شاء الله ، هذه الكلمة خلها جانباً ، وقل سأفعل كذا وكفى

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبله خالصة للاستقبال ، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيتة الله تعالى ، فيخبر أنه سيسافر ، أو يبيع ، أو يشتري ، أو يبني ، أو يهدم ، أو يأخذ ، أو يعطي ، ولا يقيد من ذلك بمشيتة الله تعالى شيئاً أبداً ، بل يطلق أقواله إطلاقاً من لا يؤمن بغير إرادته ومشيتته . ولا أدل على ذلك من أن مذيعي النشرات الجوية في أغلب الإذاعات ، والتلفزات الإسلامية من عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كأن الأمر لهم وحدهم ، وليس لهم فيه مشارك . فيقول أحدهم ستهب الرياح غداً شرقية ، أو غربية ، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة في منطقة كذا ، وستراكم السحب على كذا ، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا إلى آخر ما يتلبثون به ، ويقولون في نشراتهم الجوية اليومية ، ولم يقيدوا منها بمشيتة الله تعالى ولا إرادته ، ولا أذنه شيئاً ، فدل ذلك على عدم إيمانهم بمشيتة الله تعالى ، ولا إرادته ، ولا أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ، ومشيته فإنه يترك الإستثناء بمشيئة الله تعالى خوفاً من الملاحدة حوله ، أو مجاملة لهم فيصبح قريناً لهم في الشرك والضلال .

هذه حال الطرف المفرط . وأما الطرف المفرط وهو لا يقل ضللاً وباطلاً عن مقابله ، فإنه يهدر ما منح الله تعالى عباده من إرادة ، وما وهبهم من مشيئة تليق بأدميتهم ، وتتفق مع ما هياهم الله له من التكليف التي يتقرر بها مصير العبد في الحياتين . كما سبق بيانه عند الكلام على القضاء والقدر . فقالوا :

إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة لله تعالى وحده ، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة ، فساقم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حسد له ، ولا حصر ، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالا من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، ولا بشرعه ، ولا بلفظه .

وانعكست عندهم الأمور ، واختلطت الأشياء ، فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً ، والكفر كالإيمان ، والفسق والفجور ، كالتقوى والبرور . فكل عامل عندهم هو مطيع لله سواء عمل بطاعته ، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعه عمله ، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر ، وبالتالي فلا عذاب ولا عقاب ، وذلك لأن كل عامل في نظرهم هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيته لا بإرادة نفسه ومشيته ، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة ؛ ولستع لاحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح في بيت واحد من الشعر فيقول :

أصبحت منفعلاً لما يختاره مني فعلى كله طاعات

ومبنى هذا المذهب الباطل الذي أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشيئة ، وأهدر بالتالي كل القيم والشرائع منبأه على قاعدة تقول : العبد مطيع للإرادة موافق للمراد ، يريدون . إرادة الله تعالى ومراده . وعليه فلم يبق

ذنب ولا مذنب على وجه الأرض إذ الناحر للإنسان مطيع للديان ، والصائم
الظمان موافق لمراد الرحمن ، فهما إذاً في هذا المذهب سيان .

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأ ألا إرادة للإنسان ،
ولا مشيئة ، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم ، وفهم لديهم ، وإنما قالوه اتباعاً
للهوى ، وجرياً وراء الشهوات .

إذ أن أحدهم يأتي ما يأتي من الباطل ، ويرتكب ما يرتكب من المنكر
والذنوب وإن قيل له في ذلك قال هذه إرادة الله حكمت بهذا ، ومشيئته
أقضته ، ولو شاء الله ما فعلت ، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيئته ،
وهذه حال كثير من المسلمين اليوم ، وقبل اليوم ، منذ أن فشا الفساد في عقائد
الامة ، وانتشر الزيف في صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التي ما برحت
تطعن في جسم أمة الإسلام حقناً عليها ، وحسداً لها .

ولو كان هذا القول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح ، وهو أنهم خاضعون
لمشيئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم ، وصح لهم ولكنه لا صلة
به بقلوبهم البتة ، وإنما هو مجرد قول يلوكنه بالسنتهم لدفع المذمة عنهم ،
والملامة عليهم ، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم :
« لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء » (١) . فإنهم لما دعوا إلى
عبادة الله وحده ، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحامر الإبل
وسواها (٢) ، احتجوا مبشرين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى ،

(١) سورة الانعام الاية (١٤٨) .

(٢) البحائر جمع بحيرة : وهي الناقة تذبح وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذنبا
وتخلى شديلا فلا يركب ظهرها ، ولا يجر وبرها ، ولا يشرب لبنها ، ولا يؤكل لحها ،
والسوائب جمع سائبة : وهي الناقة التي يحرمها صاحبها ويتركها تقرباً للالهة وأحكامها
كأحكام البحيرة عندهم .

وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا ؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه ، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم ؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى ، عاملين بمراده ، طالبين لرضاه ، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته ، إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين ، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله ، والافتراء عليه ، لأن الله تعالى حرم ذلك ، ونهى عنه ، ولو كان مراداً له محبوباً لديه لما نهى عنه ، وحرمه في كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جلية ، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهي : أنه لا يحتاج بإرادة الله وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتاج بهما على المصائب . فالمعائب وهي الذنوب والمعاصي ما دام الله تعالى قد حرمها على عباده ، وكرها لهم ، ومنهم ، وأنزل بذلك كتبه ، وبعث رسله ، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وقلبس بها مختاراً غير مكره عليها . لا يصح عقلاً أن يحتاج بالقدر الذي هو علم الله ، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها ؛ وكتابه لها في كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التي تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ، أو مخالفة سنة من سنن الله تعالى الشرعية أو الكونية ، فإنه إن قيل له في ذلك صبح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ، إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار ، كالرجل يسقط عليه جدار ، أو تأسعه حية ، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته ، ولا بوجود الحية ونام عليها ، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره .

أما إن تسبب في هذا فلاحق له في الاحتجاج بالقدر ، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته ، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفة سنته ، وإهماله الأسباب المشروعة لسلامته .

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام قال موسى عليه السلام لآدم لأنما له : « أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فرد عليه آدم عليه السلام محتجاً على المصيبة التي شكاهما موسى ، وهي الخروج من الجنة قائلاً : « أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فحج آدم موسى ، وغلبه في الحجة ، لأن المصائب يحتاج فيها بالقدر ، بخلاف المعائب ، لأن المصيبة لم يردها الإنسان ، ولم يأتها مخاراً لها مؤثراً إياها ، وإنما تقع عليه بدون علم منه ، ولا إرادة ولا اختيار ، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها ؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة .

أما المعائب أي الذنوب فإن العبد يأتينا مريداً لها ، وهو يعلم أن الله تعالى قد حرّمها وكرهها ، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتاج عليها بإرادة الله تعالى ، وقدره بحال من الأحوال .

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لسامع نصه كاملاً كما رواه الشيخان إذ جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : « يا آدم أنت أبونا خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة ! فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده . أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فقال النبي ﷺ : « فحج آدم موسى ، (١) . وقد روى هذا الحديث بالفاظ أخرى نكتفي بهذا اللفظ منها . والله المستعان

(١) متفق عليه التواتر والمرجان (٢١١/٣) ، والبخاري (١٥٧/٨) ومسلم

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أو قمعهم في الحيرة والخطأ

لقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خلا بسبباً يقع في جهاز ضخّم كطائرة (الكوتكورد) الفرنسية البريطانية، أو كبناية كبرى كقاطعات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحمله إلى خراب ودمار. وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر، والإرادة والمشية إذا وقع فيها أدنى انحراف، وبأى وجه، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لها.

إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم، واضطربت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشية من المسلمين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذى يحكمها من نواتها إلى نهايتها، وأنه يجب أن يمضى كما علم وكتب، وأن تغيير شىء منه معناه خراب الحياة بكاملها.

ولذا تحتم على العبد التسليم به، وله، وحرم عليه إنكاره، والاعتراض عليه، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به، أو الانسكال عليه. هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟؟

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى - ومشيته منها - تنقسم إلى إرادة كونية قدرية، وهى تلك التى لا يناط بها تكليف الإنسان، ولا إجابته ولا معاقبته، وهى الإرادة التى كان بها القدر ونظامه. وهى لاحق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم، والا أصبح محارباً لله، معارضاً لنظامه، يدعى السمو إليه، والتعالى عليه، وهو مخلوقه الذى لاغنى به عنه (١)

(١) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل.

حتى في أنفاسه التي يرددها ، والهواء الذي يتنفس فيه ، والضوء الذي يبصر به ، والظلام الذي يجمع فيه . وإلى إرادة شرعية دنيوية وهي التي أناط الله تعالى بها تكليف الإنسان ، وثوابه أو عقابه ، وهي التي يجب على العبد أن يتزل عليها ، ويطيع ربه فيها ، كما يحرم عليه التردد علها ، والخروج عنها ، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفاصيلها كتب الله تعالى ، وبمشت الدعوة إليها . وتعليمها رسل الله عليهم السلام . وهي جميع ما شرع الله تعالى لعباده من عقائد ، وعبادات ، وأحكام ، وحدود ، وآداب ، ومحاسن ، وأخلاق ، وهي التي من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من قدرة ، وإرادة ، ومشية ، واختيار ، ليتلبه مختبراً له . أيستجيب لما أَرَادَهُ ربه منه ، وشاء له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة ، فلا طاعة ولا عبادة ؟ قال تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، ^(١) » وهي الإرادة التي قد يتخطف فيها مراد الله تعالى ومحبو به ، فيأمر بها عباده ، وينهاهم ، ومنهم من يمثل ، ومنهم من لا يمثل . فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به ، وبرسله ، وبطاعته ، وطاعة رسله ، وأحب لهم الطاعة ، وكره لهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ^(٢) .

وبما منجهم من القدرة ، والإرادة ، والمشية أمكنهم من أن يمشوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم ، ليرتب على ذلك جزاءهم بإثابة المحسن وعقوبة المسيئ .

هذه هي الإرادة الدنيوية الشرعية كما ينبغي أن تعلم

ولما الإرادة الكونية القدسية والتي سبق بيانها فلين الله تعالى لم يجعل

(١) سورة الإنسان الآية (٢) .

(٢) قال الله عز وجل : « ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وذينة في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر ، والفسوق والعصيان ... » سورة المحرات الآية (٥) .

للعبد قدرة على الخروج عنها ، والتمرد عليها بحال من الأحوال ، لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التي هي التكليف والجزاء إلا من حيث أنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك ، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها .

وزيادة في الايضاح للإرادة الكونية والتي لا سبيل للانسان إلى الخروج عنها نقول : فهل يمكن للانسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض ، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً ، أو يرفض أن يولد في بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو في بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب في كل هذا ، لا ، ولم ؟ والجواب : هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها ، ولا تتخلف بحال من الأحوال ، لأنها مناط نظام الكون ، وآية الربوبية ، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى ، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية ، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها ، ورفضها ليلتليته ثم يحزيه .

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الالهية إلا أن يسجد لله هيبه وإجلالا . وأن يذكره ويشكره اعترافا وتقديرا ، وبذلك تتم كرامته ، وتكتمل انسانيته ويستقيم في حياته استجابة لما أراد الله تعالى منه كوناً وتقديراً ، وشرعاً ودينياً .

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ في فهم الإرادة والمشئقة ، الخطأ في فهم الهداية والإضلال ، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول الله تعالى في كتابه العزيز : « فيضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » (١) وقوله : « كذلك زيننا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبؤهم بما كانوا يعملون » (٢) . وقوله : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (٣) فقالوا كيف يضل الله العبد ثم يعذبه ؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا : أين العدل والرحمة في ذلك ؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوماً لربهم ، فهلكوا بجهلهم ، وشقوا بسوء فهمهم . ولو وفقوا لسلّموا لله تعالى في حكمه . ولم يعترضوا عليه في تدبيره لأمر خلقه ، إذ له الخلق وله الأمر ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا يُسأل عما يفعل ، وهو العزيز الحكيم . ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس في الاعتراض على الله عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان . ولو وفقوا — وقد عرفوا أن الله تعالى يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين ، يسألونه الهداية ، ويستعينونه من الضلال ، إذ هو مالك الملك ، القادر على كل شيء . لو وفقوا لآتوا بابه سائلين ، وللدنوا بجناحه محتمين ، حيث لاح طريق الهدى « من يهدي الله فهو المهتد » ، ومن بضال فإن تجده وائياً مرشداً ، (٤) .

(١) سورة إبراهيم الآية (٤)

(٢) سورة الأنعام . الآية (١٠٨)

(٣) سورة فاطر الآية (٨)

(٤) سورة الكهف الآية (١٧)

ولكن ما وفقرا فاتبعوا خطوات الشيطان ، فباوا بالحرمان ، والذي قادهم لهذا الخسران والهبوان جهلهم بربوبية الله تعالى ، وسوء ظنهم في الرحمن .
فجهلهم بالربوبية التي من مقتضياتها التربية والإصلاح ، ومن مستلزماتها الهداية والاضلال هو الذي جعلهم يسألون كيف ؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا ، وسوء ظنهم بربهم في تقديره ، وحسن تقديره جعلهم يعترضون على حكمه ، ويستخفون حكمته ، فهلكوا بجهلهم ، وسوء ظنهم بربهم .

فما أسوأ حالهم III ؟ وما أخسر ما لهم III ؟

والحقيقة التي قد خفيت عليهم فضلوا هي أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة ، ويمنحه القدرة السكافية على السير فيها ، فإذا آثر العبد — بعد العلم — الضلال على الهدى ، ولاه الله ما تولى ، فكان ذلك عدلا منه تعالى ، لا ظلم معه . قال تعالى من سورة التوبة : « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم ، حتى يبين لهم ما يتقون » (١) . إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى في خلقه ، والسنة في الإضلال كالسنة في الهداية وهي الإيثار ، والرغبة ، والطلب ، والعمل .

فن آثر الهداية ورغب فيها ، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له ، ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها . وهذا من رغبة الله تعالى بعباده ، وفضله عليهم . ومن آثر الضلالة ، ورغب فيها وطلبها ، وعمل بأسبابها تمت له . ولم يجز من الله تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل الله تعالى في عباده ، وحسن تدبيره فيهم . وجعلوا سنة الله تعالى في تزيين الأعمال

لأصحابها ، فأنكروا على الله تعالى ذلك ، وقالوا كيف يزين الباطل الشر
لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه ؟ ؟

وما علموا أن هذا التزيين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف وهي
أن المرء إذا أثر العمل باختياره ، وأحب من نفسه ، ولازمه غير منفك عنه
زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له ، حسناً عنده ، وإن كان شيئاً قبيحاً
عند غيره . والعمل الفاسد كالعمل الصالح في هذه السنة كلاهما يُزين لفاءله
بهذه الطريقة .

غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده ، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم
في كتبه ، وعلى السنة رسله عايهم السلام ، حذرهم من استدامة العمل
الفاسد ، والإصرار عليه ، ودعاهم إلى تركه ، والتوبة منه ، قبل أن يبلغ
من نفوسهم حد التزين ، ويصل إلى مستواه ، فيزين لهم حسب سنة الله تعالى ،
ويومها يتعذر عليهم تركه ، والإقلاع عنه .

وفي هذا يقول تعالى في سورة فاطر : أفمن يُزين له سوء عمله فرآه
حسناً ، ^(١) ويقول : كذلك زيننا لكل أمة عملهم ، ^(٢) فمن استجاب لتحذير
الله تعالى ، وترك فاسد الإهمال ، وسبها نجا ، ومن تجاهل التحذير ، وواصل
في سبيل الغي السير هلك ، ومن نجا فقد نجا برحمة الله وفضله ، حيث
هياً له أسباب النجاة ، وأعاناه على الأخذ بها ، ومن هلك فقد هلك بعدل
الله تعالى حيث نهاه عن الغي ، فأثره على الرشد ، ودعاه إلى التوبة ،
فرفضها ، وأصر على خلافها حتى وصل في عمله حد التزيين فزين له فرآه
حسناً ، وبذلك فقد الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى ، ومضت فيه
سنة الله في التزيين ، فهلك مع المالكين ، ولا عدوان إلا على الظالمين
وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ^(٣) .

(١) الآية (٨)

(٢) سورة الأنعام الآية (١٠٨) .

(٣) سورة النحل الآية (٢٣) .

الجزاء من ثواب وعقاب

قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد في الدنيا والآخرة تورطوا في جدل وخصومات لا معنى لها ، ولا داعي إليها في مسألة العدل والظلم .

حتى ضل منهم خلق كثير . وقتلتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذى هو نظام القدر ، ونابع منه ، وداخل فيه ، وليس خارجاً عنه ، ولا متنافياً معه .

وهذا بيان ذلك : إن الله تعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التى يقوم بها الإنسان أراً في نفسه ، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب .

ومن هنا كان العمل اللا إرادى كعمل الغاسى ، والمخطئ ، والمكروه ، والمجنون لا تأثير له على النفس أعنى أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة الله تعالى في ذلك . وعليه فلا ثواب ولا عقاب .

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً ، فإنه لا محالة من تأثر النفس به ، فإن كان العمل صالحاً أى من الأعمال التى شرعها الله تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها ، لتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى فى الملكوت الأعلى كان التأثير والانطباع وصفاً حسناً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع حسنة ، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل المسبب لذلك على سبيل المجاز الذى علاقته السببية .

وإن كان العمل سيئاً أى مما جعله الله تعالى حسب سنته مؤثراً فى النفس

بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين في جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع سيئاً ، وجمعها سيئات . كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً ، وقد جاء في هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى من سورة الشمس « قد أفلح من ذكاهها ، وقد خاب من دساها » (١) وقوله من سورة الانفطار « إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم » (٢) فالوصف مشعر بعلّة الحكم ، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم ، وقوله تعالى من سورة البروج « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ذلك الفوز الكبير » (٣) وقوله من سورة الزخرف « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يُفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » (٤) . فالإيمان والعمل الصالح سبب في تطهير النفس ، والإجرام بالشرك والمعاصي سبب في تدنيسها ، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب . ومصدق هذا وارد في كتاب الله تعالى من سورة الأنعام ، إذ قال تعالى « سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » (٥) .

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذي أوردنا وهو أنه تعالى سيجزي المشركين بوصفهم الكذب بما حرموا من الأنعام والحرث افتراء على الله تعالى فإن المعنى الذي أردناه قائم بالآية أيضاً ، وهو أن الجزاء على

(١) الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) الآيتان (١٣ ، ١٤) .

(٣) الآية (١١) .

(٤) الآيات (٧٤ - ٧٦) .

(٥) الآية (١٣٩) .

الأعمال الصالحة والسيدة يكون بحسب الوصف المكتسب منها للنفس البشرية
التي اقضت سنة الله تعالى انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية . مما جعله
الله تبارك وتعالى مؤثراً في النفس ، وذلك من كل ما شرع من الأعمال
الصالحة ، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به ، ويعمله
قلب الإنسان ، وجوارحه على حد سواء .

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل :
فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره ، فإن كان الكسب مما يحب الله
تعالى حيث شرعه لعباده ، وأمرهم به ، ورغبهم فيه ، وأعانهم عليه ، بعد
ما وفقهم للقيام به ، ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر أمثالها ، فكان جزاء تغلب
عليه الرحمة والإحسان ، وإن كان الكسب مما كره الله تعالى لعباده ، ونهاهم
عنه ، وحظره عليهم تخلى الله تعالى عن فاعله خذلانا له ، لأنه آثر معصيته على
طاعته ، وسخطه على رضاه ، ثم هو إن لم يغفر له بموجب من موجبات
المغفرة كالتوبة ، أو العفو الإلهي ، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل ،
السنة بمثلها فلا حيف ولا ظلم .

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة ، وتقريرها وهي أن
الجزاء ، والثواب ، والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة ، والعدل
الإلهيين ، خال من كل معنى للاساءة أو الظلم . وصدق الله العظيم إذ يقول :

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من
لده أجراً عظيماً » (١) .

الحسنة والسيئة

من الله تعالى

أو

من النفس

بين يدي الحديث عن الحسنة والسيئة ، وهل هما من عند الله تعالى ؟
أو الحسنة من الله ، والسيئة من النفس ، نظراً إلى قوله تعالى من سورة
النساء : « وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة
يقولوا : هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما هؤلاء القوم لا يكادون
يفقهون حديثاً ؟ » (١) مع قوله عز وجل من نفس السورة ، وذات السياق
« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك
للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً » (٢) .

أقول بين يدي تحقيق هذه المسألة ، والتي هي جزء هام من مسائل عقيدة
المؤمن ، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ،
والإرادة والمشيئة ، والجزاء بالرحمة ، والعدل ، وهما ما سبق لنا القول فيه
بالفصل ، وبالقدر الذي فتح الله علينا به ، ورأينا أنه كاف والحمد لله في تحقيق
المعتقد الذي يُرضى الله تعالى ، وبرضاه من عبده ، ويرضى به عنه . أقول :
إن الحسنة وهى ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء
وطهراً ، أو جسمه نعومة ونضرة ، وهى بهذا المعنى قسمان :

الأول : حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح . أو هى حسنة الطاعة لله
ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) الآية (٧٨) .

(٢) الآية (٧٩) .

الثانى : حسنة سببها الإلّعام الإلهى على العبد بما يريح جسمه من الوصب ، ونفسه من الغم والهم ، وذلك بما يؤتاه من مال ، وسلامة بدن ، ونصر ، وعز ، ومجد .

والسيئة ضد الحسنة وهى ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه ، أو هى ما يسوءه فى باطنه ، ويضره فى ظاهره ، وهى بهذا المعنى قسيان أيضا :

الأول : سيئة سببها الشرك والمعاصى إذ هما حسب سنة الله تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثاً ، فتعرض لذلك وتشقى .

الثانى : سيئة سببها الانتقام الإلهى ، وذلك كأمراض الجسم وعالاه ، وضياح المال ، والهزيمة فى الحروب ، وفقد الشرف ، وذهاب الكرامة .

وبناء على هذا الذى تقدم فالحسنة التى هى بمعنى الطاعة لله . ورسوله صلى الله عليه وسلم يوفق العبد لفعلها ، والأتيان بها على الوجه الذى شرع الله تعالى لعباده ، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى ، إذ هو الذى شرعها للعبد ، وعليه إياها ، وأمره بفعلها ، وأعانها عليها ، ووعد بحسن المثوبة عليها ترغيباً له فى فعلها ، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدراً . فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقر عليه أبداً .

والسيئة التى هى بمعنى معصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفتها فى أمرهما ونهيهما ، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً المعصية على الطاعة ، والمخالفة على الامتثال ، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلها ، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً ، لأن الله تعالى لم يشرعها ، ولم يأمر بها ، ولم يرغب فيها ، بل حرّمها ، وتوعد عليها منفرأ منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم : لا ، وكيف والله تعالى يقول

« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »، (١) .

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد ، والصحة والعافية في ذلك ، وكالنصر والظفر ، والعز والجاه ، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر وذلك كالتقص في المال والنفس والهزائم في الحروب ، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلهما — أى الحسنة والسيئة — من هذا النوع — كلاهما من عند الله تعالى ، لأنه عز وجل هو الذى يبلو عباده امتحاناً ، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده ، وتدير شأنهم . قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »، (٢) . وقال عز من قائل : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لا تسكرمون اليتم »، (٣) .

ومن هنا لما كان المتأفقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى ، وينسبون السيئة بمعنى النقمة ، والبلاء ، والشر ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد الله تعالى عليهم قولهم هذا ، وعابه عليهم ، ونسبهم إلى سوء الفهم ، وقلة الإدراك ، وأخبر مقررأ أن كلام من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى . قال عز وجل : « قل كل من عند الله ، فالله لولا القوم لا يكادون يفقهون حديثاً »، (٤) . وبهذا زال والحمد لله الإشكال الذى كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا : ان بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً في حين أنه لاتناقض بينهما ولا تعارض وحاشا كتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً

-
- (١) سورة النساء الآية (٧٩) .
 - (٢) سورة الانبياء الآية (٣٥) .
 - (٣) سورة الفجر الآيات (١٥ - ١٧) .
 - (٤) سورة النساء الآية (٧٨) .

تناقضاً أو تعارضاً ، وكيف يكون ذلك والله منزله وهو العزيز الحكيم يقول: «وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، (١) .

ويمحسن التنبية هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه المعصية التي هي المعصية لله ولرسوله ﷺ ، والتي يترتب عليها تدسية النفس وتلویشها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه ألا ، وقضى به عليه قدراً ، لا والله ، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله ، كما أن كون العبد أى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها ، لا يدل على أنه خلق فعله فيها ، بل الخالق هو الله الذى خلقه وخلق إرادته واختياره .

ولأنما لم تنسب السينة التي هي المعصية لله ورسوله ﷺ لم تنسب إلى الله تعالى ، لأن الله تعالى قد حرّمها ، ونهى عن فعلها ، ووعد عليها ، ولم يرضها لعبده كما رضى له الطاعة ، إذ قال تعالى من سورة الزمر : ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ، (٢) . مع العلم والتسليم بأن الله تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل ، وهو على ذلك لو شاء قدير ، لكنه لم يفعل ، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه في هذه الحياة قال تعالى « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، (٣) .

فلذا مُنح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرئ بهما أن يسلك أى سبيل من سبل الهدى أو الضلال ، النى أو الرشاد ، وبسلوكه الذى أراده واختاره يصل إلى الغاية التي جعل السبيل مؤدياً إليها — سنة « فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، (٤) .

(١) سورة فصلت الآيتان (٤١-٤٢) .

(٢) الآية (٧)

(٣) سورة الملك الآيتان (٢،١) .

(٤) سورة فاطر الآية (٤٣) .

بحث مهم في المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية في إيجاد ما يريد ، ويرغب في حصوله ، وهو ظن باطل خاطيء قطعاً . وذلك : —

أولاً : — أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء ، ويرغب في تحصيله ، ويبدل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب ، ثم يخيب العبد في سعيه ، ولا يفوز بمراده .

وثانياً : — أن القدر قد سبق في كل ما هو كائن الى يوم القيامة فلم يكن في الكون الا ما كتب أزلاً ، وقدر أن يكون . وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التي يتحقق بها المراد هي نفسها مكتوبة أزلاً ، ومحكوم بوجودها في إبانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذي أراد العبد أن يفعله ، وآثر فعله واختاره على غيره وفي هذا يقرأ قوله تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين » (١) وتوضح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء الا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشئ يقع على يد العبد أوجد الله تعالى للعبد مشيئة تدفعه الى اتيان العمل . وخلق له اختياراً في نفسه يرجع به الفعل على الترتيب فيكون ذلك المقدور .

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهي أن الرب غير العبد ، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب ، وسابقة لها ، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى : لم فعل كذا ؟ أو لم لم يفعل كذا ؟ قال تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (٢) .

(١) سورة التكويد الاية (٢٩)

(٢) سورة الانبياء الاية (٢٣) .

الخاتمة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب أنزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ، (١) .

وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم في جواب من سأله عن الإيمان : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، (٢) .

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى ، وتعظيمه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، وطاعته بفعل محابه ، وترك مكارمه ، وحب رسوله ، وتعظيمه وطاعته والانتساب به ، ومتابعته ، هو وسيلة لا غاية ، ذلك أن الباعث النفسى على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعيده ، إذ لولا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لا بد من تحقيقها ، وذلك لتوقف الاستقامة عليه .

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (٣١/١) .

وهذا بيان ذلك :-

١ - الإيمان بالله تعالى وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته ، ولحبه وتعظيمه ، وطاعته وخشيته ، والتقرب إليه بفعل محابه ، واجتناب محارمه ، يشهد لهذا ، ويدل عليه قوله تعالى : « وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » (١) . إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم .

٢ - الإيمان بالملائكة وسيلة الى الاعتبار بطاعتهم لأنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون » (٢) .

ووسيلة الى الاستحياء منهم ، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه ، كما أنه وسيلة الى معرفة عظمة الله تعالى فيهم (٣) ، وقدرته عليهم اذ يقول تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يُؤمرون » (٤) .

٣ - الإيمان بالكتب وسيلة الى الإيمان بالله تعالى ، ومعرفة علمه ، وأسمائه ، ووعدته ووعيدته ، كما هو وسيلة الى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها ، وأنزلت عليهم ، ووسيلة أيضاً الى معرفة شرائع الله تعالى ، وجميع ما يحبه الله ، ويرضاه ، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات ، والأقوال ، والأفعال ، والى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة .

٤ - الإيمان بالرسول وسيلة الى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى ، وبيان

(١) سورة الانفال الآية (١) .

(٢) سورة التحريم الآية (٦) .

(٣) جاء في الصحيحين : أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمانة جناح .

اللؤلؤ والمرجان (٤١/١) ، والبخارى (١٤٠/٤) ومسلم (١٠٩/١) .

(٤) سورة النحل الآية (٥٠) .

كيفية أداء عباداته ، ووسيلة الى محبة الرسل الباعثة على طاعتهم ، واتباعهم والتزام شرائعهم .

٥ - الإيمان باليوم الآخر وسيلة الى فعل الخيرات ، وترك المنكرات بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيرى الدنيا والآخرة ، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله ، والرغبة من عقابه .

٦ - الإيمان بالقدر وسيلة الى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة ، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يؤتى الإنسان من حطام الدنيا ، ومتاعها الزائل . كما هو وسيلة الى الصبر والتحمل ، والطمأنينة والسكون (١) .

وبناء على كل الذى سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يشمر للمؤمن ثمرة خاصة ، فالإيمان بالله تعالى يشمر محبة الله ، وتعظيمه ، وطاعته ، وخشيته . والإيمان بالملائكة يشمر الاعتبار بطاعتهم ، والاستحياء منهم ، والاستئناس بهم ، والإيمان بالكتب والرسل يشمر قوة الإيمان بالله تعالى ، ويشمر معرفة ، شرائعه ، وكيفية أدائها . والإيمان باليوم الآخر يشمر الرغبة فى فعل الخيرات ، والنفرة من الشرور ، والمفاسد ، والمنكرات . والإيمان بالقدر يشمر سكون النفس ، ورضاها ، وطمأنينة القلب ، وهدوؤه ، وهدايته ، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا ، والغم على ما فات منها ، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها .

(١) قال الله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم . . سورة الحديد الآيتان (٢٢ ، ٢٣) .

وبالنظر في هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التي يشمرها كل جزء من أجزائه ، كما نجد أن تلك الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الإنسان الذاتي والروحي ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، إذ كل كمال للإنسان ، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المذكية للنفس ، والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام .

قال الله تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، (١) وقال تعالى « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً ، (٢) .

تم تحرير هذا الكتاب في الفاتح من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان
على نبيتنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

(١) سورة الشمس الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) سورة النساء الآيتان (٦٩ ، ٧٠) .

مراجع كتاب عقيدة المؤمن

١ - في التفسير

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي للتوفى ١٣٩٣ هـ الطبعة الأولى بمطبعة المدنى .

٢ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - لآبى السعود - طبعة دار المعصور للطباعة والنشر .

٣ - التسهيل لعلوم التنزيل - لابن جزي المتوفى (٧٤١ هـ) - الطبعة الثانية (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م) الناشر دار الكتاب العربى - بيروت .

٤ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ) مطبعة عيسى البابى وشركاه

٥ - جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير الطبرى المتوفى (٣٠٢ هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) دار المعرفة للطباعة والنشر .

٦ - الجامع لاحكام القرآن للقرطبي المتوفى (٦٧١ هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية .

٧ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للآلوسى المتوفى (١٢٧٠) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية .

٨ - غرائب القرآن ووعائب الفرقان لنظام الدين النيسابورى المعروف بالقمى مطبوع مع تفسير ابن جرير .

٩ - فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى المتوفى (١٢٨١ هـ) مطبعة الحلبي وأولاده .

١٠ - الفتوحات الالهية على الجلالين لسليمان الجمل المتوفى (١٢٠٤ هـ) مطبعة الحلبي وشركاه .

١١ - فى خلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الثانية - بمطبعة الحلبي وشركاه . (٣٠ - عقيدة)

١٢ — المنار للإمامين محمد عبده ورشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ) — الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بمصر ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .

ب - كتب الحديث :

١ — تحفة الأحرفى على جامع الرمضى — للمباركفورى المتوفى (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) مطبعة الحلبي .

٢ — الترغيب والترهيب للمندرى المتوفى (٦٥٦ هـ) الطبعة الثانية (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) مطبعة الحلبي .

٣ — تنوير الحوائك شرح موطأ مالك للسيوطى المتوفى (٩١١ هـ) مطبعة الحلبي .

٤ — جامع الأصول لابن الأثير الجزرى المتوفى (٦٠٦ هـ) تحقيق عبد القادر الارناؤوط للطبعة الاولى (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) مطبعة الملاح .

٥ — جمع الوسائل فى شرح الثمائل — لعلى الفارى المتوفى (١٠١٤ هـ) — الطبعة الثانية مطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .

٦ — سبل السلام على بلوغ المرام للصنعانى المتوفى (١١٨٢ هـ) الطبعة الرابعة (١٣٧٩ هـ ، ١٩٦٠ م) مطبعة الحلبي .

٧ — السندى على سنن ابن ماجه القزوينى — للسندى المتوفى (١١٣٨ هـ) الطبعة الاولى بالمطبعة النازية بمصر .

٨ — سنن أبى داود — الطبعة الاولى (١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م) مطبعة الحلبي .

٩ — سنن الترمذى — للترمذى المتوفى (٢٧٩ هـ) المطبعة الوطنية بمصر — (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) .

١٠ — سنن الدارمى — لعبد الله الدارمى المتوفى (٢٥٥ هـ) بتحقيق عبد الله هاشم عانى — شركة الطباعة الفنية المتحدة .

١١ — السيوطى على النسائى ومعه حاشية السندى (١١٦٣) — المطبعة المصرية بالأزهر .

١٢ — شرح الموطأ للزرقانى — مطبعة مصطفى محمد (١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م) .

١٣ - شرح النووي على صحيح مسلم - للنووي المتوفى (٦٧٦ هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها .

١٤ - صحيح البخارى - للبخارى - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده - تسعة أجزاء ، صحيح مسلم - لمسلم المتوفى (٢٦١ هـ) منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

١٥ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى - للبدر العيني المتوفى (٨٥٥ هـ) المطبعة المنيرية .

١٦ - عون المعبود شرح سنن أبي داود . الطبعة الثانية (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) .

١٧ - فتح البارى شرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى المتوفى (٨٥٢ هـ) طبعة الحلبي (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م) .

١٨ - الفتح الربانى ترتيب مسند الامام أحمد الشيبانى - للساعاتى - الطبعة الاولى - مطبعة الفتح الربانى .

١٩ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - لمحمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الاولى - مطبعة الحلبي .

٢٠ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - لنور الدين الهيثمى المتوفى (٨٠٧ هـ) الطبعة الثانية (١٩٦٧ م) .

٢١ - مستدرک الحاكم على الصحيحين - للحاكم المتوفى (٤٠٥ هـ) - نشر مكتبة الطابع النصر الحديثة بالرياض .

٢٢ - مسند الامام أحمد - لاحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١ هـ) الطبعة الاولى (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) المكتب الإسلامى دار صادر .

ج - كتب العقيدة :

١ - آكام اللؤلؤ والمرجان فى أخبار الجان للشبلى الحنفى المتوفى (٧٦٩ هـ) طبعة محمد علي صبيح (١٣٧٦ هـ) .

٢ - الإسلام فى عصر العلم للفرأوى - الطبعة الاولى (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م) مطبعة السعادة .

٣ - الإسلام يتحدى - لوجيد الدين خان - الطبعة الاولى (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) .

٤ - إلى التي سألت : أين الله ؟ للاستاذ أحمد بهجت .

٥ - الإيمان - لابن تيمية المتوفى (٧٢٨ هـ) المكتب الإسلامى بدمشق (١٣٨١ هـ ، ١٩٦١ م) .

٦ - التوسل ، أنواعه ، وأحكامه - للالباقى - الطبعة الاولى .

٧ - تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد - لسلیمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب المتوفى (١٢٣٣ هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٠ هـ) طبعة المكتب الإسلامى .

٨ - شرح الطحاوية بتحقيق الالباقى - الطبعة الرابعة (١٣٩١ هـ) المكتب الإسلامى ببيروت .

٩ - الشرك ومظاهره - للممبلى الجزائرى - الطبعة الثانية (١٩٦٦ م) .

١٠ - العقيدة الإسلامية وأسسها - لمحمد عبد الرحمن حبنك .

١١ - قصة الإيمان - للجسر - الطبعة الثالثة (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) المكتب الإسلامى .

١٢ - الكواشف الجلية عن معانى الواسطية - لعبد العزيز السلیمان - الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الاعلام .

١٣ - لوامح الانوار البهية - للسفارينى - المتوفى (١١٨٨) الطبعة الاولى .

د - كتب السيرة :

١ - البداية والنهاية - لابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ) الطبعة الاولى (١٩٦٦ م) .

٢ - الروض الائق - للسبيل - الطبعة الاولى (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م) دار النصر للطباعة .

٣ - سيرة ابن هشام - لابن هشام المتوفى (٢١٨ هـ) بتعليق الحراس ، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد .

٤ — محمد المثل الكامل — محمد أحمد جاد المولى — الطبعة الرابعة (١٣٧١ هـ)
١٩٥١ م) مطبعة الاستقامة .

٥ — مختصر سيرة الرسول . لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى
(١٢٤٤ هـ) مطابع الحكومة بمكة .

٥ — كتب اللغة :

١ — دائرة معارف القرن العشرين — لفريد وجدي المتوفى (١٣٧٣ هـ) —
الطبعة الثالثة (١٩٧١ م) دار المعرفة للطباعة والنشر .

٢ — القاموس المحيط — لابن خلدون المتوفى (٨١٧ هـ) المطبعة
الحسنية المصرية .

٣ — لسان العرب لابن منظور — دار بيروت للطباعة والنشر .

٤ — مختار الصحاح — للرازي المتوفى (٦٦٦ هـ) الطبعة الأولى (١٩٧٦ م) .

٥ — منجد الطلاب — لمخوف — الطبعة السابعة عشرة .

الفهرست

الصفحة

الموضوع

المقدمة

٣

٩

حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له .

الإنسان . — تعريفه . — بدأ خلق الإنسان . — حقوقه . — الآيات القرآنية في خلق آدم وذريته . — الكلمات التي تلقاها آدم من ربه . — فتاب بها عليه . — مادة خلق كل من الملائكة ، والجان وآدم عليه السلام . — إتيان الناس آدم يوم القيامة ليشفع لهم عند الله تعالى واعتذاره إليهم . — احتجاج موسى على آدم عليهما السلام ، وغلبة آدم في الحجج . — فضل يوم الجمعة على سائر الأيام . — خلق ذرية آدم كان بالخلق التدريجي وخلق آدم عليه السلام كان بالخلق المباشر الإنسان في معتقد بعض الملاحدة . — كونه متحولاً عن خلية هبطت من بعض السمكوات . — ثم ارتقى إلى حيوان ردى ثم إلى حيوان أرقى ثم إلى إنسان . — نظرية النشوء والارتقاء . — التطور . — عامل الوراثة . — ثم يكون التشعب في الولد . — السن البكونية هي من خلق الله تعالى ، فلذا هو إن شاء أو قفها وإن شاء أمضاها سنة التدرج في خلق بني آدم . — سقى الله تعالى في الكون سماها الملاحدة بالقولدين الطبيعية . — تضليلاً وتغريباً . — الاعتراضات على النظرية الداروينية . — نقض النظرية الداروينية في خلق الإنسان وإثبات أن آدم عليه السلام خلق بالخلق المباشر . — قول أحد العلماء الغربيين في النظرية الداروينية : بأنها أبوها التكفر وأما القذارة !!

٢١

٢٢

العقيدة . — ثم فصل يأتى معنى موأوضحه .

حاجة الإنسان إلى العقيدة . — إبطال قرينة الماركسية في أن الإنسان هو الذي خلق الإله . — إبطال مزاعم الملاحدة في أن الإنسان اليوم قد استغنى عن الإيمان بالله تعالى وعن الدين . — ظهر إنكار الملاحدة للدين

- ٢٧ بيان وجه ضرورة الدين للإنسان - إبطال دعوى أن العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان دون الدين - بيان المراد من الدين الضرورى لإكمال الإنسان والسعادة وأنه الدين الإسلامى لا غير - دعوة عقلاء العالم إلى الدين الإسلامى ، إذ هو الدين الوحيد الكفيل بإسعاد الإنسان ، لأنه لم يحرف ولم يبدل بخلاف غيره من الأديان قائما فسدت بالتحريف والتبدل والنقصان والزيادة التي وقعت فيها .
- ٣٣ الإيمان بالله رب العالمين - وبيان المسلك الصحيح في إثبات وجود الله تعالى - مثل من أنكر وجود الله وكفر به لمجرد أن عرف بعض ظواهر الطبيعة - مناقشة لهكلمات الطبيعة ، والضرورة ، والصدقة وتعريف كل منها - لم يكفر الملاحدة بالله تعالى إلا فرارا من الطاعة والنظام - بيان معنى الصدقة - أمثلة لطلان الصدقة بيان معنى الضرورة التي يقول بها الملاحدة ✓
- ٤٥ معرفة الله جل جلاله ، ومراتب المؤمنين فيها
- ٤٧ الطريقة الأولى من طرق الهداية العقلية .
- ٤٨ قانون العلة وبيانه ، قانون الوجوب وبيانه - قانون الحدوث وبيانه - قانون النظام وبيانه - قانون العناية بالإنسان وبيانه
- ٥٥ مظاهر العناية بالإنسان في الكون
- ٥٧ الهداية الدينية وبيان كونها تجمع بين الهدايتين العقلية والشرعية
- ٧٤ مقارنة بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بالطبيعة العمياء .
- ٧٧ أسماء الله تعالى وصفاته - ذكر مبدئين هامين في باب الأسماء والصفات
- ٨٠ خلاصة بحث الأسماء والصفات - براءة واعتذار
- ٨٣ التوحيد
- ٨٧ تبويب الروبوية
- ٨٨ قطعية الإقرار بالروبوية
- ٨٩ الإلحاد الشيوعى - فهو امل الإلحاد في العالم ✓
- ٩١ أوروبا الضحية الأولى للإلحاد الشيوعى

- ٩٥ شرك الربوبية ومظاهره في الامة الاسلامية
- ٩٩ توحيد الألوهية - الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت هو مدلول لا إله إلا الله - لا تكون العبادة قربة إلا إذا توافر لها العلم بها ، ومعرفة كيفية أدائها وأفراد الله تعالى بها .
- ١٠٥ الشرك في الألوهية، ومظاهره في الامة الإسلامية ، وتعريف الشرك
- ١٠٧ الذات المقدسة - صفات الله تعالى وأسمائه
- ١٠٨ بيان ما يرتكبه الموقول لصفات الله تعالى من جهل وخطأ وكفر
- ١٠٩ عبادات الله تعالى وبيانها بالتفصيل ، وبيان كيف يوجد الله بها
- ١١٠ أعمال القلوب - المحبة وبيانها
- ١١٢ الخوف والخشية وبيان الفرق بينهما - الرجاء والرغبة
- ١١٣ الإنابة وبيان كل منها
- ١١٤ التوكل وبيان أعمال الجوارح - الدعاء
- ١١٥ الاستغاثة وبيانها - النذر وبيانها - ذبح القربان وبيانها - الركوع والسجود - الطواف بالبيت وتقبيل الحجر الأسود - سائر أنواع العبادات - ترك طاعة الله ورسوله للرغبة أو الرهبة - تعظيم الله تعالى بالحلف به - الوسيلة - تعريف الوسيلة لغة وشرعا - مبنى الوسيلة الشرعية على ثلاثة أمور - شروط الوسيلة النافعة ثلاثة وبيانها - بيان ما يجوز من الوسيلة وما لا يجوز منها مع أمثلة للوسائل المحرمة - التوسل في الأمور الإلهية
- ١٢٩ الوسائل المشروعة - التوسل بالإيمان وبيان أنه من أشرف الوسائل
- ١٣٠ الصلاة والصيام من أشرف الوسائل وأنفعها
- ١٣٢ التوسل بالصدقات من طيب المال ويطيب النفس
- الحج والاعتبار من الوسائل المفيدة في الحصول على الرغائب
- ١٣٣ الجهاد والرباط وكونهما من أعظم الوسائل للفوز بالقرب من الله تعالى
- ١٣٤ تلاوة القرآن الكريم ، والذكر والتسبيح من الوسائل النافعة

الصفحة

الموضوع

- ١٣٥ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من الوسائل النافعة
- ١٣٦ الاستغفار من الوسائل المشروعة النافعة
- ١٣٧ الدعاء - دعاء المؤمن من الوسائل المجدية النافعة
- ١٣٩ التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا
- ١٤٠ فعل الخيرات وترك المحرمات من الوسائل النافعة جداً
- ١٤٣ الوسائل المحرمة - دعاء الصالحين
- ١٤٤ التذرع لهم - الذبائح على قبورهم
- ١٤٥ المكوف حولها - سؤال الله تعالى بمجاه فلان
- ١٤٦ سؤال الله تعالى بحق فلان
- ١٤٧ تنبيه هام في بيان ثلاث شبه وردت في أربعة أحاديث : حديث الضير وحديث استسقاء عمر بالعباس رضى الله عنهما وحديث اللهم إني أسألك بحق الساتين عليك - وحديث فاطمة بذت أسدرضى الله عنها
- ١٥٣ الاستشفاع والشفع والشفاعة
- ١٥٤ قياس خاطئ - في مسألة الشفاعة
- ١٥٧ الشفاعة في الآخرة وهي قسمان ثابتة ومنفية - شفاعات الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها الشفاعة العظمى في فصل القضاء
- ١٦٢ شروط الشفاعة المثبتة
- ١٦٥ التبرك وبيان حقيقته
- ١٦٦ بم يكون التبرك ؟
- ١٦٧ كيف يكون ؟ وبيان حقائق هامة في باب التبرك
- ١٦٩ الولاية والكرامة - بيان أصل الولاية وشرطها
- ١٧٣ الفرق بين ولاية الرب للعبد وولاية العبد للرب تبارك وتعالى
- ١٧٤ الولي - معنى مولاة الله تعالى للعبد
- ١٧٥ الكرامة وهي خاصة وعامة - وبيان أحوال أهلها
- ١٧٧ مراتب الاولياء

الصفحة	الموضوع
١٧٨	تقارير هامة تتعلق بالإولياء والكرامات
١٨١	أولياء الشيطان ومهائاتهم
١٨٢	الإيمان بالملائكة وهو الركن الثاني من أركان عقيدة المؤمنين — مقدمات هامة في هذا الشأن تجعل الإيمان بالملائكة يقينياً في نفس المؤمن
١٨٦	الأخبار
١٨٨	الآثار
١٨٩	الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية .
١٩١	خلق الملائكة — مادة الخلق
١٩٢	تفاضل الملائكة — أعمال الملائكة
١٩٩	بعض صفات الملائكة
٢٠٣	الجن والشياطين
٢٠٤	أدلة وجود الجن والشياطين
٢١٠	وجوب الإيمان بالجن والشياطين
٢١١	بعض معلومات هامة عن الجن والشياطين ، وذلك كتوابعهم ، وتغذيتهم ، ومادة خلقهم وما إليه من معلومات تتعلق بعلومهم
٢٢٣	فائدة عظيمة النفع في دفع الشيطان
٢٢٥	الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمنين : الإيمان بالكتب — تعريف الكتب — حقيقة الإيمان بالكتب
٢٢٦	ما عرف من الكتب الإلهية ، وما لم يعرف
٢٣١	على أي دليل آمن المؤمن بالكتب
٢٣٧	أدلة وجوب الإيمان بالكتب وكونه ركن الإيمان
٢٤٠	منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى
٢٤٣	لوحته مشرقة ببيان ما في القرآن من الهدى والخير
٢٤٦	شرائط الابتغاء التام بما في القرآن من الخير والهدى

الصفحة	الموضوع
٢٤٨	تقرير أخير لعقيدة المؤمنين في الكتب الأربعة : القرآن ، والتوراة والإنجيل والزبور
٢٥١	الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمنين : الإيمان بالرسول عليهم السلام إمكان الوحي — تعريف الوحي
٢٥٣	الوحي الإلهي وطرقه — تعريفه
٢٥٧	ضرورة الوحي وحاجة الناس إليه
٢٥٨	النبوءة — تعريفها
٢٥٩	النبي تعريفه — مؤهلات النبوءة — المثالية
٢٦٠	شرف النسب — عامل الزمن
٢٦٢	صفات الأنبياء — الصدق — الأمانة — التبليغ — القطانة
٢٦٥	الرسال عليهم السلام — الرسل في التاريخ
٢٦٩	عدد الرسل
٢	زمن وجود كل منهم
٢٦	ديارهم
٢٦٩	أولوا العزم منهم
٢٧٠	وجوب الإيمان بالرسول عليهم السلام
٢٧٣	محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم — التعريف به — نشأته — زواجه — أولاده
٢٧٤	عناية الله تعالى به
٢٧٦	نبوته وبعثته
٢٧٧	يقينه ودعوته
٢٧٩	مؤهلاته للنبوة — كماله الخلقى — كماله الخلقى
٢٨٣	رجاءة عقله

الصفحة	الموضوع
٢٨٥	شجاعته — سياسته
٢٨٧	رحمته
٢٨٩	كرمه
٢٩٠	عدله — عفوه وحلمه
٢٩٢	شرف نسبه — طهارة أرومته
٢٩٤	وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم — أدلة ذلك — شهادة الكتب السابقة له على نبوته — ما جاء من البشارات بنبوته في التوراة والانجيل
٢٩٦	شهادة علماء أهل الكتابين بنبوته صلى الله عليه وسلم
٢٩٩	شهادة بلايين المسلمين بنبوته ورسالته وإيمانهم بهما — شهادة الله تعالى له بنبوته
٣٠٠	شهادته وهي قسمان : شهادة أخبار
٣٠١	شهادة معجزات — المعجزات المحمدية وذكر عدد منها .
٣٠٦	ختم النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأدلة ذلك العقلية والسمعية الشريفة
٣١١	الركن الخامس من أركان عقيدة المؤمن بالإيمان باليوم الآخر — تعريف اليوم الآخر — إمكان الفناء وأدله
٣١٣	إمكان المعاد وأدله — البعث وأدله
٣١٨	الحكمة في المعاد
٣٢٠	وجوب الايمان باليوم الآخر وأدلة ذلك من سمعية وعقلية
٣٢٣	ظواهر الانقلاب الكوني أو أشراف الساعة — الآيات الصغرى ما ظهر منها وما لم يظهر منها إلى الآن — الآيات الكبرى
٣٢٢	آيات قرينة جداً من قيام الساعة
٣٣٤	بداية الانقلاب الحقيقي
٣٣٧	نصرة الحياة الثانية بعد انتهاء الأولى
٣٤١	الحشر والموقف الصعب في عرصات القيامة — تعريف الحشر .
٣٤٣	فصل القضاء والشفاعة فيه

الصفحة

الموضوع

- ٢٤٥ الحساب والميزان ، بعد إعطاء الناس كتبهم واختلافهم في تناولها
- ٢٤٨ الهراط — مرور الناس عليه — دعوة النبي صلى الله عليه وآله يومئذ
اللهم سلم سلم
- ٢٤٩ القنطرة بين الجنة والنار
- ٢٥١ دار السلام — سمعها — طير يحياها — أبوابها — عند باب الجنة — استقبال
أهل الجنة — قصور دار السلام — وتفاضلها .
- ٢٥٧ نظرة على أرض الجنة
- ٢٥٨ جنة عدن .
- ٢٥٨ تنبيه في الخلق المباشر كآدم وجنة عدن . والغرض من ذلك .
- ٢٥٩ الحيام والأسواق في دار السلام .
- ٣٦٢ أنهار الجنة وأشجارها
- ٣٦٤ المطاعم والمشارب في الجنة — الأرائك والسرر — نساء دار السلام .
وحسنهن وجمالهن — الطرب وركوب الخيل في دار السلام .
- ٣٦٩ أكبر نعيم روحاني لأهل دار السلام هو النظر إلى وجه الرب تبارك
وتعالى وهو آخر بحث دار السلام وما فيها من إنعام
- ٣٧١ دار البوار — مجيهم للناس في الموتف — أبوابها — كيفية الدخول من
تلك الأبواب — عذاب أهلها فيها — تلاومهم — خطبة إبليس
في أهل النار — درجة الحرارة في جهنم .
- ٣٧٨ لون نار جهنم — عمقها وبعد فورها — أوديتها — سلاسلها وأغلالها
الحيات والعقارب فيها .
- ٣٨٣ طعام أهل النار — الزقوم — الفسليين — الضريع .
- ٣٨٥ مشارب أهل النار — الحميم — الصديد — المهل — ماء — نهر الغوطة
- ٣٨٧ فحش أجسام أهل النار — قبح منظرهم — تفاوتهم في العذاب — بكاء
أهل النار وعويلهم
- ٣٩٣ البرزخ — تقسيم الحياة إلى ثلاث حيوات ، وبيان كل منها
- ٣٩٦ مراحل جريان التعميم أو العذاب على الروح وهي في البرزخ — عذاب
القبر ونعيمه — عروج الروح بعد قبضها وردها إلى جسدها قبل
الدفن — سؤال المسكين للميت في قبره

الصفحة

الموضوع

نعيم الروح أو عذابه وهو بعيد عن القبر في عليين أو سجين مع اتصال الروح بالقبر اتصالاً مباشراً دائماً وأبداً إلى يوم يبعثون .
- الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن الايمان بالقضاء والقدر .
الكون والمظاهر التنظيم فيه - ثلاث مقدمات مهمة في التمهيد لمعرفة القضاء والقدر

- ٤١٧ القضاء والقدر
- ٤٢١ ثمرة الرضاء بالقضاء
- ٤٢٥ الجبر وحقيقته - أول من قال به .
- ٤٢٧ لا جبر ولا نقي للقدر - الانسان فاعل مختار - والله خالق الانسان وخالق أفعاله .
- ٤٣٠ الابليسية وبيان مذهبه الفاسد .
- ٤٣٩ إرادة الله تعالى ومشيتته - عدم جواز الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاصي ، وجواز الاحتجاج به على المصائب . حجاج آدم وموسى عليهما السلام
- ٤٤٧ سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أو قعهم في الحيرة والخطأ
- ٤٥٠ الهداية والإضلال
- ٤٥٣ الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعبدل الالهيين .
- ٤٥٦ الحسنه والسينة من الله تعالى ، أو من النفس .
- ٤٦٠ بحث مهم في المشيئة .
- ٤٦١ الخاتمة في بيان أن مرد أركان الايمان إلى ما يثمره من أعمال القلوب والجوارح تلك الاعمال التي تطهر الروح ، وتزكى النفس ، وتهيء الانسان للتعادة والسكان في الحال والمآل .
- ٤٦٥ مراجع الكتاب .